

تَمْلِيَقَاتٌ عَلَى كِتَابِ
قُرَّةِ عَيْنِ الْمَوْحِدِينَ
فِي تَحْقِيقِ
حُجَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

حَاشِيَةً عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِلْإِمَامِ / مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

تَأَلِيفُ

الْمُسَيِّغِ الْإِسْلَامِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

أَنْزَلَ اللَّهُ لَهُ السَّرِيَّةَ وَالْغَفَرَةَ

التَّمْلِيَقَاتُ

لِفَضِيلَةِ الْمُسَيِّغِ الْعَلَامَةِ

الْكَاتِبِ مُحَمَّدِ بْنِ مُرَّةٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

بِقَرَارِهِ لَهُ وَلَهُ الرَّحْمَةُ وَلِيَعْلَمَ السَّامِعُونَ

اِبْتِغَاءَ بَرٍّ وَاسْتِغْفَارِ غَلِيظٍ مِنْهُ

و. سَلَامَانِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفُوزَانِ

بِقَرَارِهِ لَهُ وَلَهُ الرَّحْمَةُ وَلِيَعْلَمَ السَّامِعُونَ

الْبَيْتُ الْبَالِي

بِكُتُبِ الْأَمِيرِ الْأَخِي

الْمَكُونِ

الْبَيْتُ الْبَالِي

الْمَكُونِ

تَلَقِيَّاتٌ عَلَى كِتَابِ
قُوَّةِ عَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ
فِي تَحْقِيقِ
حِكْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
جَاشِعٌ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ
لِلْإِمَامِ الْأَبِي هَالِبٍ

مَجْمَعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
الطَّبَعَةُ الْأُولَى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م



شركة مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

♦ الرئيسي - حولي - شارع المثني - مجمع البدري

ص.ب: ١٠٧٥. الرمز البريدي ٣٢٠١١

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

♦ فرع حولي - شارع المثني - تلفون: ٢٢٦١٥٠٤٦

♦ فرع المباركية - مقابل مسجد ابن بحر - ت: ٢٢٤٩٠٦٠٤

♦ فرع الفحيحيل البرج الأخضر شارع الديوس - ت: ٢٥٤٥٦٠٦٩

♦ فرع المصاحف - حولي - مجمع البدري: ت: ٢٢٦٢٩٠٧٨

♦ فرع الرياض - المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي ت: ٠٥٥٧٧٦٥١٣٨

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩

E - mail: z.zahby74@yahoo.com

تَعْلِيقاتٌ عَلَى كِتَابِ
قُرَّةِ عَيْونِ الْمُؤَحِّدِينَ
فِي تَحْقِيقِ
تَجَمُّعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
حَاشِيَةً عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِلإِمَامِ / مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ

تَأْلِيفُ
السَّيِّدِ أَهْمَدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَهَّابِ
أَعَزَّ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمُ الْمُسَوِّمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ

التَّعْلِيلَاتُ
لِفَضِيلَةِ السَّيِّدِ الْعَلَّامَةِ
الدَّكْتُورِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ
بِعِزَّةِ اللَّهِ لَهُ وَلَوْ أَنَّ الدِّينَ دُخِيَ السَّيِّئِينَ

اِمْتَنَعَ بِهِ وَأَسْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ
و. سَلَمَانُ بْنُ حَبَابٍ عُمَانِي (مُحَمَّدِي) الشُّوَيْبِي
بِعِزَّةِ اللَّهِ لَهُ وَلَوْ أَنَّ الدِّينَ دُخِيَ السَّيِّئِينَ وَشَايَعُوهُ

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

مَكْتَبَةُ الْأَعْلَامِ الدَّهْيِيَّةِ
الْكُوَيْتِ

الْبَيْتُ الدَّهْيِيُّ
الرِّيَاضِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ] أي: من النهي عنه والتحذير.

قوله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾] أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إليّ، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قال شيخ الإسلام: (أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة)^(١)، وذكر الأدلة على ذلك.

قال ابن القيم في الآية: (أي: كما أنه إله واحد لا إله إلا هو، فكَذَلِكَ ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن ينفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة)^(٢) انتهى.

فتضمنت الآية النهي عن الشرك كله قليله وكثيره.

... — الشَّبَحُ — ...

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ) أي: ما جاء من الأدلة في حكم الرياء. والرياء: مأخوذ من الرؤية، والمراد به المراعاة بالأعمال الصالحة، بأن يقصد

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٢).

(٢) انظر: الجواب الكافي (ص ٩١).

العامل أن يراه الناس، فيمدحوه ويشنوا عليه. هذا هو الرياء وهو نوع من الشرك؛ لأنه قصدٌ لغير الله عَزَّجَلَّ، والنيات والمقاصد من أعمال القلوب لا يعلمها إلا الله عَزَّجَلَّ، ولذلك يُسمى بالشرك الخفي فرقاً بينه وبين الشرك الظاهر الذي يُرى؛ كالسجود للأصنام، والذبح لغير الله، أو الذي يُسمع؛ كدعاء غير الله عَزَّجَلَّ. فالشرك في الأقوال والأفعال هذا ظاهر يراه الناس، وأما الشرك في النية فهذا شرك خفي لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وَالشُّرْكَ فَآخِذْهُ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ذَا الْقِسْمِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْغُضَرَانِ
وَهُوَ اتِّخَاذُ النَّدِّ لِلرَّحْمَةِ مِنْ أَيَّا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانٍ
يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُ وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدِّيَانِ^(١)

فالشرك الظاهر لا يقع فيه إلا المشركون الذين يُعرف أنهم مشركون، ولا يقع فيه أهل الصلاح وأهل التقوى، أما الشرك الخفي فقد يحصل من الصالحين ويحصل من الطيبين، ولهذا خافه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صحابته، فقال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ». قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ: يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَهُمْ جَزَاءً؟»^(٢). فهذا الشرك خطير جداً؛ لأنه يقع حتى من الصالحين، إلا ما عصمه الله عَزَّجَلَّ.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/٢٦٣).

(٢) سبق تخريجه (١/٢٨٦).

❁ قوله: (وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾) يأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يعلن للناس أنه بشر مثلهم، ليس له من الأمر شيء، ولا من الربوبية ولا من الألوهية شيء، إنما هو عبد من عباد الله عز وجل، إلا أن الله ميزه بالوحي والرسالة، فهو عبد الله ورسوله. وفي هذا ردُّ على الغلاة الذين يغفلون في النبي صلى الله عليه وسلم، ويزعمون أنه يعلم الغيب، وأنه يتصرف في الكون، ويرفعونه من منزلة البشرية إلى منزلة الربوبية، كما فعل النصارى مع عيسى عليه الصلاة والسلام.

❁ قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ هذه هي الميزة التي خصه الله عز وجل بها أنه يوحى إليه، والوحي في اللغة: هو الإعلام بخفاء، وهو يكون بواسطة الملك الموكل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام، ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي من الله عز وجل، قال عز وجل: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]. وقد يكون الوحي إلهام بدون واسطة ملك مثل؛ كما في قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، يعني: ألهمناها، وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، هذا إلهام من الله عز وجل، ألهم النحل أن تعمل هذا العمل العجيب.

أما وحي الإرسال فلا يكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

❁ قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ هذا الذي أوحاه الله إليه: الأمر بالتوحيد، وهو أفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، فلا يجوز أن يُشْرَكَ معه غيره، لا الملائكة، ولا الأنبياء، ولا الصالحون، ولا الأحجار،

ولا الأشجار، لا يُشْرِك معه سبحانه أحدٌ لا في الأعمال، ولا في الأقوال، ولا في المقاصد والنيات.

❁ قوله: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: يرجو ما عند الله عَزَّجَل من الثواب والجنة. وقال: ﴿يَرْجُوا﴾ لأنه ليس هناك أحد يجزم لنفسه بالنجاة، لا الأنبياء ولا غيرهم، فكل الخلق يرجون رحمة الله وثوابه، قال عَزَّجَل: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

❁ قوله: ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وهو الوقوف بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد البعث والنشور. قال شيخ الإسلام: (أما اللقاء فقد فسرهُ طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعينة) يعني: الرؤية، فيكون المعنى: من كان يرجو لأن يرى ربه - لأن الله وعد المؤمنين بأنهم يرونه في الجنة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ لأن رؤية الله لا تحصل إلا بالأعمال الصالحة التي تؤهل صاحبها لهذا الموقف العظيم.

أما الكفار فإنهم لا يرون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّجَل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

والعمل لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الأول: خلوه من الشرك الظاهر، والخفي، والأكبر، والأصغر.

الثاني: إصابة السنة، بأن يكون على وفق ما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيخلو من البدع والمحدثات.

فإن اختل شرط من هذين الشرطين كان عملاً غير صالح، إن كان فيه شرك فهو غير صالح، وإن كان فيه بدعة فهو غير صالح مردود لا يُقبل من صاحبه.

❁ قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ﴾ ❁ هذا نهى عن أن يشرك بالله أي أحد، وكلمة (أحداً) نكرة في سياق النهي تعم كل أحد، حتى الملائكة والأنبياء والرسل والأولياء والصالحين، فإن الله عَزَّجَلَّ لا يرضى أن يُشرك معه أحدٌ، سواء أكان شركاً ظاهراً أم شركاً خفياً، وهو الرياء.

هذا هو وجه الشاهد من الآية، أنها تشمل النهي عن الشرك بأنواعه، ومنه شرك الرياء؛ لأنه نوع من الشرك، لكنه خفي في القلوب لا يعلمه إلا الله.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي» أي: قصد بعمله غيري من المخلوقين، «تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ»: قال الطيبي: (الضمير المنصوب في قوله: «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل)^(٢).

قال ابن رجب: (واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضًا، كحال المنافقين؛ كما قال: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في فرض الصدقة الواجبة، أو الحج، أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز.

وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله: فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه.

وذكر أحاديث تدل على ذلك، منها هذا الحديث، وحديث شداد بن أوس مرفوعًا: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي،

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٥٠٢/٩).

مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنْ حَشَدَهُ عَمَلُهُ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَهُ بِهِ،
وَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ. رواه أحمد^(١).

قال الإمام أحمد فيمن يأخذ جعلًا على الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم
فلا بأس، كأنه خرج لدينه، فإن أُعطي شيئًا أخذه.

ثم قال: وأما إذا كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان
خاطرًا ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله
أم لا؟ ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد
حكاه الإمام أحمد، وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى
بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن وغيره^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

✽ يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي هريرة الذي أورده المصنف
رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى»، هذا حديث قدسي يرويه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه لفظًا
ومعنى، بخلاف الحديث النبوي، وهو ما كان معناه من الله عَزَّجَلَّ ولفظه من
الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

وسمي الحديث القدسي بذلك نسبة إلى القدس، وهو التطهير والتنزيه؛
لأن الله عَزَّجَلَّ منزّه عن صفات النقص.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٢٥).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص ١٦، ١٧).

❁ قوله: «أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ» نزه نفسه سبحانه وتعالى عن الشرك، وأخبر أنه لا يقبل العمل الذي فيه شرك، وهو سبحانه غني عن أعمال عباده، حتى الأعمال الصالحة الله غني عنها، وإنما نفعها يرجع إلى أصحابها، لكن الله ذكر الشرك هنا من باب التنبيه على خطره، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ﴾ [فاطر: ١٠]، فهو سبحانه يقبل العمل الصالح ويشيب عليه، ولا يقبل العمل الفاسد.

❁ قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» هذا -كما سبق- أن العمل يُشترط فيه أن يكون خالصاً لله عَزَّجَلَّ، فإن كان فيه شرك فإن الله عَزَّجَلَّ لا يقبله، ويرده على صاحبه.

❁ وقوله: «أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي» هذا يعم كل من أشرك مع الله عَزَّجَلَّ في الأعمال، أي: كان: ملكاً، أو نبياً، أو غير ذلك.

❁ قوله: «تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» أي: ترك الله عمله ولم يقبله، وفي رواية عند الإمام أحمد: «فَإِنْ حَشَدَهُ عَمَلُهُ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، وَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ». فالعمل الذي فيه شرك لا يقبله الله، ولا يشيب عليه صاحبه؛ لأنه عمل باطل، وهذا يدل عليه قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قيل معنى الآية: أنهم كانوا يقسمون الزرع والأنعام إلى قسمين: قسم يزعمون أنه لله، وقسم منها يجعلونه للأصنام، فإذا تلف شيء مما هو لله لا يعوضون له، وإذا تلف شيء مما هو للأصنام يأخذون مما هو لله ويعوضون به ما للأصنام، ويقولون: إن الله غني، وأما الأصنام فهي فقيرة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: إذا حصل نقص في حق الله لا يجبرونه مما لأصنامهم، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ﴾ أما إذا حصل نقص في نصيب شركائهم أخذوا من حق الله وجبروا النقص^(١).

وقيل في معنى الآية - كما قيل في معنى الحديث - : أن العمل الذي فيه شرك لا يقبله الله عَزَّجَلَّ.

* وقوله: «تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ» يشمل الشرك الظاهر، والشرك الخفي.



(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٠-٤١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٨٠).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «الشُّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيَزِينُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ^(١).

قوله: [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]: هو الخدري وتقدم.

قوله: «الشُّرْكُ الْخَفِيُّ»: سماه خفيًّا؛ لأنه عمل قلب لا يعلمه إلا الله، ولأن صاحبه يُظهر أن عمله لله، وقد قصد غيره أو شره فيه بتزيين صلاته لأجله. ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة.

قال ابن القيم: (وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا أكبر بحسب حال قائله ومقصده) انتهى^(٢).

... — الشَّبَحُ — ...

هذا الحديث له سبب، وهو: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى أصحابه وهم يتحدثون عن الدجال، والدجال: المراد به المسيح الأعور الدجال الذي يخرج في آخر الزمان - نسأل الله العافية - ومعه فتنة عظيمة، ويهلك بسببه خلق كثير، ولا يَسْلَمُ من فتنته إلا من سلمه الله عَزَّوَجَلَّ، حيث يخرج على

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠/٣).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/٣٤٤).

الناس ومعه جنة ونار، فيأمر السماء فتُمْطَرُ، ويأمر الأرض فتَنْبِتُ وتُخْرِجُ كنوزها، وما هو إلا عبدٌ ضعيف، ولكن الله عَزَّجَلَّ أعطاه هذه الأمور من أجل فتنة الناس وامتحانهم. فيخرج على الناس ويدَّعي أنه الله، وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه عليه علامات تبين أنه كذاب ودجال وأنه أعور، وهذا عيب فيه، والله عَزَّجَلَّ ليس بأعور^(١)؛ لأنه منزّه عن العيوب، ولكن مع هذا ينحرف معه كثير من الخلق لأن فتنته عظيمة.

ثم ينزل المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَام فيطلبه ويقتله ويريح المسلمين من شره^(٢).

(١) أخرج البخاري (٣٠٥٧)، ومسلم (١٦٩) من حديث ابن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس، فَأَثْنَى على الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَالَ، فقال: «إِنِّي أَنْذِرُكُمْ هُوَ، وما من نبيٍّ إلا قد أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لقد أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعُورٌ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعُورٍ».

(٢) كما في حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨١/٤) وفيه: «... فَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطَرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْبِتُ، وَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأَمَدُهُ خَوَاصِرًا وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعًا، وَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَتَتَّبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ، فَيُضْبِحُونَ مُنْجِلِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ، وَيَمُرُّ بِالْحَرَبَةِ فَيَقُولُ لَهَا اخْرُجِي كُنُوزَكُمْ فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّخْلِ، قَالَ: وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيَقْتُلُ فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ إِلَيْهِ يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ، قَالَ: فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِي دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَيْنِ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَيْنِ، فَيَتَّبِعُهُ فَيَدْرِكُهُ فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابٍ لَدَى الشَّرْقِيِّ».

هذا هو المسيح الدجال، لما ذكره الصحابة -رضوان الله عليهم- وذكروا فتنته خافوا أن يخرج عليهم، وخرج إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يتحدثون عنه، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ». خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه أشد من خوفه عليهم من المسيح الدجال، وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء، فكيف لا نخافه نحن؟!!

فيجب على المسلم أنه يخاف من الرياء ولا يزكي نفسه، وإذا أحسن بشيء منه فإنه يستعيز بالله، ويتوب إلى الله، ويرجع إلى الله.

❦ قوله: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ» سُمِّيَ خَفِيًّا لأنه في النية والقصد، ولا يظهر للناس منه شيء، فقد يصلي الرجل ويراه الناس يركع ويسجد، ويظهر لهم أن هذا عمل صالح، لكنه في قلبه لا يريد بعمله وجه الله، إنما يريد مدح الناس، فعمله هذا غير مقبول عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والرياء قد يكون من المنافقين الذين قال الله عَزَّجَلَّ فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. فيقع الرياء من المنافق النفاق الأكبر، ويقع من المؤمن الذي ليس بمنافق، وذلك بأن يجد في نفسه شيئاً من حب الثناء، وحب المدح، حين يقوم بالعبادات والأعمال الصالحة، فإذا أحسن العبد المؤمن بشيء من ذلك فهذا هو الرياء، فعليه أن يتوب إلى الله عَزَّجَلَّ.

وذكر الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين أن الرياء إذا كان مصاحباً للعمل من أصله واستمر معه حتى انتهى منه فإنه باطل، أما إذا كان العمل في أصله خالصاً لوجه الله، ثم طرأ عليه الرياء في أثناءه، كالذي يقوم ليصلي وليس في نيته إلا وجه الله، لكنه أثناء الصلاة طرأ عليه شيء من الرياء، فهذا إن تاب إلى الله ورفض الرياء لن يضره، والعمل يستمر صحيحاً إن شاء الله، وإن استمر معه حتى نهاية العمل فهو باطل. وقيل: يثبت على أصل العمل؛ لأن أصله خالص ثم طرأ عليه الرياء^(١).

والحاصل: أن الرياء خطير يحصل من المنافق ويحصل من المؤمن، والمنافق مفروغ منه عمله أصلاً؛ لأنه ليس بمؤمن، وكل عمله لغير وجه الله عَرَجَلٌ، لكن الخوف على المؤمن أن يتلاعب به الشيطان ويدخل عليه الرياء، هذا هو الخوف الشديد على أهل الإيمان.

وهنا مسألة هامة جداً، وهي: مسألة هل يجوز أخذ الجعل أو المكافآت على العبادات، مثل: الإمامة، والجهاد، وتدريس العلم، والقضاء، والإفتاء؟

نقول: إن كان قصده المال فإن لم يُعطِ المال لم يَقم بهذه الأعمال فعمله باطل؛ لأنه لم يرد به وجه الله، والله عَرَجَلٌ يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[هود: ١٥-١٦].

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (ص ١٦-١٧).

أما إذا كان يقوم بالعمل الصالح لوجه الله، ويريد ثواب الله، ويأخذ ما يُعطى تبعًا لا قصدًا، فهذا لا بأس به؛ لأنه يستعين به على طاعة الله، وهو لم يقصده من الأصل، وإنما يأخذه بنية أنه سيستعين به على طاعة الله؛ لأنه بحاجة إلى النفقة، وإذا تفرغ لهذه الأعمال انقطع عن الكسب له ولأولاده. فيجب الفرق في هذا.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمَوْجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَى.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ، أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

الخَامِسَةُ: خَوْفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّبَاءِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنْ يُصَلِّيَ الْمَرْءُ لِلَّهِ، لَكِنْ يُرِيئُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❖ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ لا يدخل فيه الرياء ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، ولذلك استدل بها المؤلف على ما جاء في الرياء.

❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللَّهِ) الأمر العظيم يعني: الخطير، وهو العمل الصالح الذي يتعب فيه الإنسان، وقد يقتل في سبيل الله، فإذا دخله الرياء رُدَّ على صاحبه، ولم يقبله الله عَزَّجَلَّ، مما يدل على خطورة الرياء، والإنسان ينبغي عليه أن يخاف من الرياء ولا يزكي نفسه.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمَوْجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَى) سبب عدم قبول العمل من المرائي: أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى غني عن عبادة خلقه، فلا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، إنما أمرهم بعبادته لمصلحتهم هم؛ لأنهم محتاجون إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ، أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ)؛ لأنه ما من شريك إلا وله في شريكه منفعة، فالشركاء في تجارة أو زراعة أو غير ذلك كل شريك محتاج إلى شريكه، أما الله عَزَّوَجَلَّ فهو الغني عن الشركاء، لا يحتاج إلى من يعينه في تدبير أمور خلقه.

❁ قوله: (الْخَامِسَةُ: خَوْفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ) وهذه هي الفائدة العظيمة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف على أصحابه - مع ما لهم من الفضل والمكانة وقوة إيمانهم - من الرياء، فكيف لا يخاف الرياء على من هو دون الصحابة؟! فدل على أن الرياء خطير جداً، وأن المسلم يجب عليه أن يخاف من الرياء غاية الخوف.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَن يُصَلِّيَ الْمَرْءُ لِلَّهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ) الأصل أن الصلاة لله، فإذا كان العبد يحسنها، ويخشع فيها، ويطولها، ويجمل القراءة فيها لأجل الناس، كان على خطر عظيم؛ لأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجه عَزَّوَجَلَّ، فيجب على الإنسان أن يخاف من الرياء غاية الخوف.



٣٦- بَابُ

مِنْ الشَّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

قوله: [بَابُ مِنْ الشَّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا]: أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا كالرياء في بطلان العمل إن استرسل معه، كمن يطلب العلم لتحصيل وظيفة التعليم، كحال أهل المدارس، وأئمة المساجد، والمجاهدين، ونحوهم، ممن يقصد بعمله الصالح أمر دنيا، وقد وقع ذلك كثيرًا، حتى أن منهم من يحرص على سفر الجهاد؛ لأجل ما يحصل له فيه من جهة أمير الجيش، واجتماعه به، وأمره له ونهيه، وقربه منه، ونحو ذلك.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب نظير الذي قبله، فالذي يعمل العمل من أعمال الآخرة لا يريد به وجه الله وإنما يريد به طمع الدنيا، فعمله هذا من الشرك، والمراد: الشرك الأصغر. كالذي يطلب العلم ليحصل على وظيفة: وظيفة الإمام، ووظيفة المؤذن، ووظيفة المحتسب، ووظيفة المعلم، ولا يريد وجه الله بذلك، وإنما يريد طمع الدنيا، فإذا لم يكن على الوظيفة راتب ما رغب فيها ولا قام بها. والواجب في أعمال الآخرة أن تكون النية فيها خالصة لوجه الله، ولا مانع أن يأخذ ما يُعطى ليستعين به على عبادة الله، لكن لا يكون هذا هو قصده والدافع له.

أما أمور الدنيا فلا مانع أن ينوي عليها أخذ الأجر، فلا مانع أن يبني
جدارًا من أجل الأجرة، أو يخدم شخصًا من أجل الأجرة، أو يزرع أرضًا من
أجل الغلة، هذه كلها من أمور الدنيا التي لا مانع أن يقوم العبد بها لأجل ما
يحصل من ورائها، لكن الكلام على أعمال الآخرة ألا يُقصد بها الدنيا.



وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[هود: ١٥-١٦].

قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ (الآيتين): قال ابن عباس: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: ما لها ﴿نُوفٍ﴾ نوفر ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ثواب ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ بالصحة والسرور في المال والأهل والولد، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون. ثم نسختها: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء: ١٨]. رواه ابن النحاس في ناسخه^(١).

وأخرج ابن جرير بسنده المتصل عن شفي بن مائع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ. فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عِلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى

(١) أخرجه ابن النحاس في الناسخ والمنسوخ (ص ٥٣١)، وقال عقبه: «مُحَالٌّ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا نَسْخٌ لِأَنَّهُ خَبَرٌ وَالنَّسْخُ فِي الْأَخْبَارِ مُحَالٌّ لَوْ جَارَ النَّسْخُ فِيهَا مَا عُرِفَ حَقٌّ مِنْ بَاطِلٍ وَلَا صِدْقٌ مِنْ كَذِبٍ، وَلَبَطَلَتِ الْمَعَارِي وَلَجَزَّ لِرَجُلٍ أَنْ يَقُولَ لَقَيْتُ فُلَانًا ثُمَّ يَقُولَ نَسَخْتُهُ مَا لَقَيْتُهُ».

لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَيُوتَى بِالذِّنِّ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُ: فَبِمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَرِيٌّ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: مَنْ كَانَ يَقْصِدُ بِعَمَلِهِ الْآخِرَةَ عَرْضَ الدُّنْيَا، ﴿وَزِينَهَا﴾ زِينَةُ الدُّنْيَا هِيَ الْمَالُ الْوَلَدُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

❁ قوله: ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ هَذَا جَوَابُ الشَّرْطِ، أَي: نَعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَرَادَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ، وَقِيدَ ذَلِكَ بِالْمَشِيئَةِ؛ كَمَا فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾، وَقَدْ يُحْرَمُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ أَجْرٌ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ يُعْطَى مَا نَوَى فِي الدُّنْيَا وَيُحْرَمُ مِنْ أَجْرِ الْآخِرَةِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٣/١٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٨٢)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (١٣٦/٢) مِنْ طَرِيقِ شَفِيِّ بْنِ مَاتَعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا. وَأَصْلُ الْحَدِيثِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٩٠٥) مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، هذه الآية مطلقة مثل الآية التي في سورة هود تماماً، قيدتها آية الإسراء: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

وقد جاء في الأثر الذي أورده الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ آية الإسراء ناسخة لآية هود، والصحيح أنها مقيدة لها وليست ناسخة، والتخصيص ليس نسخاً.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فالله يأتي ويحيي يوم القيامة مجيئاً يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس المراد - كما يقول أهل التأويل -: يأتي أمره، أو ينزل أمره، أو يحيي أمره. هذا تأويل باطل.



فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ.....»

قوله: [فِي الصَّحِيحِ] أي: صحيح البخاري.

قوله: «تَعِسَ» -بكسر العين، ويجوز الفتح- أي: سقط، والمراد هنا: هلك، قاله الحافظ^(١). وقال أبو السعادات. (يُقَالُ: تَعِسَ يَتَعَسُ إِذَا عَثَرَ وَانْكَبَ لَوَجْهِهِ، وَهُوَ دَعَاءٌ عَلَيْهِ بِالْهَلَاكِ)^(٢).

قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ»: سماه عبداً له لكونه هو المقصود بعمله، فصار عبداً له؛ لأنه عبده بذلك العمل.

قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»: قال أبو السعادات: (هي ثوب خز أو صوف معلم)^(٣). و«الخميلة»: بفتح الخاء المعجمة، قال أبو السعادات: (ذات الخمل، ثياب لها خمل من أي شيء كان)^(٤).

المراد: كل ما كان من الدنيا نقداً أو عرضاً؛ لأنه ذكر النوعين.

قال أبو السعادات: (أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة)^(٥).

قوله: «وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ» أي: إِذَا أَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِخْرَاجِهَا بِالْمُنَاقِيشِ. قاله أبو السعادات^(٦).

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٨٢).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٨١).

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٨١).

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٤).

(٦) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٠٥).

قال شيخ الإسلام: (فساه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الحميص، وذكر ما فيه، وهو دعاء عليه بلفظ الخبر، وهو قوله: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ»، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلاص من المكروه. وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: إن أُعطي رضي، وإن منع سخط، فرضاه لغير الله، وسخطه لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقاً برياسة، أو صورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده...).

إلى أن قال: (وهكذا أيضاً حال من طلب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده فيكون هلوغاً.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يُعلق قلبه به، فإذا تعلق قلبه صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل على الله، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من

التوكل على غيره، وهذا أحق الناس بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ»، وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويجب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان». انتهى ملخصاً^(١).

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ»، تعس: يعني هلك، والدينار: النقد المضروب من الذهب، والدرهم: النقد المضروب من الفضة، والخميصة: نوع من الأكسية والألبسة، والخميصة: القطيفة، سُميت خميلة لأنها ذات خمل، يعني: ذات أهداب.

سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبداً لهذه الأشياء؛ لأنها من مطامع الدنيا، فمن أراد هذه الأشياء بعمل الآخرة، صار عبداً لها، وهذا من باب الذم.

أما لو قصد هذا بالأسباب المباحة فلا بأس بذلك، لكن المذموم أن يقصد الدينار والدرهم والخميصة والخميصة بعمل الآخرة، فيطلب العلم لأجل الوظيفة، ويتولى الأعمال الدينية من أجل الوظيفة، ويُعلم القرآن لأجل ما يُعطى من المال، فإن لم يُعط امتنع عن التعليم، أو يخرج للجهاد

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/١٨٠-١٩٠).

من أجل ما يحصل له من الجاه مع الأمير أو السلطان، وغير ذلك من أعمال الآخرة التي لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لوجه الله.

ثم ذكر صفات من يعمل من أجل الدنيا، فقال: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»، وهذه من صفات المنافقين؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. هذا هو الفارق: إن أُعطي من هذه المطامع رضي، وإن لم يعط سخط، أما المؤمن فإنه إن أُعطي شكر، وإن لم يُعط فإنه يصبر ولا يسخط، ويرضى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يعمل لله، ويرجو ثواب الآخرة.

فالمؤمن سواء عنده أُعطي من مطامع الدنيا شيئاً أو لم يُعط، لا ينقص ذلك من عمله شيئاً؛ لأنه يحب الله ورسوله، فيعمل ابتغاء مرضاة الله، ويتجنب ما يسخط الله. مثل ما كان عليه الصحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانوا لا تهمهم الدنيا، فيجاهدون الله عَزَّوَجَلَّ لكن إذا أعطوا شيئاً أخذوه؛ لأن الله أباحه لهم، وإن لم يعطوا ما نقص بذلك من عملهم شيئاً، ومحبته لله ولرسوله باقية، لا ينقصها أنهم لم يعطوا شيئاً من الدنيا.

ولهذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطي ناساً وإن كانوا من أبغض الناس إليه؛ لأنه يخاف عليهم من النار، لأنه لو لم يعطهم لانتكسوا على أعقابهم، فهو يتألفهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويحرم ناساً وإن كانوا من أفاضل الصحابة ومن أحب الناس إليه؛ لأنهم يكفيهم ما عندهم من الإيمان بالله ورسوله، وعلم

من حالهم أنهم يريدون الآخرة فلا تهمهم الدنيا، ومحبتهم لله ولرسول الله لا تنقص إذا لم يعطوا.

❖ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ» يعني: فسد عليه قصده وأمره، «وَإِذَا شَيْئٌ» يعني: إذا أصابته شوكة «فَلَا انْتَقَشَ» أي: لا يقدر على إخراجها من جسده، هذا دعاء من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه بأن يصيبه الله بالعجز، حتى إنه لا يقدر على أخذ الشوكة من جسده، عقوبة له على ما عمل من أجل الدنيا. وهذا مثل قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٨].



طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانٍ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَتْ رَأْسُهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»^(١).

قوله: «طُوبَى لِعَبْدٍ»: روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى، قال: سمعت عبد الله بن لهيعة: حدثنا دراج أبو السمح: أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِمَنْ رَاكَ، وَأَمِنَ بِكَ، قَالَ: «طُوبَى لِمَنْ رَانِي وَأَمِنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرْنِي» قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»^(٢). له شواهد في الصحيحين^(٣).

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ها هنا أثرًا غريبًا عجيبًا قال وهب: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا طُوبَى، يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، زَهْرُهَا رِيَاطٌ، وَوَرَقُهَا بُرُودٌ، وَقُضْبَانُهَا عُنْبَرٌ، وَبَطْحَاؤُهَا يَاقُوتٌ، وَثَرَابُهَا كَافُورٌ، وَوَحْلُهَا مِسْكٌ، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارُ الْخَمْرِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، وَهِيَ مَجْلِسٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَبَيْنَا هُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ إِذْ أَتَتْهُمْ مَلَائِكَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ، يَقُودُونَ نُجَبًا مَزْمُومَةً بِسَلْسِلٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَجُوهُهَا كَالْمَصَابِيحِ مِنْ حُسْنِهَا، وَبَرُّهَا كَحَزِّ الْمَرْعِيِّ مِنْ لَبْنِهِ، عَلَيْهَا رِحَالُ أَلْوَاحِهَا مِنْ يَاقُوتٍ، وَدُفُوفُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَثِيَابُهَا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، فَيَنْخُحُونَهَا وَيَقُولُونَ: إِنَّ رَبَّنَا أَرْسَلَنَا

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٧١/٣).

(٣) البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

إِلَيْكُمْ لِتَزُورُوهُ وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَيَرْكَبُونَهَا، قَالَ: فَهِيَ أَسْرَعُ مِنَ الطَّائِرِ، وَأَوْطَأُ مِنَ الْفَرَاشِ نُجْبًا مِنْ غَيْرِ مَهْنَةٍ، يَسِيرُ الرَّجُلُ إِلَى جَنْبِ أَخِيهِ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ وَيَتَاَجِبُهُ، لَا تُصِيبُ أُذُنُ رَاِحِلَةٍ مِنْهَا أُذُنُ صَاحِبَتِهَا، وَلَا بَرَكُ رَاِحِلَةٍ بَرَكُ صَاحِبَتِهَا، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ لَتَتَحَّى عَنْ طُرُقِهِمْ لئَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ. قَالَ: فَيَأْتُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَيُسْفِرُ لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَوْهُ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، وَحَقُّ لَكَ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ. قَالَ: فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ: أَنَا السَّلَامُ، وَمَنِّي السَّلَامُ، وَعَلَيْكُمْ حَقَّتْ رَحْمَتِي وَحُبَّتِي، مَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ خَشَوْنِي بَغِيْبٍ وَأَطَاعُوا أَمْرِي قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا إِنَّا لَمْ نَعْبُدَكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ نُقَدِّرْكَ حَقَّ قَدْرِكَ، فَأَذَنْ لَنَا بِالسُّجُودِ قَدَامَكَ قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ نَصَبٍ وَلَا عِبَادَةٍ، وَلَكِنَّهَا دَارُ مُلْكٍ وَنَعِيمٍ، وَإِنِّي قَدْ رَفَعْتُ عَنْكُمْ نَصَبَ الْعِبَادَةِ، فَسَلُونِي مَا شِئْتُمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أُمْنِيَّتَهُ فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى إِنْ أَقْصَرَهُمْ أُمْنِيَّتَهُ لَيَقُولُ: رَبِّ تَنَافَسْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ فَتَضَايِقُوا فِيهَا، رَبِّ فَاتْنِي كُلَّ شَيْءٍ كَانُوا فِيهِ مِنْ يَوْمٍ خَلَقْتَهَا إِلَى أَنْ انْتَهَتْ الدُّنْيَا فَيَقُولُ اللَّهُ: لَقَدْ قَصَّرْتُ بِكَ الْيَوْمَ أُمْنِيَّتَكَ، وَلَقَدْ سَأَلْتَ دُونَ مَنَزِلَتِكَ، هَذَا لَكَ مِنِّي، وَسَأُحْفِكَ بِمَنَزِلَتِي، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي عَطَائِي نَكَدٌ وَلَا تَضَرِيدٌ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: اعْرِضُوا عَلَى عِبَادِي مَا لَمْ تَبْلُغْ أَمَانِيَّتَهُمْ وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ عَلَى بَالٍ قَالَ: فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقْضُوهُمْ أَمَانِيَّتَهُمُ الَّتِي فِي أَنْفُسِهِمْ، فَيَكُونُ فِيمَا يُعْرِضُونَ عَلَيْهِمْ بَرَادِيزٍ مُقَرَّنَةً، عَلَى كُلِّ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا سَرِيرٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ وَاحِدَةٍ، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ مِنْهَا قُبَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُفْرَعَةٌ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا فُرْشٌ مِنْ فُرْشِ الْجَنَّةِ مُظَاهَرَةٌ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا جَارِيَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، عَلَى

كُلَّ جَارِيَةٍ مِنْهُنَّ ثَوْبَانِ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَوْنٌ إِلَّا وَهُوَ فِيهِمَا، وَلَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ إِلَّا قَدْ عُبِّقَتْ بِهِ، يَنْفُذُ ضَوْءٌ وَجُوهَهُمَا غِلَظَ الْقُبَّةِ، حَتَّى يَظُنَّ مَنْ يَرَاهُمَا أَنَّهُمَا مِنْ دُونِ الْقُبَّةِ يَرَى مُحْهُمَا مِنْ فَوْقِ سُوقِهِمَا كَالسَّلَكِ الْأَبْيَضِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ، يَرِيَانِ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى صَحَابَتِهِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى الْحِجَارَةِ أَوْ أَفْضَلُ، وَيَرَى هُوَ لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ ثُمَّ يَدْخُلُ إِلَيْهِمَا فَيُحْيِيَانِهِ وَيُقْبَلَانِهِ وَيُعَانِقَانِهِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: وَاللَّهِ مَا ظَنَّنَا أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مِثْلَكَ ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ فَيَسِيرُونَ بِهِمْ صَفًّا فِي الْجَنَّةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهُ»^(١) اهـ.

قوله: «أَشَعَتْ»: مجرورة بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصف، ووزن الفعل ورأسه مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر أشغله الجهاد في سبيل الله عن التمتع بالأدهان وتسريح الشعر.

قوله: «مُغْبِرَةٌ قَدَمَاهُ»: هو بالجر صفة ثانية لعبد.

قوله: «إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ» أي: حامية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

قوله: «كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ» أي: غير مقصر فيها ولا غافل.

قوله: «وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ» أي: في مؤخرة الجيش، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، وبما فيه حفظ المجاهدين من عدوهم.

قال الخلخالي: (المعنى: ائتماره لما أمر، وإقامته حيث أقيم، لا يُفقد من مكانه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنها أشد مشقة)^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤٨/١٣).

(٢) انظر: عمدة القاري (١٧٢/١٤)، ومرواة المفاتيح (٣٥٧/٩).

قوله: «إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ» أي: استأذن على الأمراء ونحوهم، لم يأذنوا له؛ لأنه لا جاء له عندهم ولا منزلة، لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله.

قوله: «وَأِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» يعني: لو أَلجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله، لم تقبل له شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أثنى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المخلص في عمله وفي جهاده في سبيل الله، الذي لا يقصد الدنيا، وإنما يقصد الآخرة، والدليل على ذلك أنه دائماً مستعد يترقب الجهاد، عنده فرسه مسرجها ومهيئها، في أي ساعة يُطلب منه يركب فرسه للجهاد في سبيل الله، وهذا له أجر المجاهد؛ لأنه ينوي الجهاد ويعزم على الجهاد، فهو في نية المجاهد وأجر المجاهد.

❁ قوله: «أَشَعَّتْ رَأْسُهُ، مُغْبِرَّةٌ قَدَمَاهُ» لم يتفرغ لتصفيف شعره وتجميله وتجعيده، ولم يلبس على رجليه الأحذية الفاخرة والخفاف البهية، وإنما يعلوها الغبار، وهذا الغبار شرف؛ لأنه في سبيل الله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: «إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ» يعني: لا يبالي بالعمل الذي تولاه من أمر الجهاد، وسواء عنده أ جعل حارساً للجيش أم جعل قائداً؛ لأنه يريد وجه الله ولا يريد المظهر والرياسة، بعكس الذي يُعلق خروجه للجهاد بالمنصب الذي يتولاه،

فإذا صار قائدًا أو أميرًا على الجند خرج معهم، وإن وجد أنه سيكون حارسًا أو جنديًا في مؤخرة الجيش رفض الخروج معهم، فهذا إذا خرج للجهاد لم يكن خروجه لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

و(الْحِرَاسَةُ): حماية الجيش من أن يهجم عليهم العدو، سواء بالليل أو في النهار، يتطلع للعدو ليحذر إخوانه إذا رأى من جهته خطرًا يتهددهم.

و(السَّاقَةُ): آخر الجيش، فهو يتبع آخر الجيش لأجل أن يتفقد العاجز ومن يحتاج إلى إعانة من المجاهدين، فهو لا يريد لنفسه العز في الدنيا والظهور والبروز أمام الناس، ولا يريد الراحة والرفاهية، إنما يريد الجهاد في سبيل الله على أي سبيل كان، لا يهيمه في أي موقع وقع ما دام في موقعه هذا يرعى مصالح المسلمين، هذا دليل على سلامة قصده وحسن نيته.

❁ قوله: «إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ»؛ لأنه ليس له جاه عند الناس، ولا يعرفونه؛ لأنه لا يحب الظهور، ولا يزاحم الناس، ولا يتملقهم، ولا يعرف، إنما هو عبد لله مخلص في عمله. فهذا وإن كان ليس له قيمة عند الناس لأنه لا يحب الظهور، إلا أنه ولي من أولياء الله عَزَّجَلَّ، وهو مقدم عند الله وإن كان مؤخرًا عند الناس.

❁ قوله: «وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» إن توسط عند الناس، مثل الموظفين والمدراء والأمراء والسلاطين الذين عندهم حوائج الناس، ما قبلوا وساطته؛ لأنه ليس معروفًا لديهم، وهم لا يوسطون إلا المشهورين والأكابر.

كل هذه علامات على إخلاص هذا العبد لله عَزَّجَلَّ، فهذا هو الذي أثنى عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه مخلص لله، ولا يجب الظهور والبروز والمدح والثناء أبداً، إنما يهمه رضا الله عَزَّجَلَّ، ويخفي أعماله عن الناس. ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١)، فهذا الذي لا يراه الناس شيئاً، إذا كان مخلصاً لله فإنه يكون مقدماً عند الله، لو أقسم على الله لأبره وأعطاه ما يريد، ولكنه إذا طلب من الناس شيئاً لا يعطونه، لأنه غير معروف عندهم.

كل هذا فيه الحث على الإخلاص والتواضع وعدم الظهور وعدم البروز، وأن الإنسان يخلص نيته لله عَزَّجَلَّ ولا يريد الدنيا، إنما يريد الآخرة بأعماله وأقواله، هذا هو المخلص الذي يريد وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا هو الفرق ما بين الرجلين الذي في أول الحديث: هذا يريد الدنيا عبد الخميصة، والخميصة، والدرهم، والدينار، هذا يريد الدنيا، أما الرجل الذي في آخر الحديث فهذا هو عبد الله المخلص الذي يريد الآخرة، ففيه الحث على الإخلاص لله عَزَّجَلَّ في أمور العبادة، أما أمور الدنيا فالذي يريد الدنيا يطلبها بوسائل الدنيا، يحترف ويبيع ويشترى ويتاجر لا بأس، أما أن يطلب الدنيا بعمل الآخرة فهذا هو المذموم، لكن إذا طلبها بالأسباب المباحة فهذا مباح ولا حرج عليه أن يبيع، ويشترى، ويكتسب، ويزرع، ويؤجر نفسه، وتؤجر محلاته، ويطلب الرزق، هذه أسباب مباحة، وطلب الرزق مباح،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يلام عليه، بل العبد مأمور بالسعي في طلب الرزق، قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، لكن لا يطلب الدنيا بعمل الآخرة، هذا هو المقصود، إنما يجعل عمل الآخرة للآخرة، وعمل الدنيا للدنيا.

فلا ينبغي للعبد أن يؤثر على طاعة الله ورضا الله شيء، قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤] هذا تهديد من الله سبحانه وتعالى، فالذي يؤثر الدنيا على طاعة الله وعلى رضا الله متوعد بهذا الوعيد: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ بالنقمة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فالذي يؤثر الدنيا على رضا الله سبحانه وتعالى، فيجلس يبيع ويشترى، ويترك الصلاة مع الجماعة، هذا عبدٌ للمال، وهو متوعد بالخسران والعياذ بالله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].



وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا»^(١).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك: قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه، أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وواعده الخروج وأنفذها معه إلى الفضيل بن عياض، في سنة سبعين ومائة:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا	لَعَلَّمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ	فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ	فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا	وَهَجُ السِّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا	قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي غُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي	أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطُقُ بَيْنَنَا	لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه. فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم. قال لي: اكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا.

وأملى علي الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمْنِي عَمَلًا أَتَالَ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٦١)، والطبراني في الكبير (١٤٥)، والحاكم في المستدرک (٩١/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦/٤).

تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتَرُ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟ أَنْ تُصَلِّيَ وَلَا تَفْتَرُ» فَقَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَضَعَفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَطُوقَتِ ذَلِكَ مَا بَلَغَتْ فَضْلُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
أَمَا عَلِمْتَ إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ؟»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذه آيات عجيبة من عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ، كان من العلماء الأفاضل
المحدثين، وكان أيضًا من التجار، جمع الله له بين العلم والثروة والغنى، وكان
من المجاهدين يغزو في سبيل الله، أما الفضيل بن عياض فكان من العباد
المنقطعين في العبادة وفي المسجد الحرام، فكتب له عبد الله بن المبارك كتب له
هذه الآيات ليقول له: إن المجاهد في سبيل الله أفضل من المعتكف للعبادة
في المسجد الحرام، فالصلاة والتهجد والصوم والطواف بالبيت هذه عبادات
عظيمة، لكن الجهاد في سبيل الله أفضل منها.

❁ قوله:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلَّمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

يقول: أنتم تبكون من خشية الله في الصلاة والتهجد، وهذا أمر طيب
ومشروع، لكن الدم الذي يسيل في سبيل الله أفضل من الدموع من خشية الله
في العبادة. وقوله: (لَعَلَّمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ) يعني: أنقص مما عندنا،

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٤٩، ٤٥٠)، وأصل الحديث متفق عليه من
حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

وإلا ما هو بلعب هذا، هذه عبادة عظيمة لكنها أنقص من الجهاد في سبيل الله؛ لأن الجهاد في سبيل الله لا يعدله شيء.

❁ قوله:

أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولْنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا وَهَجُ السِّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ

يقول: إن الغبار في سبيل الله أفضل من أفخر الأتياب عند الناس، والناس يكرهون الغبار؛ لأنه يضر، لكنه إذا كان في سبيل الله فإنه يكون عندهم أطيّب من أفخر الأتياب.

فلما قرأ الفضيل هذه الأبيات ذرفت عيناه؛ لما فيها من صدق النصيحة، ثم حدث بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَدِّقُ بِهِ عَلَى مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ، والذي فيه بيان فضل المجاهد على العابد، وأن المجاهد في سبيل الله أفضل من العابد الذي يقوم الليل كله لا يفتر، وأفضل من الصائم الذي يصوم الدهر كله لا يفطر أبداً، فلو قام أحد من صلاة العشاء إلى الفجر كل ليلة، وصام كل يوم ما عدل ذلك أجر المجاهد في سبيل. وهذا مصداقاً لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿[النساء: ٩٥-٩٦].



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.

الثالثة: تَسْمِيَةُ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ: عَبْدَ الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ وَالْخَمِصَةِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

الخامسة: قَوْلُهُ: «تَعَسَّ وَانْتَكَسَ».

السادسة: قَوْلُهُ: «وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ».

السابعة: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمُوصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأولى: إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ): إذا أراد الدنيا بعمل الآخرة فهذا مذموم؛ لأنه حول عمل الآخرة إلى طمع الدنيا.

❁ قوله: (الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] هذه الآية نزلت فيمن يريد الدنيا بعمل الآخرة.

❁ قوله: (الثالثة: تَسْمِيَةُ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ: عَبْدَ الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ وَالْخَمِصَةِ)؛ لأن هذا حتى وإن كان مسلماً ومؤمناً، فإنه بقصد هذه الأشياء ينقص إيمانه، فيصبح عبداً لها، فهي شرك، لكنه شرك أصغر لا يخرج من الملة، لكنه ينقص الإيمان.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ) يعني: من الذي يريد الدنيا بعمل الآخرة؟ هو الذي يرضيه العطاء ويسخطه المنع، هذا التفسير الواضح الذي لا غموض فيه؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، وهذا يقطع كل تفسير للمتأولين، لأن كثيراً من الناس يقول: هذا لا ينطبق علي، أنا لا أريد الدنيا بعمل الآخرة. نقول له: أنت أدري بما في قلبك، فإن كنت في عملك هذا ترضى إذا أعطيت وتسخط إذا منعت، فأنت تريد الدنيا بعمل الآخرة، شئت أم أبيت، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي قال هذا، والنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي قال هذا، فإن كنت ترضى للدنيا وتسخط للدنيا فقد عبدتها.

❁ قوله: (الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «تَعَسَّ وَافْتَكَسَ») ما معنى تعس وانتكس؟ معناها أنه هلك وهو يريد النجاة، وهو يريد الدنيا التي طمع بها يريد بها الحياة وهو في الواقع قد مات وهلك، فعوقب بنقيض قصده.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: «وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ») أي: يصاب بالعجز فلا يقدر أن يزيل الضرر عن نفسه عقوبة له.

❁ قوله: (السَّابِعَةُ: الشَّاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمُؤُصِفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ) ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث رجلين، أحدهما يريد الدنيا بعمل الآخرة، والثاني يريد الآخرة، وذكر أوصاف الأول وأوصاف الثاني، والعلامات

الفارقة، وليست المسألة دعوى، كُلُّ يدَّعي أنه يريد الآخرة ولا يريد الدنيا، بل هناك علامات تدل على الصدق وعلامات تدل على الكذب، من اتصف بها صار من أهلها، ولو كان يدعي أنه ليس من أهلها، وكلُّ يزن نفسه بهذا الحديث أين موقفه من الأعمال الصالحة؟



٣٧- بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

قوله: [بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ]: فيه إشارة إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

... — الشَّبَحُ — ...

قوله: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ، فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) هذه الترجمة مأخوذة من قوله عَزَّوَجَلَّ في اليهود والنصارى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ولكن ليس فيها ذكر الأمراء، فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يشير إلى الآية الأخرى في سورة الأحزاب: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ حيث يدخل فيها طاعة الأمراء والرؤساء، وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ.

والأصل وجوب طاعة أولي الأمر في غير معصية الله؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فالواجب طاعة العلماء والأمراء؛ لأنهم هم أولو الأمر، إلا إذا أمروا بمعصية الله، فلا طاعة لهم حينئذ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي

مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»^(١). وهذا يشمل العلماء والأمرء، ويشمل كل أحد، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(٢).

والأخبار: جمع حبر أو حبر، وهو العالم من اليهود، ويشمل العلماء من غيرهم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد من النصارى، والغالب على الناس أنهم يطيعون هذين الصنفين: العالم لعلمه، والعابد لعبادته والثقة به، ولذلك يقع منهم في طاعة هؤلاء المحذور في بعض الأحيان.

❦ قوله: (فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي: معبودين من دون الله عَزَّجَلَّ، فدل على أن طاعة العلماء والأمرء في تغيير الأحكام الشرعية أنه شرك؛ لأن التشريع حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يُحِلُّ وَيَحْرِمُ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. سباهم شركاء بسبب طاعتهم فيما شرعوا من الدين، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّائِهِمْ لِيُجْنِدَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، يعني: أطعتموهم في تحليل الميتة، فقد كان المشركون يأكلون الميتة ويتلقون هذه الشبهة من المجوس، يقولون: الميتة أولى بالأكل من المذكاة؛ لأن الميتة ذبحها الله، وأما المذكاة فأنتم تذبحونها. فإن أطعتموهم في استحلال الميتة فإنكم مشركون؛

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٩/١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣٨٣/٢)، والبخاري في مسنده (٣٥٧/٥)، وابن عبد البر في التمهيد (٥٨/٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي الباب من حديث علي بن أبي طالب، وعمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنكم اتخذتموهم محللين ومحرمين، وهذا الشرك يسميه العلماء شرك الطاعة، وهو على ثلاثة أقسام:

الأول: إن كان الذي أطاعهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال يعلم أنهم خالفوا شرع الله، وحللوا وحرّموا من عند أنفسهم، ووافقهم على ذلك، فهذا مشرك الشرك الأكبر.

الثاني: إذا كان يعلم أنهم أحلوا وحرّموا من عند أنفسهم وأطاعهم لهوى في نفسه أو شهوة، لا موافقة لهم، وهو يعتقد أن التحليل والتحريم لله، فهذا كبيرة من كبائر الذنوب، وشرك أصغر؛ لأنه طاعة للمخلوق في معصية الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثالث: إذا كان لا يعلم أنهم حللوا وحرّموا مخالفين لتشريع الله، إنما أحسن الظن بهم وأطاعهم عن جهل، فهذا لا يؤاخذ؛ لأنه معذور بالجهل وعدم التعمد.

إذا فطاعة العلماء والأمراء ليست جائزة مطلقاً، ولا محرمة مطلقاً، بل فيها هذا التفصيل؛ كما قال الشيخ في الترجمة: (في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرّمه) بهذا القيد، أما أنه لا تجوز طاعة العلماء والأمراء مطلقاً هذا ضلال لا يقوله أحد إلا أهل الضلال الخوارج ومن شابههم، إنما طاعة العلماء والأمراء واجبة بالمعروف؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، طاعتهم واجبة ما لم يأمرُوا بمعصية الله عَزَّوَجَلَّ.



وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!»^(١).

قوله: [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!]].

وقال أيضًا: «أَرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ، أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقُولُ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(٢).

وفي صحيح مسلم عن ابن أبي مليكة، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ، قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَأْمُرُنَا بِالْعُمَرَةِ فِي هَؤُلَاءِ الْعَشْرِ وَلَيْسَ فِيهَا عُمَرَةٌ؟ قَالَ: أَفَلَا تَسْأَلُ أُمِّكَ عَنْ ذَلِكَ؟ قَالَ عُرْوَةُ: فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ لَمْ يَفْعَلَا ذَلِكَ، قَالَ الرَّجُلُ: مِنْ هَاهُنَا هَلَكْتُمْ، مَا أَرَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا سَيُعَذِّبُكُمْ، إِنِّي أَحَدْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُخْبِرُونَنِي بِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ»^(٣).

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (أجمع العلماء على أن من استبان له سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد)^(٤).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٨ رقم ٣١٢١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٣٧)، وفيه: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتَعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَقُولُ عُرْيَةُ؟ قَالَ: يَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتَعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ، أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

(٣) لم أره في صحيح مسلم، وأخرجه ابن حزم في حجة الوداع (ص ٣٥٣)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١/ ٣٧٦، ٣٧٧).

(٤) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)^(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: (ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

كلام ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هذا قاله بمناسبة أن أبا بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لا يريان فسخ الحج إلى العمرة الذي أمر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخليفان الراشدان أفضل هذه الأمة يرويا الأفراد، ولا يريان العمرة في أشهر الحج من أجل ألا تنقطع الزيارة عن البيت؛ لأن الناس إذا اعتمروا في أشهر الحج لا يأتون بقية السنة، فيُهجر البيت، فرأيا المنع من فسخ الحج إلى العمرة من أجل أن تكون الزيارة للبيت مستمرة، وهذا اجتهاد منهما رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، لكن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بفسخ الحج إلى العمرة لمن لم يسق الهدي.

فلما كان اجتهاد الخيفتين مخالفاً لنص الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر ابن عباس على من رأى رأيها هذا الإنكار الشديد، فقال: (أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ) يعني: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما طاف بالبيت في حجة الوداع، أمر من لم يسق معه الهدي أن يفسخ الحج إلى عمرة، ويكون متمتعاً، وأما من ساق الهدي

(١) انظر: الإحكام لابن حزم (٣١٧/٦)، ومنهاج السنة النبوية (٥٠٣/٣)، والبداية والنهاية (١٤٠/١٤)، والآداب الشرعية (٢٩٣/٢)، وإعلام الموقعين (٣/٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٩٤١).

فيبقى على إحرامه إلى أن يذبح هديه، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن ساق الهدي فبقي على إحرامه قارئاً، وتأسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْ لَا أَنَّ مَعِيَ الْهَدْيَ لَأَخْلَلْتُ»^(١)، فدل هذا على أن فسخ الحج إلى العمرة في أشهر الحج أفضل لمن لم يسق الهدي.

هذه سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا وجه إنكار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإذا كان من ترك السنة وأخذ برأي الخليفين الراشدين يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء، فكيف بمن ترك السنة لرأي من هو دون أبي بكر وعمر؟! لا شك أن الأمر أشد، وفسخ الحج إلى العمرة اختلف العلماء فيه هل هو واجب أو مستحب؟ وهل هو خاص بالصحابة فقط الذين مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عام لجميع المسلمين؟ المسألة فيها خلاف ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «زَادَ الْمَعَادَ»^(٢) مفصلاً، وكأنه يميل رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الْوَجُوبِ، وَالْجُمْهُورُ يرون أنه مستحب وليس بواجب.

فوجه الشاهد من هذا أن من أطاع أبا بكر وعمر في مخالفة سنة الرسول، فإنه متوعد يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء؛ كما نزلت على الأمم السابقة لما خالفوا أمر الله، هذا يدل على أن الأمر عظيم، وعلى أنه لا تجوز طاعة العلماء والأمرأء إذا خالفوا كتاب الله أو سنة رسوله، ولو كانوا مجتهدين. وهذه المسألة من مسائل الاجتهاد، فكيف بالذي يطيع من ليسوا مجتهدين، بل متعمدين للمخالفة، من أمرأء وعلماء؟! هذا - كما ذكرنا - شرك

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٠٥-٢٠٧).

أكبر وكفر بالله عَزَّجَلَّ، وهذا ما كان عليه اليهود والنصارى، الذين لعنهم الله عَزَّجَلَّ في قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١] غلوا فيه عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى قالوا: هو الله، أو هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة - تعالى الله عما يقولون - ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، سمي اتخاذ الأحرار والرهبان أرباباً من دون الله شركاً، وكيف اتخذوهم؟ سيأتي تفسير الآية في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع العلماء على أنه من استبانت له سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد)، لأن طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجبة بعد طاعة الله، وإنما تأتي طاعة العلماء إذا لم تخالف طاعة الله وطاعة رسوله. فهذه كلمة الإمام محمد بن إدريس الشافعي الإمام الجليل، أحد الأئمة الأربعة، يحكي الإجماع أنه لا يجوز مخالفة سنة الرسول لقول أحد كائناً من كان، إذا استبانت، أما إذا لم تستبِن فقد يكون الإنسان معذوراً.

❁ وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهذا الإمام مالك بن أنس أيضاً أحد الأئمة الأربعة يقول هذه الكلمة: ما منا معاشر العلماء إلا راد على غيره ومردود عليه من غيره، إلا صاحب هذا القبر، يعني: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قال هذا في

مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدلّت كلمة الإمام مالك على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُردّ قوله أبداً، وإنما يجب قبول ما جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتسليم له، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، الرسول لا يرد عليه؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ولا يُعارض حديثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالآراء والأحكام، أما العلماء فيجوز الرد عليهم إذا أخطئوا وإن كانوا كبار الشأن، وهم يفرحون بذلك؛ لأنهم لا ينتصرون لأنفسهم، وإنما ينتصرون للحق، فإذا رد عليهم أحد ونبههم على الخطأ فإنهم يفرحون بذلك ولا يجدون في أنفسهم حرجاً، أما الذي إذا رُدّ عليه غضب وانتصر لرأيه، فهذا دليل على أنه لا يعظم السنة، وإنما يعظم نفسه، نسأل الله العافية.

❁ وهذه الكلمة من الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعني: يؤخذ الحق، ويدع ما خالف الحق، إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يقول إلا حقاً.



وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمَ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّتْهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشَّرْكَ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»^(١).

قوله: [وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمَ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّتْهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشَّرْكَ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»].

قال الإمام أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

وسفيان: هو الثوري، الإمام الزاهد العابد، الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر الذي أنكره الإمام أحمد، خصوصاً فيمن ينتسب إلى العلم والإفتاء والتدريس، وزعموا أنه لا يأخذ بأدلة الكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع، وقد أخطأوا في ذلك.

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

(٢) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

وقد استدل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»^(١) على أن الاجتهاد لا ينقطع.

وحكى ابن عبد البر الإجماع على أن المقلد لا يكون من أهل العلم، والأئمة لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة^(٢).

قال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال^(٣).

وقال: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله عَزَّجَلَّ. قيل: إذا كان قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة^(٤). وتقدم قول الإمامين مالك والشافعي.

فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال المخالفين وما استدلوا به، فيكون متبعاً للدليل مع من كان معه، وبالله التوفيق.

(١) سبق تخريجه (٢/ ٢٩٤).

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧).

(٣) أخرج البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص ١١١) نحو هذا الأثر، وفيه: «إِذَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَإِذَا جَاءَ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْنُ تَارُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَإِذَا جَاءَ عَنِ التَّابِعِينَ رَاحِمَتَاهُمْ». وانظر: الإحكام لابن حزم (٤/ ٥٧٣)، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للقرطبي (ص ١٤٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣١٠).

(٤) انظر: إرشاد النقاد للأمير الصنعاني (ص ١٤٢)، وعقد الجيد للدهلوي (ص ٢٢).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ بعد كلام ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، والإمام أحمد هو: أحمد بن حنبل الشيباني الإمام المحدث المشهور الفقيه، أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المعروفة الآن، الذي صبر في المحنة، وثبت على الحق، وصبر على العذاب والسجن والضرب.

❁ قال: (عَجِبْتُ) هذا استنكار (عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ) يعني: علماء عرفوا الإسناد، والإسناد: هو طريق الحديث الوارد عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو سلسلة الرواة المتصلة بالرجال إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فإذا كان الرجال الذين في السند كلهم ثقات، وكلهم متقنون للحفظ، وسَلِمَ الحديث من الشذوذ والعلة، فهو حديث صحيح؛ لأن الحديث الصحيح: ما رواه عدل عن مثله من بداية السند إلى نهايته، مع السلامة من الشذوذ والعلل، فإن فقد شرطاً من هذه الشروط فإنه لا يكون صحيحاً، إما أن يكون حسناً، وإما أن يكون ضعيفاً، وإما أن يكون موضوعاً.

ودراسة الأسانيد والعناية بها أمر واجب على العلماء؛ لحفظ سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدخيل، وبيان ما فيها من الصحيح وغير الصحيح، هذا أمر واجب قام به الأئمة خير قيام، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

يقول عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: (لولا الإسناد لقال كل ما يشاء)؛ لأن الإسناد هو الذي يميز الصحيح من غير الصحيح المنسوب إلى رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فإذا قلت: قال رسول الله، أو قال فلان: قال رسول الله. قلنا هات السند، لنرى هل قاله رسول الله حقاً أم لم يقله؟ أما مجرد أن تنسب إلى الرسول شيئاً ولم تذكر السند فهذا لا يجوز، إلا إذا تأكدت أن الحديث صحيح أو حسن لذاته أو حسن لغيره، أما إذا كان ضعيفاً فلا تقل: قال رسول الله. إنما تقول: يُروى عن رسول الله، أو جاء عن رسول الله، بدون جزم، أما أن تقول قال رسول الله بصيغة الجزم فهذا يحتاج إلى التأكد من صحة القول.

❁ قوله: (عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ) يعني: إذا لم يكن الإسناد صحيحاً فلا ينسب إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكان السابقون الأولون من الأئمة عندهم الحديث ينقسم إلى صحيح أو ضعيف، ويدخلون الحسن في الصحيح، وليس عندهم قسم ثالث، فلما جاء الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ فَصَلَ الْحَسَنَ عَنِ الصَّحِيحِ، وجعله في مرتبة متوسطة بين الصحيح والضعيف، فهو أول من قَسَمَ الحديث إلى: صحيح، وحسن، وضعيف.

❁ قوله: (يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ) هو: سفيان بن سعيد الثوري، الإمام الجليل في علم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه، وله مذهب فقهي، لكن لم يكن له تلاميذ يحافظون على مذهبه ويدونونه كالأئمة الأربعة، وإلا فهو لا يقل رتبة عن الأئمة الأربعة.

❁ وقوله: (يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ) يعني: رأيه الفقهي، يتركون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان، هذا من باب التمثيل وليس خاصاً بسفيان. والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ❁ أي: عن أمر الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه مذكور في أول الآية: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

✽ ثم فسر رَحِمَهُ اللَّهُ الفتنة، فقال: (أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشَّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ) أي: قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فِيهِلِكَ) فمن رد قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيح، وأخذ برأي غيره مما يخالف الحديث، فإنه متوعد بأن يقع شيء من الزيغ في قلبه، وهذا في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال في المنافقين: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧] أي: صرف الله قلوبهم عن اتباع الحق لما انصرفوا عن قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن القرآن، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: بالحق ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فمن بلغه الحق وجب عليه أن يأخذ به، فإن لم يأخذ به، فإنه متوعد أن يقلب الله قلبه وبصره عقوبة له.

هذا هو الزيغ الذي قاله الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، فإذا كان من أخذ بقول سفيان الإمام الجليل واجتهاده، وترك الدليل الثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوعد بهذا الوعيد، فكيف بمن أخذ بقول غيره ممن هو دونه؟! فلا قول لأحد مع قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبداً مهما كان.

✽ قال الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقد عمت البلوى بهذا المنكر الذي أنكره الإمام أحمد، خصوصاً فيمن يتسبب إلى العلم والإفتاء والتدريس) فيخالفون الأدلة، ويأخذون بأقوال شيوخهم، ويقلدونهم، ولو خالفوا الدليل، (وزعموا أنه لا يأخذ بأدلة الكتاب والسنة إلا المجتهد) زعموا أن الاجتهاد انغلق وسد باب الاجتهاد، وهذا غلط، فمن توفرت فيه شروط الاجتهاد فالمجال مفتوح أمامه لم يغلق، وشروط الاجتهاد:

- * أن يكون عالمًا بكتاب الله وبسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- * أن يكون عالمًا باللغة العربية التي نزل بها القرآن والسنة.
- * أن يكون عالمًا بالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والعام والخاص، والمجمل والمفصل.

فإذا توفرت فيه هذه الشروط فهو إمام مجتهد، له أن يجتهد في مسائل الاجتهاد، ولم يغلق الاجتهاد أمامه.

واستدل الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ على أن الاجتهاد لم ينقطع بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»؛ لأنها لا تكون منصوراً ولا محمية إلا إذا تمسكت بالدليل، هذا يدل على أن الاجتهاد يبقى، وأن الله يقيض في كل زمان وفي كل جيل من الأئمة من يجدد هذا الدين.

✽ ثم قال المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ: (وحكى ابن عبد البر الإجماع على أن المقلد لا يكون من أهل العلم) الذي لا يعرف الأدلة وإنما يأخذ أقوال العلماء،

فهذا ليس من أهل العلم، إنما هو مقلد، ويكون الرجل من أهل العلم إذا كان يعرف القول بدليله، ويعرف الراجح والمرجوح، أما الذي ينقل أقوال العلماء، ولا يدري عن أدلتهم، ولا يميز الراجح من المرجوح، فهذا ليس عالمًا، هذا يعتبر مقلدًا.

والإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ هو أول الأئمة الأربعة؛ لأنه أدرك التابعين، وقيل: إنه أدرك بعض الصحابة، فهو أقدم الأئمة الأربعة، قال رَحِمَهُ اللهُ: (إذا جاء الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء الحديث عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء الحديث عن التابعين فهم رجال ونحن رجال)، يعني: أنه لا يُقدم شيئًا على قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُقدم شيئًا على قول الصحابة؛ لأنهم تلاميذ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذوا عنه، فلا يُعارض قول الصحابي بقول التابعي أو من بعده، ولكن الصحابة إذا اختلفوا يُنظر في قوله، ويُتبع الدليل مع من كان معه، وإذا لم يختلفوا فإجماعهم حجة، وإذا لم يظهر للصحابي مخالف من الصحابة فإن قوله حجة أيضًا، وهذا عند الأصوليين من أصول الأدلة، فيُتبع الدليل من الكتاب والسنة، ثم الإجماع، ثم القياس، ثم قول الصحابي، فقول الصحابي حجة إذا لم يخالفه صحابي آخر؛ لأنه تلميذ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ وقال الإمام أحمد: (نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاث وثلاثين موضعًا)، جاءت مقرونة مع طاعة الله عَزَّوَجَلَّ،

وجاءت مفردة، ومن ذلك: قوله عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمِيثِثِ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

✽ قال الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ: (فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال المخالفين وما استدلوا به، فيكون متبعاً للدليل مع من كان معه) لا حرج على الحنبلي إذا كان الدليل مع الشافعي أن يأخذ بقول الشافعي أو الحنفي أو المالكي، ولا يمنع هذا أنه حنبلي، وكذلك العكس إذا رأى الشافعي الدليل مع الحنبلي يأخذ به ولا ينقص هذا من كونه شافعيّاً؛ لأن إمامه يأمره بهذا، الأئمة الأربعة - الشافعي، وأحمد بن حنبل، ومالك، وأبو حنيفة - كلهم يأمرون بهذا يقولون: إذا اتضح لكم الدليل مع غيرنا فخذوا بالدليل واتركوا قولنا.

فهذا الذي يقلد الإمام على غير بصيرة، هو في الأصل مخالف لإمامه ويزعم أنه موافق له، لكن مدارك الناس تختلف، فالاجتهاد ليس ممنوعاً مطلقاً، ولا جائزاً مطلقاً وإنما فيه تفصيل، فالذي توفرت فيه شروط المجتهد المطلق هذا يجب عليه الاجتهاد ولا يقلد غيره، كالأئمة الأربعة، وأما الذي يقلد أحد المذاهب فهذا يجب عليه إذا كان يعرف الدليل أن يأخذ ما ترجح، وهذا يسمى المجتهد المذهبي، والأول: المجتهد المطلق، فالمجتهد المذهبي

ينظر في أقوال المذهب الذي يتبعه ويمحصها بحسب الدليل، ويأخذ ما ترجح بالدليل من مذهبه أو مذهب غيره.

وهذا هو الذي عليه الشيخ الإمام المصنف محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، فإنه يأخذ ما ترجح بالدليل، ولا يقلد تقليدًا أعمى، وصار على هذه المنهج أئمة هذه الدعوة والله الحمد، حيث يأخذون ما ترجح بالدليل من مذهبهم ومن مذهب غيرهم، كما صرح بهذا الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في رسالته لما دخلوا الحجاز، كتب رسالة ذكر فيها هذه القاعدة العظيمة: أننا نأخذ من أقوال الفقهاء ما قام عليه الدليل ولو كان مخالفًا لمذهب إمامنا، وهذا هو الذي تبرأ به الذمة.

أما الذي لا يعرف الترجيح، فهذا يُسمى: مقلدًا، فيأخذ بقول إمامه ما لم يتبين له أنه مخالف للدليل.

والرابع: العامي والمبتدئ، هذا الذي يجب عليه السؤال إذا أشكل عليه أمر من أمور دينه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فيسأل من يثق بعلمه ودينه ويأخذ بقوله.



وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَال: «أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحَرِّمُونَهُ؟» قَال: بَلَى قَال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ (١).

قوله: [عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ] أي: الطائي، المشهور بالسخاء والكرم، قَدِمَ عدي على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شعبان سنة تسع من الهجرة، فأسلم، وعاش مائة وعشرين سنة.

وقد أشار المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بترجمة الباب إلى هذا الحديث وما في معناه، وفيه دليل على أن طاعة الأحرار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله. قال شيخنا في المسائل: (فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية، فصار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمون بها الولاية، وعبادة الأحرار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبدَ من ليس من الصالحين، وعُبدَ بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين).

وعن زياد بن حدير قال: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالَمِ وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رواه الدارمي (٢).

(١) أخرجه الترمذي بنحو هذا اللفظ (٣٠٩٥).

(٢) أخرجه الدارمي (٢١٤).

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، فكم ضل من ضل، وزل من زل!

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❖ قوله: (عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ) هو: عدي بن حاتم الطائي، اشتهر أبوه حاتم الطائي بالكرم والجواد المشهور، ولما استولى المسلمون على بلاد طيء في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فر عدي بن حاتم إلى الشام، وأخذت أخته في الأسر مع السبي، فلما قدموا على المدينة عرضت حالها على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأكرمها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعتقها، فأسلمت وحسن إسلامها، فكتبت إلى أخيها تستقدمه إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتخبره بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كريم، وأنه عفا عنها، وأنه لو جاء إليه لأكرمه، فجاء عدي بن حاتم ودخل على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستقبله وأكرمه ودعاه إلى الإسلام، فأعلن إسلامه، وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصار من قواد الجيوش في سبيل الله، وطال عمره في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

هذا عدي بن حاتم، سمع النبي يقرأ قول الله عَزَّ وَجَلَّ في اليهود والنصارى ﴿قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَنُ يُؤْفَكُونَ﴾ ❖ أي: لعنهم الله ❖ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ❖ وهم علماءهم ❖ وَرُهْبَانَهُمْ ❖ وهم العباد ❖ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ❖ وهو عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، والأنبياء أَجَلَّ من الأحرار والرهبان، ومع هذا من اتخذهم أربابًا من دون الله كان كافرًا، فكيف بمن اتخذ غيرهم؟! ❖

✽ فلما سمعها عدي بن حاتم، قال: «إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ»؛ لأنه فهم أن العبادة هي الركوع والسجود والدعاء فقط، ولم يعلم أن العبادة تشمل الطاعة، والعبادة أنواع كثيرة؛ كما قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللهُ: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة)، فهي ليست مقصورة على الركوع والسجود والدعاء وغير ذلك.

✽ قال: «لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ» أي: لسنا نركع لهم ونسجد لهم، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَمْ يَحِلُّوا لَكُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَأَحْلَلْتُمُوهُ؟ قال: بلى، قال: أَلَمْ يُحَرِّمُوا عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللهُ فَحَرَّمْتُمُوهُ؟ قال: بلى، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». فهذا فيه دليل على أن الطاعة في تحليل الحرام وتحريم الحلال أنها شرك، وفي هذا مطابقة الآية للترجمة: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)، أي: عبدتهم من دون الله بإشراكه لهم في الطاعة، على التفصيل الذي ذكرناه أولاً، أنه قد يكون شركاً أكبر، وقد يكون شركاً أصغر، وقد يكون صاحبه معذوراً.

✽ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في مسائل هذا الباب: (فصار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها الولاية) العباد هي أفضل الأعمال، ولذلك إذا مات من يدعون له الولاية بنوا على قبره بنية وصاروا يعبدونه، ويذبحون له، وينذرون له، ما كفاهم أنهم كانوا يطيعونه حين كان حياً، بل لما مات بنوا على قبره، وغلوا فيه، وصاروا يصرفون له العبادة والعياذ بالله، هذا أشد من قال الله فيهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ

دُؤِبَ اللَّهُ ﷻ؛ لأن ذاك في طاعتهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، لكن الآن صاروا يعبدونهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويطوفون بقبورهم، فصار أشد من فعل اليهود والنصارى، ثم يقولون: الذي لا يطوف بقبورهم ولا يذبح لهم ولا ينذر لهم هذا دليل على أنه يبغضهم، والذي يطوف بقبورهم، ويذبح لهم، وينذر لهم، فهذه هي المحبة هي الولاية، ومن لم يعمل عملهم وصفوه بأنه عدو لأولياء الله.

❁ قوله: (وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين) ثم تغير الحال ولم يقتصر على ما سبق من عبادة الصالحين، بل صاروا يعبدون الكفرة، فإذا كان الذي يسمونه ولياً لا يعمل بطاعة الله عبوده، وقالوا: هذا من كرامته، هذا يأخذ عن الله مباشرة ولا يأخذ عن الرسول؛ لأنه وصل إلى الله، فيعبدونه وهو لا يصوم، ولا يصلي، ولا يحج، بل يفعل الزنا والفواحش، ويقولون هذا ولي له كرامات، انتهى من التحليل والتحريم وترقى، وليس لمثله أن يتقيد بالتحليل والتحريم، بل التقيد بالحلال والحرام هذا للعوام، أما هو لما فقد وصل إلى الله ولا يحتاج إلى التحليل والتحريم، إنما له أن يفعل ما يشاء!!

آل بهم الأمر إلى هذا الحد والعياذ بالله، فهم يعبدون ابن عربي مع أنه أكفر أهل الأرض، حيث يقول بوحدة الوجود، وليس هو بولي من أولياء الله، بل هو ولي من أولياء الشيطان، ومع هذا يعبدونه، ويعبدون الحلاج

وغيره من أئمة الكفر، وبينون على قبورهم القباب والمساجد، ويطوفون بقبورهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم.

بل آل بهم الأمر إلى أن يقولوا: إن المرید مع شيخه ليس له أن يعترض عليه أبداً، إنما هو كالريشة في الهواء، والجنابة بيد الغاسل، فلا يعترض على الولي ولا ينكر عليه أبداً مهما سوى من الفواحش!!

❁ قال: (وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين) مع أن طاعة العلماء في معصية الله شرك، لكن مع هذا لم يبقوا على هذا، بل صاروا يطيعون الجاهل الذين ليس عندهم علم، فإذا سمعوا الفتوى من غير العالم أخذوها وفرحوا بها، وهي تخالف صريح الكتاب والسنة، وتخالف إجماع أهل العلم، ويقولون: هذا مجتهد العصر، وإمام أهل العصر!! بينما هو جاهل مركب لا يعرف شيئاً، ولو امتحنته في أدنى مسألة من مسائل العلم ما أفادك بشيء، فتحولت الأمور إلى الأسوأ والعياذ بالله.

❁ قوله: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالَمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ» زلة العالم خطيرة جداً لأن الناس يقلدونه، ومن هنا يجب على العلماء وطلبة العلم الخوف من الله، والتثبت في الفتاوى، والتثبت في التحليل والتحريم؛ لأنهم إذا زلوا زل الناس بسببهم.

❁ قوله: (وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ) أو منافق يدعي العلم وليس في قلبه إيمان، فيغير الأحكام، ويقلده الناس؛ لأنهم يظنون فيه العلم والإيمان، وهو

منافق ليس في قلبه إيمان، وهذا يكثر في آخر الزمان، يكثر الزنادقة والملاحدة الذين يخرقون الشريعة، ويلبسون على الناس دينهم.

❦ قوله: (وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ) حكم الجبارة والأمرأ الذين لا يتقيدون بشرع الله، بل يأخذون بالبعثية والشيوعية والقومية والمذاهب الكافرة.

فهذا باب عظيم ينبغي دراسته بعناية وتأمل، حتى يحصل لقارئه علم بأحوال الناس وتغيراتهم، وحيث لا يغتر بكثير من أحوال الناس وأقوالهم وأهوائهم.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثالثة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

الرابعة: تَمْثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

الخامسة: تَغْيِيرُ الْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ

الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتُسَمَّى الْوَلَايَةِ، وَعِبَادَةُ الْأَحْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ

وَالْفَقْهُ ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْحَالُ إِلَى أَنَّ عَبْدَ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعَبْدَ

بِالْمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَوْذَا فَلْيَحْذَرِ

الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] وهي في طاعة الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ والأَمْرَاءِ

فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: (الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿أَتَّخِذُوا

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وهذه فسرَها النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُمْ يَحْلُونَ لَهُمُ الْحَرَامَ، وَيَحْرَمُونَ الْحَلَالَ.

❁ قوله: (الثالثة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ) بَيْنَ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لَهُمْ.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: تَمَثُّلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَ تَمَثُّلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ) وهؤلاء أفضل الأمة، أبو بكر وعمر أفاضل الصحابة، وسفيان من أفضل التابعين، ومع هذا مثل ابن عباس بأبي بكر وعمر، بأن من أطاعهم وخالف الدليل أنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء، ومثل الإمام أحمد بسفيان الثوري بأن من أخذ بقوله وترك الدليل فإنه يخشى عليه الفتنة.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: تَغْيِيرُ الْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرَّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتُسَمَّى الْوِلَايَةِ، وَعِبَادَةُ الْأَخْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْحَالُ إِلَى أَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) هذه المسألة سبق أن بينها في الشرح.



٣٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء ٦١-٦٢].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾] الآية.

قال العماد ابن كثير: (والآية دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ها هنا)^(١).

وكل من عبد شيئاً دون الله بأي نوع كان من أنواع العبادة؛ كالدعاء والاستغاثة، فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحاً كانت عبادة العابد له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته، وزينها له؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠).

وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٨﴾ [يونس: ٢٨-٢٩] والآية بعدها.

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه؛ كالطاوagيت، أو كان شجراً، أو
حجراً، أو قبراً؛ كالللات، والعزى، ومناة، وغير ذلك مما كان يتخذه المشركون
لهم أصناماً على صور الصالحين والملائكة أو غير ذلك، فهي من الطاغوت
الذي أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبرءوا منه، ومن عبادة كل معبود
سوى الله كائناً من كان.

فالتوحيد هو الكفر بكل ما عُبد من دون الله؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦]،
فلم يستثن من كل معبود إلا الذي فطره عَزَّوَجَلَّ، هذا معنى (لا إله إلا الله) كما
تقدم، وكما في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا
لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ
وَالْبَغْضَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [المتحنة: ٤].

وكذلك من خالف حكم الله ورسوله، بأن حكم بين الناس بغير
ما أنزل الله، أو مع الجهل بذلك، أو طلب ذلك أن يتبع عليه، أو أطاعه فيما
لا يعلم أنه حق، إذا كان المطيع له لا يبالي أكان أمره حقاً أم لا، فهو طاغوت بلا
ريب؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا
بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]. لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد؛ كما في آية البقرة، فإذا
لم يحصل هذا الركن لم يكن قد نفى ما نفته (لا إله إلا الله).

قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] أي بعيداً عن الهدى، ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان.

الثاني: أنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله! ما أعظم القرآن، وما أنفعه لمن تدبره، وما أبلغه وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، فإن المنافق يكره الحق وأهله، ويهوى ما يخالفه من الباطل، وهذه حال أهل النفاق.

قال العلامة ابن القيم: (هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين)^(١).

قلت: فما أكثرهم، لا أكثرهم الله!

قال: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم، وهو بمعنى يعرضون؛ لأن مصدره ﴿صُدُّودًا﴾، فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصاً من يدعي

العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله إلى أقوال من يخطئ كثيراً، فمن ينتسب إلى مذهب من مذاهب الأربعة، في تقليدهم

(١) انظر: زاد المعاد (٥/٤).

من لا يجوز تقليده فيما يخالف الدليل، فصار المتبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أولئك غريباً، وقد عمت البلوى بهذا.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❦ قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّلْعُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ إلى قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٥]. هذه الآيات في سورة النساء في موضوع التحاكم إلى غير شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الباب مثل الباب الذي قبله في طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، إلا أن الباب الذي قبله عام، وهذا خاص في الحكم بين الناس في الخصومات؛ لأن الواجب الحكم بما أنزل الله في جميع الأمور: في التحليل، وفي التحريم، وفي الفصل في الخصومات، وفي المذاهب الفقهية، وفي المذاهب الاعتقادية، وبين الفرق المختلفة، فقد أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ القرآن ليحكم بين الناس؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، في جميع الأمور، والكتاب: جنس يشمل كل الكتب المنزلة من الله عَزَّ وَجَلَّ على الأنبياء، لاسيما القرآن العظيم، قال

عَزَّجَلْ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ﴾
[النساء: ١٠٥]، وقال عَزَّجَلْ: ﴿ وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾
[المائدة: ٤٩].

فالواجب على المسلمين أن يتحاكموا إلى كتاب الله فيما تنازعوا فيه في جميع الأمور؛ لأن الله أنزل الكتاب ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وهذا من حق الله على عباده، فالتحاكم إلى شرع الله عبادة لله عَزَّجَلْ، فهو سبحانه الذي من حقه أن يحلل ويحرم، وأن يحكم بين الناس، قال عَزَّجَلْ: ﴿ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال عَزَّجَلْ: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، الخلق: هو التدبير، والأمر: هو التشريع، فالذي له الخلق هو الذي له الأمر، وليس للمخلوق أمر، بل الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يشرع لعباده ويحكم بينهم.

فالحكم بما أنزل الله عبادة لله عَزَّجَلْ، وأيضاً هو راحة للخلق يقطع النزاع بينهم، وهو حكم عدل؛ لأنه حكم رب العالمين لا يجوز أبداً، وبه يقتنع الناس، وتزول خصوماتهم.

ولما رأى المنافقون على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عزة الإسلام وقوته، وأنهم لا حيلة لهم في التخلص منه، لجأوا إلى النفاق، فأظهروا الإسلام وهم باقون على الكفر في باطن أمورهم، وهم لا يريدون التحاكم إلى ما أنزل الله، إنما يحاولون جاهدين التخلص منه، فأنزل الله فيهم هذه الآيات لِمَا بَدَرُ مِنْهُمْ رغبة عن شرع الله، وعدم الرضى بالحكم بما أنزل الله.

وهذا حالهم على مر العصور، يهربون من الحكم بشريعة الله، ويريدون التحاكم إلى غيرها من الأنظمة، والقوانين، والعوائد القبلية، وأحكام الجاهلية، والتحاكم إلى الكهان، كما كانوا في الجاهلية يريدون هذه الأمور، يتهربون من حكم القرآن وحكم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا خطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والهمزة للاستفهام التقريري، أي: قد رأيت ما صنعه المنافقون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، والطاغوت: المراد به الحكم بغير ما أنزل الله، فكل حكم بغير ما أنزل الله فهو حكم الطاغوت، سواء سمي قانونًا، أو سمي نظامًا، أو سمي عادات قبلية، أو غير ذلك، كله طاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فالذي يحكم بغير ما أنزل الله قد تجاوز الحد الذي هو الشرع، أي: خرج عن الحد الشرعي، فيُسمى طاغوتًا من الطغيان؛ لأنه طغى وخرج.

والله عَزَّجَلَّ أمر بالكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وهذا هو معنى (لا إله إلا الله): الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فلا يصح لأحد إيمان إلا إذا كفر بالطاغوت، أما إذا قال: دع الناس على هواهم، يتحاكمون إلى الشرع، أو يتحاكمون إلى القانون، أو يتحاكمون إلى عادات. فهذا حكمه حكم المنافقين الذين رغبوا عن شرع الله.

❁ قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ لكنهم لم يكفروا به، لما أرادوا التحاكم إليه فمعناه أنهم لم يكفروا به ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الشيطان الذي هو رأس الطواغيت؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (الطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبده وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله)^(١).

هذا الشيطان الذي هو رأس الطواغيت يريد أن يبعدهم عن الحق؛ لأنه لا يريد لبني آدم الخير أبداً، بل يريد أن يخرجهم من الخير إلى الشر، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وليس ضلالاً قريباً، بل يبعدهم نهائياً عن الحق بحيث لا يرجعون إليه، فهو لا يكتفي بالضلال اليسير، هذا الذي يريده لهم، فشياطين الجن والإنس لا يريدون للمسلمين أن يتحاكموا إلى الشرع، وإنما يريدون الحكم بغير ما أنزل الله، ويدعون إلى ذلك دائماً وأبداً، هذا ديدنهم، ومنهم المنافقون الذين ادعوا الإسلام ظاهراً وهم على الكفر باطناً، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾، والزعم: هو الكذب، فهم يدَّعون أنهم آمنوا، ولكنهم كاذبون في ذلك. وفي هذا دليل على أن من يريد التحاكم إلى الطاغوت أنه ليس بمؤمن، وإن زعم إنه مؤمن، فهذا زعم كاذب.

❁ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ إذا أمروا بالتحاكم إلى القرآن والسنة ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يدعون

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٥٠).

الإيمان وهم كاذبون ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ يعني: يعرضون عمن يدعونهم إلى الكتاب والسنة، وهذا ليس خاصاً في المخاصمات، بل هو عام في كل ما تنازع فيه الناس، سواء أكان خلافاً في الفقه أم خلافاً في العقيدة، أم في المقالات، أم في المناهج والأحزاب، إذا قيل للمخالفين تعالوا إلى ما أنزل الله والرسول رأيت إعراضاً كاملاً، كما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بذلك.



وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾

[البقرة: ١١].

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: قال أبو العالية في الآية: (يعني لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله)^(١).

ومناسبة الآية للترجمة أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد في الأرض، وفي الآية التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء، وإن زخرفوها بالدعوى.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: إذا قيل للمنافقين ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والشرك والحكم بغير ما أنزل الله، فسمى الله ذلك فساداً في الأرض ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ لا يتراجعون ولا يعترفون بخطئهم ويتوبون عنه، بل يصرون ويدَّعون أن ما هم عليه هو الصلاح، وهذا ما يقوله دعاة الباطل الآن، يقولون: نحن ندعو إلى الرقي والتقدم والحضارة والحق بالأمم، وهذا بعرفهم إصلاح، وهو في الحقيقة إفساد في الأرض، وتعطيل لأحكام الشريعة، وإشاعة للمعاصي والمحرمات والمخالفات،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٤ / ١، ٤٥) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية، وأخرجه الطبري في تفسيره (١ / ١٢٥) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع، ولم يذكر أبا العالية.

ويقولون: هذا إصلاح، والإفساد هو البقاء على ما عليه المؤمنون من الرجعية والتأخر!! يصرحون بهذا تصریحًا، زادوا على المنافقين، وصرحوا بأن الالتزام بشرائع الدين الإسلامي تأخر ورجعية، وأنه لا يصلح إلا للقرون الماضية، ولا يصلح إلا لهذا الزمان، ولا بد من اللحاق بالأمم وركب الحضارة إلى آخره، ويزعمون أن إفسادهم إصلاحًا.

وهذا من انتكاس الفطر وخراب القلوب أن يعتقد الإنسان أن الفساد صلاح، وأن الصلاح فساد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رد الله عَزَّجَلَّ عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢] حصر الفساد فيهم، ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لعمى قلوبهم، وانتكاس فطرهم، لا يشعرون بإفسادهم، ويظنون أنه صلاح، فسد تصورهم فصاروا يعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً.



وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: قال أبو بكر بن عياش^(١) في الآية: (إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو من المفسدين في الأرض)^(٢).

قال ابن القيم: (قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره، والشرك به: هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك، والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع ومتبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو أعظم الفساد في الأرض. ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة).

(١) هو الإمام أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي مولا هم الكوفي، شيخ الكوفة في القراءة والحديث، قال الإمام أحمد: «قد اختلفوا في اسمه، وغلبت عليه كنيته» اهـ. فقيل: اسمه شعبة، وقيل: محمد، وقيل: اسمه كنيته، وقيل غير ذلك، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة. انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٣٧١)، والوافي بالوفيات (١٠/ ١٥١)، والعبر (١/ ٣١١)، وشذرات الذهب (١/ ٣٣٤)، وطبقات الحفاظ (ص ١١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥٠١)، (٥/ ١٥٢٠). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧) لأبي الشيخ في التفسير.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل فتنة في العالم وبلاء وشر وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله). انتهى^(١).
وبما ذكرنا يتبين مطابقة الآية للترجمة.

... — الشَّيْخُ — ...

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والكفر والشرك ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب والطاعات، فصلاح الأرض هو بهذه الأمور: بالحكم بما أنزل الله، وبترك الذنوب والمعاصي، وبلزوم الطاعات، واتباع الرسل، هذا صلاح الأرض.

وقد كان الناس قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيشون في فساد، وفي ظلام دامس، وفي شرك وتخبط، في جميع أقطار الأرض، فلما بعث الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أضاء الله الأرض بالتوحيد والشرعية والطاعة لله ولرسوله، فعمرت الأرض وصلحت.

فبعد أن أصلح الله الأرض ببعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس لأحد أن يتبع غير شريعة محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكل من دعا إلى ما يخالف الشرع فهو من المفسدين في الأرض، وإن زعم أنه من المصلحين، وأنه يريد التقدم والحضارة والرقى ... إلى آخره؛ لأن أمور الدين ليس فيها تغيير ولا تبديل، أما أمور الدنيا والصناعات والأشياء هذه لا بأس أن يأخذ الناس

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٥).

بأحسنها وأصلحها في كل زمان، أما أمور العبادات وأمور الشريعة فلا يجوز تغييرها أو استبدالها بغيرها؛ لأنها صالحة لكل زمان ولكل مكان.

فصلاح الأرض لا يكون إلا بأمرين:

الأمر الأول: عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.
الأمر الثاني: اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترك الاتباع والافتداء بغيره.

فمن أمر بمعصية فلا سمع له ولا طاعة؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كائنًا من كان، لا يجوز أن يُطاع في معصية الله عَزَّجَلَّ أحد، لا الوالد، ولا السلطان، ولا الشيخ والعالم، ولا الزوج، ولا أي أحد له إمرة أن يطاع في معصية الله.

لكن العلماء وولاة الأمور إذا أمروا بطاعة الله ورسوله، فإنهم تجب طاعتهم، أما إذا أمروا بمعصية فلا تجوز طاعتهم.

❁ قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ نَقْلًا عن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعته وطاعة رسوله، وكل فتنة في العالم وبلاء وشر وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله) خذ مثلاً هذه البلاد، كانت قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في أمر مريع من الفتن، والظلم، وتسلبت الناس بعضهم على بعض، واختلاف الكلمة، وعدم الأمن والاستقرار، وضيق المعيشة، فلما دعا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الناس إلى توحيد الله،

وتبعه كثير من الناس على ذلك، صلحت هذه البلاد، وأمنت، وفتحت عليها
الأرزاق، واجتمعت كلمتها، وزال الخلاف. ذلك لأن دعوة الشيخ موافقة
لما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَقَوْلِهِ: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

[المائدة: ٥٠].

قوله: [وَقَوْلِهِ: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ...﴾ الآية]: قال ابن كثير: ينكر تعالى من خرج عن حكم الله عَزَّجَلَّ، المشتغل على كل خير، والناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، وكما يحكم به التتار، من السياسات المأخوذة عن چنكيزخان، الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام، اقتبسه من شرائع شتى، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، وصار في بنه شرعًا يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير^(١).

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] استفهام إنكار، أي: لا حكم أحسن من حكمه، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مُشارك، أي: ومن أعدل من الله حكمًا لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أنه عَزَّجَلَّ أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٦٨).

... — الشَّيْخُ — ...

لما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهل التوراة بالحكم بالتوراة التي أنزلها على موسى، وأمر أهل الإنجيل بالحكم بالإنجيل الذي أنزله على عيسى، وأمر المسلمين بالحكم بالقرآن، قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴿٥٠﴾] [المائدة: ٤٩-٥٠] فليس بعد حكم الإسلام إلا حكم الجاهلية، أمران لا ثالث لهما، إما حكم الإسلام، وإما حكم الجاهلية، والجاهلية المراد بها ما قبل الإسلام، وهو ما كان عليه أهل الجاهلية من تحكيم الكهان، وتحكيم الأعراف والعادات القبلية من غير شرع منزل.

فالذين لا يحكمون بالقرآن يريدون حكم الجاهلية، وكل ما أضيف إلى الجاهلية -مثل: حكم الجاهلية، وتبرج الجاهلية، وحمية الجاهلية- مذموم ومنهي عنه، ومن ذلك حكم الجاهلية الذي كانوا يتحاكمون إليه قبل نزول القرآن، فقد كان لكل قبيلة كاهن يحكم بينهم، أو أعراف وعادات قبلية يرجعون إليها. فمن رجع إليها وحكم بها فقد حكم بحكم الجاهلية.

﴿قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾﴾ هذا استفهام استنكاري بمعنى النفي، أي: ليس من أحد أحسن حكماً من الله؛ لأن الله هو الذي خلق الخلق، ويعلم مصالحهم، ويعلم ما يضرهم، فهو يشرع لهم ما يصلحهم وهو أعلم بذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الخلق فإنهم قاصرون، وتدخلهم

.....

الأهواء والرغبات، فتأتي أحكامهم إما باطلة وإما ناقصة لاتفي بالحاجة، لكن حكم الله تام وعدل، وصالح لكل زمان ومكان.

فالذي يدعي أن الحكم بالنظام الفلاني، أو القانون الفلاني، فيه مصالح، أو أنه حسن، فهذا يعارض قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنه يزعم أن هناك ما هو أحسن من حكم الله؛ لأنه لو كان ما يرى أن هذا أحسن من حكم الله لما أخذ به، ولما حكم به، ولما دعا إليه.



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». قَالَ النَّوَوِي: حَدِيثٌ صَحِيحٌ رُوِيَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ^(١).

قوله: [عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». قَالَ النَّوَوِي: حَدِيثٌ صَحِيحٌ رُوِيَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ]: هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في «كتاب الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح، كما قال المصنف عن النووي، ورواه الطبراني، وأبو بكر ابن أبي عاصم، والحافظ أبو نعيم في «الأربعين» التي شرط لها أن تكون في صحاح الأخبار^(٢).

وشاهده في القرآن، قال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، ونحو هذه الآيات.

(١) انظر: الأربعين النووية، الحديث الحادي والأربعين (ص ٨٤).

(٢) رواه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٨٨)، وقال: «تفرد به نعيم بن حماد»، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨)، وانظر تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (ص ٣٨٧، ٣٨٨).

قوله: «حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»: الهوى - بالقصر - أي: ما تهواه وتحبه نفسه، فإن كان الذي يحبه، وتميل إليه نفسه، ويعمل به تابعًا لما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يخرج عنه إلى ما يخالفه، فهذه صفة أهل الإيثار المطلق، الذي يوجب لصاحبه الجنة والنجاة من النار، وإن كان بخلاف ذلك، أو في بعض أحواله أو أكثرها، انتفى عنه من الإيثار كماله الواجب، فيُطلق عليه مؤمن بقيد؛ لنقص إيمانه بالمعصية، كما في حديث أبي هريرة: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١). فيكون مسلمًا ومعه مطلق الإيثار الذي لا يصح إسلامه إلا به، وهذا التوحيد الذي لا يشوبه شرك ولا كفر.

وهذا هو الذي يذهب إليه أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج يكفرون بالذنوب، والمعتزلة لا يطلقون عليه الإيثار، ويقولون بتخليده في النار، وكلا الطائفتين ابتدع في الدين، وترك ما دل عليه الكتاب والسنة، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ففقد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة.

وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة، فقد أخرج البخاري وغيره عن أنس، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ شَعِيرَةٌ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث ذكره النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الأربعين النووية»، وقال: (رُوِيَنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ)، يعني: قرأنا هذا الحديث في كتاب «الحجة على تارك المحجة»، وهو كتاب ألفه أبو الفتح نصر بن إبراهيم الشافعي^(٢)، وهو كتاب جيد وقيم يردّ فيه على المبتدعة وأصحاب المقالات الباطلة في العقيدة، وهو مطبوع الآن ومحقق، وفيه هذا الحديث.

❦ قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» ليس نفياً لأصل الإيمان، وإنما هو نفى لكمال الإيمان، أي: لا يكمل إيمان أحدكم؛ لأنّه قد يأتي نفى الإيمان ويُراد نفى الإيمان الكامل؛ كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣)، ومثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٤). فالمراد بهذا: نفى الإيمان

(١) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

(٢) هو الإمام العلامة أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود النابلسي المقدسي، الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف والأُمالي، ولد قبل سنة عشر وأربعمائة، وارتحل إلى دمشق قبل الثلاثين، فسمع صحيح البخاري من أبي الحسن بن السمسار، قال الحافظ ابن عساكر: «كان على طريقة واحدة في الزهد في الدنيا، والتزهد عن الدنيا، والجري على منهاج السلف، من التقشف، وتجنب السلاطين، ورفض الطمع...»، توفي سنة تسعين وأربعمائة. انظر: تاريخ دمشق (١٧/٦٢)، وتهذيب الأسماء (٤٢٥/٢)، وسير أعلام النبلاء (١٣٦/١٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، (٧١) من حديث أنس رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) سبق تخريجه (٥٦٤/٢).

الكامل، لا نفي مطلق الإيمان، فإنَّ الفاسق يكون معه من الإيمان ما يصحَّ به إسلامه، أمَّا الذي ليس معه إيمان أصلاً، فهذا كافرٌ خارجٌ من الملة.

وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن الفاسق لا يُسَلَب مطلق الإيمان، ولا يُعطى الإيمان المطلق، فلا يُسَلَب مطلق الإيمان بحيث يكون كافراً كما تقوله الخوارج والمعتزلة، ولا يُعطى الإيمان المطلق كما تقوله المرجئة، وإنما يُقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو يُقال: مؤمنٌ ناقص الإيمان.

فأهل السنة - والله الحمد - وسط بين هذين المذهبين، فلا يسلبون مرتكب الكبيرة الإيمان بالكليَّة، ولا يُعطونه الإيمان الكامل، وإنما يسمّونه مؤمناً فاسقاً أو مؤمناً ناقص الإيمان.

❁ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ» أي: حتى تكون محبته ورغبته تابعة لما جئتُ به، فما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبه، وما خالف ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبغضه، هذا هو المؤمن الذي يحب ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُبغض ما خالفه.

❁ قوله: «تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» من الشريعة والكتاب والسنة، فهذه علامة واضحة بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

وهذا الحديث صححه الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، صاحب التصانيف العظيمة في الإسلام، وقال: (رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ)، وبعض العلماء يرى أنه حديث ضعيف، ولكن الحديث إذا

اختلف فيه العلماء بعضهم يصححه وبعضهم يضعفه، فإنه يُحتج به، إنما إذا أجمع على تضعيفه فهذا لا يحتج به.

وما جاء في هذا الحديث تؤيده الأدلة من الكتاب والسنة، فإن المؤمن يجب أن يكون محباً وراغباً فيما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومبغضاً لما سواه، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجن: ٢٣]، فالذي لا يأخذ من الشرع إلّا ما يوافق هواه، ويترك ما خالف هواه ورغبته، إنّما يتبع هواه، وقد اتّخذ هواه إلهًا يطيعه فيما يريد وفيما يكره، أما الذي يتّخذ الله عَزَّجَلَّ إلهًا، فإنه يتبع ما جاء عن الله، سواء وافق رغبته أو خالف رغبته، فإنّ الله وصف المنافقين بأنهم لا يأخذون إلّا ما وافق أهواءهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨-٤٩]، يعني: إذا كان الحكم لهم جاءوا، وإذا كان الحكم عليهم لم يأتوا ولا يقبلوه، وهذا نفاق، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. هذا كله يشهد لهذا الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّهُ عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ. وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، قَالَ: فَنَزَلْتُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠] الْآيَةَ» (١).

وَقِيلَ: «نَزَلْتُ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَفَعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَفَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكْذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَقَتَلَهُ» (٢).

قوله: [وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّهُ عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ. وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ... الخ.

في قصة عمر وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأذى له، والإظهار لعداوته، فانتقض به عهده، وحل به قتله، وقصة قتله مذكورة في كتب الأحاديث (٣)، والسير وغيرها.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٩٠).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٠٧، ١٠٨)، والبغوي في معالم التنزيل (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣) معلقاً من طريق الكلبي، عن أبي صالح باذام، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به.

وأخرج نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٩٤) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود.

(٣) أخرجها مطولة من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا الأثر في سبب نزول قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠] الآية.

فهذا رجل من المنافقين يدعي الإسلام، ورجل من اليهود لم يدخل في الإسلام، بل هو على دين اليهودية، حصل بينهما نزاع، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه يعلم أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأخذ الرشوة، وإنما يحكم بالحق، وقال المنافق الذي يدعي الإسلام: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، وهو لا يريد الحكم بالحق، فأنزل الله هذه الآية.

فهذا المنافق طلب التحاكم إلى كاهن من كهان اليهود، والكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب، وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية فأنزل الله عَزَّجَلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية، فسمى الكاهن طاغوتاً، وكل من حكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت، سواء كان كاهناً أو غير كاهن، أو كما يسمونه في الوقت الحاضر: رجل القانون. فإذا حكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت.

وقيل: إن المنافق طلب أن يتحاكم إلى كعب بن الأشرف، وهو الخصم الألد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي شاق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم المشاقة. فعلى هذه الرواية يكون كعب بن الأشرف طاغوتاً؛ لأنه يحكم بغير ما أنزل الله.

❦ قال: (ثُمَّ تَرَفَعَا إِلَى عُمَرَ) استقر رأيهما أن يترافعا إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا كله مراوغة لأجل ألا يتحاكما إلى ما أنزل الله.

فلما ذهبوا إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلم أن هذا الشخص لا يريد التحاكم إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يُصدق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قول الخصم، بل استنطق المتهم، وقال له: (أَكْذَلِكْ؟) يعني: هل هذا الذي يقوله صحيح أنك لا تريد حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال المنافق: نعم، حينئذ ثبتت رده، فقتله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠]، وعلى كل حال سواء نزلت في السبب الأول، أو في السبب الثاني، أو فيهما جميعاً؛ لأن الآية يمكن أن يكون لها أكثر من سبب، فتكون الآية نزلت في الاثنين.

والمنافق إذا ظهر منه ما يعارض الكتاب والسنة وجب قتله دفعاً لشربه، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقتل المنافقين كعبد الله بن أبي وغيره، درءاً للمفسدة؛ لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتكب أخف المفسدتين وهي ترك قتله، لدفع أعلاهما وهو قول الناس: محمد يقتل أصحابه.

هذا وجه كون الرسول لم يقتل المنافقين مع عداوتهم لله ولرسوله؛ لأنه خشي من مفسدة أكبر.

فدلّت هذه النصوص في هذا الباب العظيم على أحكام عظيمة:
أولاً: في الآيات والحديث: دليل على وجوب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن هذا هو مقتضى الإيمان.

ثانيًا: وجوب تحكيم الكتاب والسنة في كل المنازعات، لا في بعضها دون بعض، فيجب تحكيمها في أمر العقيدة، وهذا أهم شيء، وفي المنازعات الحقوقية بين الناس، وفي المنازعات المنهجية والمذاهب والمقالات، وفي المنازعات الفقهية؛ لقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

أما الذي يريد أن يأخذ جانبًا فقط، ويترك ما هو أهم منه، فهذا ليس تحكيمًا إلى كتاب الله، فما يقوله دعاة الحاكمية اليوم ويريدون تحكيم الشريعة في أمور المنازعات الحقوقية، ولا يحكمونها في أمر العقائد، ويقولون: الناس أحرار في عقائدهم، يكفي أن يقول الإنسان: أنا مسلم، سواء أكان رافضيًا أم كان جهميًا أم معتزليًا، أو.. أو.. إلى آخره!! ويقولون: نجتمع على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه. هذه القاعدة التي وضعوها، ويسمونها: القاعدة الذهبية. وهي في الحقيقة: تحكيم للكتاب في بعض، وترك له فيما هو أهم منه؛ لأن تحكيم الشريعة في أمر العقيدة أعظم من تحكيمها في شأن المنازعات الحقوقية، فتحكيمها في أمر العقيدة، وهدم الأضرحة ومشاهد الشرك، ومقاتلة المشركين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، هذا أهم.

فالذي يأخذ جانب الحاكمية فقط ويهمل أمر العقائد، ويهمل أمر المذاهب والمناهج التي فرقت الناس الآن، ويهمل أمر النزاع في المسائل الفقهية، ويقول: أقوال الفقهاء كلها سواء، نأخذ بأي واحد منها دون نظر إلى مستنده. فهذا قول باطل؛ لأن الواجب أن نأخذ بما قام عليه الدليل، فيحكم

كتاب الله في كلِّ المنازعات العقديّة، وهذا هو الأهم، والمنازعات الحقوقيّة، والمنازعات المنهجية، والمنازعات الفقهيّة.

وهؤلاء الذين جعلوا الحاكميّة بدل التوحيد غالطون، حيث أخذوا جانباً وتركوا ما هو أعظم منه، وهو العقيدة، وتركوا ما هو مثله - أو أعظم منه - وهو المناهج التي فرّقت بين الناس، فكلّ جماعة لها منهج، وكلّ جماعة لها مذهب، لم لا نرجع إلى الكتاب والسنة ونأخذ المنهج والمذهب الذي يوافق الكتاب والسنة ونسير عليه؟

والحاصل: أنّ تحكيم الكتاب والسنة يجب أن يكون في كلّ الأمور، لا في بعضها دون بعض، فمن لم يُحكّم الشريعة في كلّ الأمور كان مؤمناً ببعض الكتاب وكافراً ببعض، شاء أم أبى.

ثالثاً: في هذه النصوص دليل على أنّ من اختار حكم الطاغوت على حكم الله، أو سوى بين حكم الله وحكم الطاغوت، وادّعى أنّه مخير بينهما، أنّه كافر بالله خارج من الملة؛ لأن الله عزّ وجلّ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ فكذبهم في دعواهم الإيمان ما داموا يتحاكمون إلى الطاغوت؛ لأنّه لا يمكن الجمع بين التقيّضين، فمن اختار حكم الطاغوت على حكم الله أو سوى بينهما وقال: هما سواء، إنّ شئنا أخذنا بهذا، وإنّ شئنا أخذنا بهذا، أو قال: تحكيم الطاغوت جائز، أو حكّم بالشريعة في بعض الأمور دون بعض، فهذا كافر بالله. كالذين يحكّمون الشريعة في الأحوال الشخصية فقط.

أما من حَكَمَ بغير ما أنزل الله لهوىً في نفسه، وهو يعترف ويعتقد أن حكم الله هو الحق، وحكم غيره باطل، ويعترف أنه مخطئ ومذنب، فهذا يكفر كفرًا أصغر لا يخرج من المِلَّة.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ.
 الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.
 الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.
 الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ﴾.
 الْخَامِسَةُ: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْأُولَى.
 السَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.
 السَّابِعَةُ: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ.
 الثَّامِنَةُ: كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

... — الشَّيْخُ — ...

- ❖ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ) أي: أَنَّ الطَّاغُوتَ هُوَ مَنْ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، سَمَاهُ اللَّهُ طَاغُوتًا.
- ❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾) أي: وَمَنْ أَعْظَمَ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ: التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.
- ❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾) أي: أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا: تَحْكِيمَ غَيْرِ الشَّرِيعَةِ.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾) أي: أن حكم الجاهلية هو الحكم بغير ما أنزل الله، فكلّ حكم يخالف حكم الله فإنه حكم الجاهلية، في أيّ وقت، ولو سُمّي قانونًا، أو نظامًا، أو دستورًا، أو سُمّي ما سُمّي، فإنه حكم الجاهلية.

❖ قوله: (الخَامِسَةُ: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ الْأُولَى) أي: أن الشعبي ذكر سبب نزول الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾، وأنها نزلت في رجلين أرادا التحاكم إلى غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنفى الله الإيـمان عنهما أراد ذلك، مجرد نية، فكيف إذا نفذ هذا!.

❖ قوله: (السَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ الْإِيْمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ) أي: أن من الإيـمان الصادق: تحكيم ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ، والإيـمان الكاذب هو تحكيم الطاغوت، ولو ادعى الإيـمان بالله.

❖ قوله: (السَّابِعَةُ: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ)، لما تأكد عمر من رفض هذا المنافق لحكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتمل على سيفه وقتله، ولم يبادر إلى قتله بمجرد الظن، وفي ذلك دليل على وجوب قتل المنافق إذا ظهر منه ما يعارض الكتاب والسنة؛ لأنّه أصبح مفسدًا في الأرض، فيجب على ولي الأمر قتله، إلّا إذا ترتب على قتله فساد أكبر.

❖ قوله: (الثَّامِنَةُ: كَوْنُ الْإِيْمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فعلامة الإيـمان: أن يقتنع بحكم الله ورسوله، فإن لم يقتنع وكان في نفسه شيء من عدم الاطمئنان، فهذا دليل على ضعف

إيمانه، أو على عدم إيمانه؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»، ولقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فمن علامة الإيمان: الاطمئنان لحكم الله ورسوله، سواء أكان له أم عليه، فلا يجد في نفسه شيئاً من التبرُّم أو الكراهية حتى ولو كان الحكم عليه.



٣٩- بَابُ

مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٠].

قوله: [بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية]: سبب نزول الآية معلوم، وهو أن قريشاً جحدوا اسم الرحمن عناداً. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، فالرحمن اسمه وصفته، فالرحمة وصفه القائم به، فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه الذي دل على كماله تعالى، فجحدوا معناه كجحد لفظه، فإن الجهمية يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى! وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة، فلهذا كفرهم كثير من أهل السنة.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي عَشْرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي انْبِلْدَانِ
وَاللَّائِكَائِي الْإِمَامُ حَكَاهُ عَندهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبْرَانِي

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم من أهل الكلام على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل فاسد أصلوه من عند أنفسهم، ولم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين،

فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجهادات والمعدومات، فشبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، وشبهوا ثالثاً بكل ناقص أو معدوم، فتركوا ما دل عليه صريح الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة، من إثبات ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد صنف أئمة السنة لما حدثت بدعة الجهمية مصنفات كثيرة في الرد عليهم؛ كالإمام أحمد^(١)، وابنه عبد الله، والخلال^(٢)، وأبي بكر الأثرم^(٣)،

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل الذهلي الشيباني، كان إماماً خبيراً بالحديث وعالمًا مقدماً فيه، وكان من أروى الناس عن أبيه، وقد سمع من صغار شيوخ أبيه، وروى عنه أبو القاسم البغوي والمحاملي وأبو بكر الخلال وغيرهم، وكان ثباً فهما ثقة، ولد في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وتوفي ببغداد في جمادى الآخرة سنة تسعين ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٩/ ٣٧٥)، وطبقات الحنابلة (١/ ١٨٠)، والعبر (٢/ ٩٢)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٠٣).

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ الفقيه شيخ الحنابلة وعالمهم أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون ابن يزيد البغدادي الخلال، ولد في سنة أربع وثلاثين ومائتين أو في التي تليها، فيجوز أن يكون رأى الإمام أحمد، ولكنه أخذ الفقه عن خلق كثير من أصحابه، وتوفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، له من المصنفات كتاب (الجامع في الفقه) في عشرين مجلداً، و(العلل) في ثلاثة مجلدات، و(السنة) في ثلاثة مجلدات. انظر: تاريخ بغداد (٥/ ١١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٩٧)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٦١)، وطبقات الحفاظ (ص ٣٣١).

(٣) هو الحافظ الثبت الثقة أحد الأئمة المشاهير أحمد بن محمد بن هاني الطائي الأثرم، تلميذ الإمام أحمد، سمع عفان وأبا الوليد والقعني وأبا نعيم وخلقاً كثيراً، وكان حافظاً صادقاً قوي الذاكرة، وله كتب مصنفة في العلل والناسخ والمنسوخ، وكان من بحور العلم، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين كذا أرخه ابن قانع، وقيل بعد الستين ومائتين كما أرخه =

وعثمان بن سعيد الدارمي^(١)، وإمام الأئمة محمد بن خزيمة^(٢)، وأبي عثمان الصابوني^(٣)، وخلق من أئمة السنة لا يمكن حصرهم، وكذلك من بعدهم؛ كأبي محمد موفق الدين، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، ومن في طبقتهم؛ كالعماد ابن كثير، والحافظ ابن الهادي، وابن رجب، والذهبي، وغيرهم من أهل السنة والجماعة، وكتبهم مشهورة موجودة بين أهل السنة

= ابن العماد، وله من المصنفات كتاب (السنن)، و(العلل)، و(السنة). انظر: طبقات الحنابلة (٦٦/١)، وسير أعلام النبلاء (٦٢٣/١٢)، والبداية والنهاية (١٠٨/١١).

(١) هو عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الامام العلامة الحافظ الناقد أبو سعيد التميمي الدارمي السجستاني صاحب المسند الكبير والتصانيف، ولد قبل المائتين بيسير، وطوف الأقاليم في طلب الحديث، له رد على المريسي والجهمية، وهو مطبوع باسم: «رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد»، أو «نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد». انظر: تاريخ دمشق (٣٨/٣٦١)، وسير أعلام النبلاء (١٣/٣١٩)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢/٣٠٢)، وطبقات الحفاظ (ص ٢٧٧).

(٢) هو الإمام الحافظ الحجة الفقيه شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري الشافعي صاحب التصانيف، قال عنه أبو حاتم بن حبان التميمي: (ما رأيت على وجه الأرض من يحفظ صناعة السنن، ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها، حتى كأن السنن كلها بين عينيه، إلا محمد بن إسحاق ابن خزيمة فقط) اهـ. وقال الإمام أبو العباس بن سريج - وذكر له ابن خزيمة -: (يستخرج النكت من حديث رسول الله بالنقاش) اهـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٥-٣٧٣)، وتذكرة الحفاظ (٢/٧٢٠-٧٢٨)، وشذرات الذهب (٢/٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني النيسابوري الحافظ الواعظ المفسر، كان من أئمة الأثر، شديداً على المبتدعة، ولد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وتوفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة، وله كتاب «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» مشهور متداول. انظر: تاريخ دمشق (٩/٣)، والبداية والنهاية (١٢/٧٦)، والوافي بالوفيات (٩/٨٦)، وسير أعلام النبلاء (١٨/٤٠)، وشذرات الذهب (٣/٢٨٢).

والجماعة، فله الحمد على ظهور الحق، ونشره، والدعوة إليه، والمحافظة عليه.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ) الجحود: النفي والإنكار، أي: باب بيان حكم من نفى وأنكر شيئاً من أسماء الله وصفاته، وذلك لأن التوحيد ثلاثة أنواع:

النوع الأول: توحيد الربوبية، وهو أفراد الله عَزَّجَلَّ بأفعاله.

النوع الثاني: توحيد الألوهية، وهو أفراد الله عَزَّجَلَّ بأفعال العباد التي يتقربون بها إليه مما شرعه لهم.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات ما أثبت الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله في سنته من الأسماء والصفات؛ لأن الله عَزَّجَلَّ يُعرف بأسمائه وصفاته، ويُسأل ويُدعى بأسمائه وصفاته، وهي تدل على عظمته وعلى كماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك كثر ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لحاجة الخلق إليها ليعرفوا ربهم بها، ويسألوه بها، ويتوسلوا بها إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والواجب الإيمان بها، وإثباتها بلفظها ومعناها.

وتوحيد الأسماء والصفات في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية؛ لأنها من أفعال الله عَزَّجَلَّ، فهي إما أن تكون صفات ذات؛ كالوجه، واليدين، وغير ذلك من صفات الذات، وإما أن تكون صفات أفعال؛ كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والعلو، والاستواء، والنزول، والمجيء، والإتيان،

والرضى، والغضب. فهي في الحقيقة داخله في توحيد الربوبية، ولذلك بعض العلماء يُجمل، فيقول: التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو التوحيد العلمي الخبري، أي: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد عملي طلبى، وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، والتقرب إليه بأنواع العبادة التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا ما يُسمى: توحيد في القصد والطلب، أو توحيد الألوهية، أو توحيد العبادة.

ولكن في أواخر عهد الصحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ظهور بعض الفرق الضالة، الذين جحدوا الأسماء والصفات، أو جحدوا الصفات وأثبتوا الأسماء، أو جحدوا بعض الصفات، لما وُجدت هذه الفرق وخاضت في أسماء الله وصفاته احتاج أهل السنة والجماعة إلى أن يفردوا هذا القسم ويجعلوه قسمًا مستقلًا؛ ليردوا على هؤلاء المبتدعة.

وأول من جحد شيئًا من الأسماء والصفات هم الكفار والمشركون الذين أنكروا اسم الرحمن، فقد كانوا يقولون بجملة أسماء الله وصفاته، ولكنهم أنكروا هذا الاسم وهو الرحمن، كما ذكر الله ذلك عنهم في القرآن وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

ثم تطور هذا المذهب الخبيث، وورثه الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية، وفرق الضلال، فمنهم من أنكر الأسماء والصفات وهم الجهمية، ومنهم من أنكر الصفات دون الأسماء، ومنهم من أثبت الأسماء وبعض الصفات، والواجب إثبات كل ما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات،

وما أثبتته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة الذين ثبتوا على الحق، وثبتوا على ما جاء في الكتاب والسنة.

وهذه مسألة عظيمة جداً؛ لأن هذا هو الأصل الذي يُبنى عليه الدين، فلا يجوز التساهل مع من أنكر من الأسماء والصفات شيئاً، حتى ولو أثبت بعضها وأنكر بعضها، أما من جحد الأسماء والصفات كلها كالجهمية فالأمر أشنع وأشد، ولهذا أجمع أهل العلم على تكفير الجهمية؛ لأنهم نفوا الأسماء والصفات، فشبهاوا الله عَزَّوَجَلَّ بالناقصات والمعدومات والجمادات، فإن الذي ليس له أسماء ولا صفات، إما معدوم لا وجود له، وإما موجود ناقص الجمادات، فهم لما كان هذا مذهبهم، كفرهم علماء أهل السنة والجماعة؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي عَشْرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
وَاللَّائِكَايِي الْإِمَامُ حَكَاهُ عِنْدَهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبْرَانِي

يعني خمسمائة عالم من أهل السنة حكموا بكفر الجهمية.

فهم يكفرون الجهمية الذين ينفون الأسماء والصفات؛ لأنهم شبهاوا الله بالمعدومات أو بالناقصات، تعالى الله عما يقولون، وسيأتي بيان شبهتهم والرد عليها.

❦ قال: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: ينفون هذا الاسم ويحددونه، وذلك كما وقع من المشركين في قصة بيعة الحديبية لما تصالح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم صلح الحديبية، وجاء سهيل بن عمرو من قبيل المشركين يوم كان على الشرك قبل أن يُسلم، فقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»^(١). فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، وكذلك لما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي في مكة قبل الهجرة، كانوا يستمعون إليه وهو يصلي، وكانوا يسمعونَه يقول في سجوده: يا الله يا رحمن، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يزعم أنه يعبد ربًّا واحدًا وهو يدعو إلهين. فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]^(٢).

أي: أن أسماء الله كثيرة، وليست هي: الله والرحمن فقط، بل لله تعالى أسماء كثيرة، وكلها حسنى، وكلها يُدعى بها ويُتوسل إليه بها.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم،

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٨٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأخرج نحوه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٨٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي سورة الفرقان قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: ٦٠]، هذا استنكار؛ لأنهم يقولون لا نعرف الرحمن إلا الرحمن اليامة، وهو مسيلمة الكذاب؛ لأنه كان يُسمي نفسه بالرحمن، ثم قالوا: ﴿أَسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠] يعني: أنسجد لشيء لا نعرفه لأنك أمرتنا به فقط؟! هذا استنكار منهم.

فهذه مواضع الثلاثة فيها أن المشركين ينكرون اسم الرحمن، وقد رد الله عليهم بهذه الآيات، فكيف بمن ينكر الأسماء والصفات كلها والعياذ بالله؟! هذا أشد من المشركين.

وجحود الأسماء والصفات على قسمين:

الأول: جحود اللفظ والمعنى، كما عليه المشركون الذين جحدوا اسم الرحمن، وما عليه الجهمية الذين جحدوا ألفاظها ومعانيها.

والثاني: إثبات اللفظ وجحود المعنى، كما عليه المعتزلة، الذين يقولون: إن أسماء الله إنما هي ألفاظ فقط وليس لها معانٍ!! فهذا أيضًا جحود للأسماء؛ لأن الإقرار باللفظ وجحد المعنى نفي للفظ أيضًا؛ لأنه لا فائدة فيه إذا، وكلام الله عَزَّجَلَّ ينزهه عن ذلك.

وهؤلاء الذين جحدوا أسماء الله وصفاته بنوا هذا التعطيل على أصل فاسد، وهو التنزيه بزعمهم، فيقولون: لو أثبتنا هذه الأسماء والصفات وهي موجودة في المخلوقين لشبهنا الله بخلقه، فالله أخبر أن له وجهًا والمخلوق له وجه، الله أخبر أن له سمعًا، والمخلوق له سمع، الله أخبر أن له بصرًا والمخلوق

له بصر، فلو أثبتنا هذه الأسماء والصفات لشبهنا الله بخلقه، فلاجل ذلك نفوها تنزيهاً لله بزعمهم، ومعنى هذا أنهم كذبوا الله عَزَّجَلَّ، وأنهم أبطلوا ما قاله الله وقاله رسوله، وصاروا أعلم من الله وأعلم من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا التنزيه باطل غلوا في التنزيه والعياذ بالله حتى خرجوا إلى التعطيل الذي هو الجحود، التنزيه لا بد حق، تنزيه الله عَزَّجَلَّ حق، لكنهم غلوا حتى نفوا الأسماء والصفات فراراً من التشبيه فصاروا معطلة، والمعطّل هو الذي ينفي وجود الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، أو يعطل الله من أسمائه وصفاته؛ لأن التعطيل معناه: إخلاء الشيء، فهم أدخلوا الله عَزَّجَلَّ عن أسمائه وصفاته فصاروا معطلة.

فهذا غلوا في التنزيه، والتنزيه حق، لكن ليس معناه نفي الأسماء والصفات، وإنما معناه نفي المشابهة بين الله وبين خلقه، بأن نقول: إن أسماء الله وصفاته خاصة به ولائقة به، وصفات المخلوقين وأسماء المخلوقين لا ثقة بهم بالمخلوقين، ولا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كما أنه لا تشابه بين ذات الله وذات المخلوق، ففيه فرق، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] نفى المثلية وأثبت له السمع والبصر، فدل على أنه ليس معنى تنزيه الله نفي الأسماء والصفات وإنما معناه أنه لا تشبه أسماء الله بأسماء خلقه، ولا صفات الله بصفات خلقه، وإنما يُقال: صفات الله وأسماءه خاصة لا ئقة به، وصفات المخلوقين وأسماء المخلوقين خاصة ولا ئقة بهم، ولا تشابه بين هذا وهذا وإن اشتركت في اللفظ والمعنى، لكن الحقيقة والكيفية مختلفة بلا شك.

هذه هي القاعدة عند أهل السنة والجماعة.

❁ قوله: (وبنوا هذا التعطيل على أصلٍ فاسد) وهو التنزيه بزعمهم، التنزيه الذي غلوا فيه حتى عطلوا، ولو أنهم نزهاوا الله عَزَّجَلَّ كما يليق بجلاله، وأثبتوا ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله، ونفوا عنه التشبيه بالمخلوقين، لكان هذا حقًا، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة.

❁ قوله: (من عند أنفسهم ولم يفهموا) حيث قالوا: إن إثبات الأسماء والصفات يقتضي التشبيه فنحن لا نثبتها هذا أصلهم الذي أصلوه، وهو أصل فاسد.

فنقول: إن إثبات الأسماء والصفات لا يقتضي التشبيه أبدًا؛ لأن هناك فرق بين أسماء المخلوقين وأسماء الخالق، وصفات المخلوقين وصفات الخالق، فهم لم يعرفوا الفرق، ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه.



وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتَرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!»^(١).

قوله: [قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتَرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!»: وهذا -والله أعلم- قاله حين كثر القصص في خلافته، وصاروا يذكرون أحاديث ليست من الأحاديث المعروفة، ولهذا كثر الوضع بهذا السبب، وغير المعروف يحتمل أن يكون فيه ما يصح وفيه ما لا يصح، فإذا سمعه من لم يعرفه أنكره، وربما كان حقًا، فلا ينبغي التحديث إلا بما صح وثبت واشتهر عند المحدثين والفقهاء، وما ليس كذلك فلا ينبغي أن يُحدَّث به؛ لاحتمال أن يكون غير صحيح.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى عن القصص؛ لما فيه من التساهل في النقل، ويقول: «لَا يَقْصُ إِلَّا أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ»^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

في هذا الأثر عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأمر الوعاظ والقصاص، يسمونهم الوعاظ ويسمونهم القصاص؛ لأنهم يقصون على الناس، ويأتون بالأخبار؛ لأجل التخويف والترغيب والترهيب، فالقصاص لا يتحاشون من ذكر الأخبار، سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة؛ لأنهم يريدون التأثير دون

(١) أخرجه البخاري (١٢٧)، وفيه: «أُحْبِبُّونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٥)، وأحمد في المسند (٢٧/٦)، والبزار في مسنده (١٩٢/٧)، والطبراني في الكبير (١٤٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نظر إلى صحة الأخبار أو عدم صحتها، فكلما سمعوا أو قرؤوا يذكرونه في مواعظهم وتذكيرهم. فعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهم من ذلك، وقال لهم: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ»، أي: بما هو معروف وثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فما كان صحيحًا وثابتًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن يستغربه الناس لقصور في أفهامهم، فلا يحدثون الناس به؛ لأن هذا وسيلة إلى أنهم ينكرون شيئًا صحيحًا ثابتًا عن النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالذي يحدث الناس بما لا يعرفون بين حالتين:

* إما أن يأتي بأخبار مكذوبة وينسبها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* وإما أن يأتي بأخبار صحيحة، ولكن فهمها لا يتأتى للعوام، وإنما يتأتى لأهل العلم.

فالواجب على المعلم والمدرس والخطيب والواعظ أنه يحدث الناس على حسب طبقاتهم، فينظر في أحوال المجتمعين حوله، فإن كانوا طلاب علم وأهل فهم يحدثهم بما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم لا يستنكرون هذا، أما إن كانوا مبتدئين في طلب العلم أو عوام، فإنه لا يأتي بغرائب الأخبار، بل يتدرج بهم شيئًا فشيئًا. هذه هي الطريقة العلمية في التعليم، وهذا المنهج التعليمي الصحيح، أما أن تخاطب العوام خطاب العلماء، أو يخاطب العلماء بخطاب العوام، فهذا غير لائق؛ لأنه إذا حدثهم بما لا يعرفون صار هذا سببًا لتكذيب الخبر الصحيح، فيكون هو السبب في تكذيب الله ورسوله.

ويشبهه مقالة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ»^(١)؛ لأنه قد يكفر به أو يكذبه.



(١) أخرجه مسلم (٥).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:
«أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ
اسْتِنكَارًا لِذَلِكَ - فَقَالَ: مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ
عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟». انْتَهَى (١).

قوله: [رَوَى عَبْدُ الرَّزَاقِ]: هو ابن همام الصنعاني المحدث، محدث اليمن،
صاحب التصانيف. أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري، وهو
شيخ عبد الرزاق، يروي عنه كثيرًا.

ومعمر - بفتح الميمين، وسكون العين -: أبو عروة ابن أبي عمرو راشد،
الأزدي الحراني، ثم اليماني، من أصحاب محمد بن شهاب الزهري، ويروي
عنه كثيرًا.

قوله: [عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ]: هو عبد الله بن طاوس اليماني، قال معمر: كان
من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.
قوله: [عَنْ أَبِيهِ]: هو طاوس بن كيسان الجندبي، بفتح الجيم والنون،
الإمام العالم، قيل: اسمه ذكوان. قاله ابن الجوزي.

قلت: وهو من أئمة التفسير، ومن أوعية العلم. قال في «تهذيب الكمال»
عن الوليد الموقري، عن الزهري قال: (قَدِمْتُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ
فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ قَدِمْتَ يَا زُهْرِيُّ؟ قُلْتُ: مِنْ مَكَّةَ. قَالَ: فَمَنْ خَلَفْتَ بِهَا يَسُودُ
أَهْلَهَا؟ قُلْتُ: عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ. قَالَ: فَمِنْ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ:

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٣٩/٣) وفي مصنفه (٤٢٣/١١)، وابن أبي عاصم في
السنة (٢١٢/١).

مِنَ الْمَوَالِي. قَالَ: وَبِمَ سَادَهُمْ؟ قُلْتُ: بِالدِّيَانَةِ وَالرَّوَايَةِ. قَالَ: إِنَّ أَهْلَ الدِّيَانَةِ
وَالرَّوَايَةَ لَيَنْبَغِي أَنْ يَسُودُوا.

قَالَ: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الْيَمَنِ؟ قَالَ: قُلْتُ: طَاوُسُ بْنُ كَيْسَانَ. قَالَ: فَمِنْ
الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِي. قَالَ: وَبِمَ سَادَهُمْ؟ قُلْتُ: بِمَا
سَادَهُمْ بِهِ عَطَاءٌ. قَالَ: إِنَّهُ لَيَنْبَغِي.

قَالَ: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ مِصْرَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ. قَالَ: فَمِنْ
الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِي.

قَالَ: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الشَّامِ؟ قَالَ: قُلْتُ: مَكْحُولٌ. قَالَ: فَمِنْ الْعَرَبِ أَمْ
مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِي، عَبْدُ نَوْبٍ أَعْتَقَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ هَذِيلٍ.

قَالَ: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الْجَزِيرَةِ؟ قُلْتُ: مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ. قَالَ: فَمِنْ
الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِي.

قَالَ: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ خُرَاسَانَ؟ قَالَ: قُلْتُ: الضَّحَّاكُ بْنُ مُرَاجِمٍ. قَالَ:
فَمِنْ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِي.

قَالَ: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ؟ قَالَ: قُلْتُ: الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ. قَالَ:
فَمِنْ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِي.

قَالَ: وَيْلَكَ! فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الْكُوفَةِ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ.
قَالَ: فَمِنْ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْعَرَبِ.

قَالَ: وَبَيْنَكَ يَا زُهْرِي! فَرَجَتْ عَنِّي، وَاللَّهِ لَتَسُودَنَّ الْمُؤَالِي عَلَى الْعَرَبِ، حَتَّى يُخْطَبَ لَهَا عَلَى الْمَنَابِرِ وَالْعَرَبُ تَحْتَهَا. قَالَ: قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ إِنَّمَا هُوَ أَمْرُ اللَّهِ وَدِينُهُ، مَنْ حَفِظَهُ سَادَ، وَمَنْ ضَيَّعَهُ سَقَطَ^(١).

قوله: (مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ؟): يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضرون مجلسه، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن حصل منهم فَرْقٌ، أي: خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين للمعنى، ولا يتم الإيمان إلا بقبول اللفظ بمعناه الذي دل عليه ظاهراً، فإن لم يقبل معناه، أو رده، أو شك فيه، لم يكن مؤمناً به، فيكون هلاكاً.

وقد ظهر من البدع في زمن ابن عباس: بدعة القدرية؛ كما في صحيح مسلم وغيره^(٢)،

(١) أوردته الحافظ المزي بصيغة التمریض في تهذيب الكمال (٨١ / ٢٠)، وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١٩٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩٣ / ٤٠).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٨) من طريق كهْمَس، عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجُهنِّي، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمَيرِيُّ حَاجِبِينَ - أَوْ مُتَمَرِّينَ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدْرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدِ، فَاسْتَفْتَانَا وَأَصْحَابِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكُلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ [ص: ٣٧]: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَتَتْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَتَفُّ، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَتَتْهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي»، وَالَّذِي يَخْلَفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ دَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ» ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ =

فقتل من دعائهم غِيلَان^(١)، قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفي القدر، ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم^(٢) بدعة الجهمية، فقتل، قتله خالد ابن عبد الله القسري^(٣) يوم الأضحى بعد صلاة العيد^(٤).

قال الذهبي حدثنا وكيع عن إسرائيل بحديث: «إذا جلس الرب على الكرسي»، فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وكيع، وقال: «أدركنا الأعمش

=عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ...» ثم ساق حديث جبريل الطويل في بيان الإسلام والإيمان والإحسان.

(١) هو غيلان بن يونس - ويقال ابن مسلم - أبو مروان القدري، كان قبطياً، أخذه هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق، وكانوا يرون أن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز عليه، قال الأوزاعي: «أول من تكلم في القدر معبد الجهني، ثم غيلان بعده». انظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٨/١٨٦)، والمعارف لابن قتيبة (ص ٤٨٤).

(٢) هو مؤسس مذهب التعطيل وأول من قال: إن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، كان مؤدباً لمروان الحمار آخر خلفاء بني أمية؛ لذا يقال له مروان الجعدي، قتله خالد القسري يوم الأضحى سنة أربع وعشرين ومائة، وقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، ونزل فقتله، وكان من أبرز تلاميذه الجهم بن صفوان، وبه عُرف مذهب التعطيل. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٤٣٣)، والبداية والنهاية (٩/٣٥٠)، والكامل في التاريخ (٤/٤٦٦)، والنونية بشرح ابن عيسى (٥١/٥٠/١).

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلي القسري، أمير مكة للوليد وسليمان، وأمير العراقيين لهشام بن عبد الملك، وهو من أهل دمشق، قال الذهبي عنه: «كان جواداً ممدحاً معظمًا عالي الرتبة من نبلاء الرجال، لكنه فيه نصب معروف»، توفي سنة ست وعشرين ومائة وله ستون عاماً. انظر: تاريخ دمشق (١٦/١٣٥)، ووفيات الأعيان (٢/٢٢٦)، والوفاء بالوفيات (١٣/١٥٥)، والعبر (١٦٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/٤٢٦).

(٤) انظر: تاريخ دمشق (٥٢/٢٥٥)، والوفاء بالوفيات (١١/٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٥/٤٣٢)، والبداية والنهاية (٩/٣٥٠)، وشذرات الذهب (١/١٦٩).

وَسُفْيَانٌ يَحْدُثُونَ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَلَا يُنْكِرُونَهَا». أخرج عبد الله في الرد على الجهمية^(١).

والواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس.

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها، الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً، ورد المتشابه إلى المحكم. وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان، فله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث رواه عبد الرزاق بن همام الصنعاني - الإمام الجليل من شيوخ الإمام أحمد وغيره من العلماء - عن عبد الله بن طاووس الكيساني، اليماني أيضاً، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يُحَدِّثُ النَّاسَ، وَيُدْرِّسُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لَأَنَّهُ حَبْرُ الْأُمَّةِ، وَتَرْجَمَانُ الْقُرْآنِ، فَكَانَ يَفِيضُ مِنْ عِلْمِهِ وَفَقْهِهِ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِ وَدُرُوسِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ الْغَزِيرِ، فَذَكَرَ حَدِيثًا فِي صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَانْتَفَضَ رَجُلٌ عَنْدهُ لَمَّا سَمِعَ الْحَدِيثَ؛ لَأَنَّهُ مِنَ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتَ، اسْتَنْكَرَ الْحَدِيثَ وَأَخَذَتْهُ

(١) الحديث أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٣٠١، ٣٠٢) موقوفاً على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأثر وكيع أوردته الذهبي في العلو للعلي الغفاري (ص ١٥٨).

رعدة من شدة الاستنكار والاستغراب؛ لأنه من الذين يكذبون بأسماء الله وصفاتها، فأنكر عليه عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: (مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟) الْفَرَقُ الْخَوْفُ، وهذا استفهام إنكار، أي: ما هو السبب الذي يصيب هؤلاء عندما يسمعون نصوص القرآن والسنة؟! قال: (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ)، والمحكم من النصوص: هو ما يفهم معناه من لفظه، ولا يحتاج إلى دليل آخر يفسره، والمتشابه: هو الذي لا يفهم من لفظه، ويحتاج إلى دليل آخر يفسره، كالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، العام والخاص، والمجمل والمبين.

وقاعدة أهل السنة والجماعة: أنهم يردون المتشابه إلى المحكم، فيفسرون بعض النصوص ببعض؛ لأنها كلها كلام الله، أو كلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما أهل الزيغ فإنهم يأخذون المتشابه ويتركون المحكم، ومنهم هذا الرجل الذي انتفض خوفاً لما سمع حديثاً في الصفات، ولا يحدث ذلك منه عند المتشابه. فدل ذلك على أن نصوص الصفات من المحكم الذي يُعرف معناه ويُفسر، وليست من المتشابه.

ففي هذا رد على الجهمية والمعتزلة وأضرابهم الذين يقولون: إن نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله!! وهم قسمان:

الأول: قسم يفوض نصوص الصفات، ويقول: هذا مذهب السلف، ويقول: هو أسلم وأحكم.

الثاني: قسم يؤولها عن معناها إلى معان أخرى، فيؤول اليد مثلاً بالقدرة، والوجه بالذات، ومجيء الله عَزَّجَلَّ بمجيء أمره، ونزوله بنزول أمره، يؤولونها بغير معناها؛ لأنهم لا يؤمنون بمعناها، فيلتمسون لها معنى آخر، هذا ما يُسمى بالتأويل، ويقولون: إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم!!^(١) طريقة الخلف عندهم أعلم؛ لأن السلف بزعمهم لم يتعرضوا لتفسيرها فسلموا، وأما الخلف فإنهم فسروها وأولوها، فصاروا أعلم من السلف بذلك، هذا ما يقولونه.

فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنكر على هذا الرجل وأضرابه الذين يستنكرون أحاديث الأسماء والصفات، ويخافون ويتنفضون عند ذكرها، ويهلكون عند المتشابه.

والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ثم ذكر انقسام الناس عند المحكم والمتشابه، فأهل الزيغ أخذوا المتشابه فقط: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، فأهل العلم الراسخون في العلم يردون المتشابه إلى المحكم، ويفسرون المتشابه بالمحكم؛ لأنه كلام الله، ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فيفسرون كلام الله ببعضه ببعض، وكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببعضه ببعض؛ لأن كلام الله لا يتناقض، وكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتناقض، بل يصدق بعضه بعضاً، ويفسر بعضه بعضاً.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥٧/٤)، والصواعق المرسلة (١١٣٣/٣).

وهذه هي الطريقة الصحيحة التي أثنى الله عليها، ووصف أهلها بأنهم راسخون في العلم ثابتون.

أما أهل الزيغ والضلال فيصفهم ابن عباس بقوله: (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ) يعني: خوفاً واستنكاراً، (وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ) فيأخذون المتشابه ويفرحون به، ويقطعون عما يفسره من النصوص الأخرى فيهلكون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، ومما أمر الله به أن يوصل: رد المتشابه إلى المحكم، ومن ذلك أيضاً: صلة الأرحام والأقارب، فهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، فيأخذون المتشابه ويتركون المحكم، هذه طريقة أهل الزيغ، وجاء في الحديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ وَيَتْرُكُونَ الْمُحْكَمَ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَأَحْذَرُوهُمْ»^(١).

فهؤلاء الذين يتركون المحكمات الواضحات، ويتبعون المتشابه هم أهل الزيغ والضلال الذين سباهم الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] فهذا الرجل الذي كان عند ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من هؤلاء، ينكر المحكم، ويفرح بالمتشابه، ثم يهلك بسبب المتشابه؛ لأنه يضل - والعياذ بالله - ويزيغ عن الحق.

فدل هذا على أن نصوص الأسماء والصفات ليست من المتشابه، وإنما هي من المحكم الواضح البين معناه، الذي لا يحتاج إلى تأويل بل يفسر نفسه، ويوضح نفسه.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد ذكر الشيخ أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد أثر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لئِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مَقْصُودُ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ» أَنْكُمْ لَا تَحْدُثُونَهُمْ بَأَيَّاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ آيَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَعْرُوفَةٌ وَاضِحَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَفِي السُّنَّةِ، وَلَيْسَتْ هِيَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي نَهَى عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ التَّحْدِيثِ بِهِ؛ لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَدَّثَ بِهِ، وَأَنْكَرَ عَلِيٌّ مِنْ تَوَقُّفِ عِنْدِهِ.

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنَا بِتَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ كَثِيرٌ مَا يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَلَيْسَتْ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمُحْكَمِ الْوَاضِحِ. (الرَّحْمَنُ) مَعْنَاهُ وَاضِحٌ: ذُو الرَّحْمَةِ، وَ(الْعَلِيمُ) مَعْنَاهُ وَاضِحٌ: ذُو الْعِلْمِ، وَ(السَّمِيعُ): لَهُ سَمْعٌ، وَ(الْبَصِيرُ): لَهُ بَصَرٌ، وَ(الْحَيُّ): لَهُ حَيَاةٌ، وَ(الْقَدِيرُ): لَهُ قُدْرَةٌ، وَ(الْحَكِيمُ): لَهُ حِكْمَةٌ، فَنُصُوصُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَاضِحَةٌ الْمَعْنَى، وَهِيَ مِنَ الْمُحْكَمِ الَّذِي يُعْرَفُ مَعْنَاهُ.

وَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ يَشْتَقُّ مِنْهُ صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ، وَلَيْسَتْ أَسْمَاءُ اللَّهِ أَعْلَامًا مُحْضَةً لَيْسَ لَهَا مَعَانٍ، كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزَلَةُ، بَلْ أَسْمَاءُ اللَّهِ لَهَا مَعَانٍ كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى صِفَةٍ، وَلِذَلِكَ صَارَتْ حَسَنَى، أَمَا مَجْرَدُ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَيْسَتْ لَهَا مَعَانٍ فَلَيْسَتْ حَسَنَى.

فَأَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَفْسِرُ أَثَرَ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ نُصُوصَ الصِّفَاتِ لَيْسَتْ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يُعْرَفُ فَلَا يَحْدُثُ بِهِ النَّاسُ، بَلْ هِيَ مِنَ الْمَعْرُوفِ الَّذِي تَعْرِفُهُ الْأَفْهَامُ، وَلِذَلِكَ تُدْرَسُ فِي الْمَدَارِسِ، وَفِي دُرُوسِ الْمَسَاجِدِ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْمُحْكَمِ.



وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ
فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] ^(١).

قوله: [وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا
ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية]: روى ابن جرير
عن ابن عباس قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو سَاجِدًا: يَا رَحْمَنُ
يَا رَحِيمُ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا وَهُوَ يَدْعُو مَثْنَى مَثْنَى».
فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾
[الإسراء: ١١٠] الآية ^(٢).

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

❖ قوله: (وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ
أَنْكَرُوا ذَلِكَ)، هذا في صلاته في مكة، وكذلك في الحديبية لما قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
«اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله
ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك الله، كما كنت تكتب ^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير (٤٤٥ / ١٦).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٨٠ / ١٧).

(٣) أخرجه ابن جرير (٤٤٥ / ١٦) عن قتادة: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ﴿ذَكَرْنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ صَالَحَ قُرَيْشًا كَتَبَ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ،
فَقَالَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ: لَيْتَ كُنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلْنَاكَ لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ هَذَا مَا
صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنَا
نُقَاتِلُهُمْ. فَقَالَ: لَا، اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ: إِنِّي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا كَتَبَ الْكَاتِبُ بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَتْ قُرَيْشٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَلَا نَعْرِفُهُ. وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَكْتُبُونَ: بِاسْمِكَ
اللَّهِ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنَا نُقَاتِلُهُمْ. قَالَ: لَا، وَلَكِنْ اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ».



❁ قال: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾) فدل على أن من
نفى أسماء الله وصفاته فإنه يكفر والعياذ بالله.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

الثَّالِثَةُ: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ.

الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْعِلَّةِ أَنَّهُ يُفْضَى إِلَى تَكْذِيبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكَرُ.

الخَامِسَةُ: كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لَمَنْ اسْتَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ هَلَكَ.

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله: (الأُولَى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)؛

لأن الله قال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، والكفر: عدم الإيمان، فمن جحد الأسماء والصفات فقد كفر.

❖ قوله: (الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ

بِالرَّحْمَنِ﴾ ومعناها أنهم قالوا: لا نعرف الرحمن!! والذي يقول: أنا لا أعرف الرحمن، هذا كفر، مثل الذي يقول: أنا لا أعرف الله.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ)، فيحدث الناس

بما يليق بهم، حسب ألسنانهم وحسب علمهم، يتدرج معهم شيئاً فشيئاً، أما الذين يأخذون العلم من أعلاه ويتركون مبادئه، هؤلاء يصلون إلى ضلال وجهل، إنما يؤخذ العلم من أصوله شيئاً فشيئاً، ولا يؤخذ من أعلاه.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْعِلَّةِ أَنَّهُ يُفْضَى إِلَى تَكْذِيبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكَرُ) ولو لم يتعمد المنكر بسبب الجهل؛ لأنه سيكون السبب في تكذيب الله ورسوله، لأنه حدث عوام الناس وجهالهم بما لا تحتمله عقولهم.

❁ قوله: (الْخَامِسَةُ: كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لَمِنْ اسْتَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ هَلَكٌ) الذي يُنْكَرُ المحكم، ويأخذ بالمتشابه، هذا هالك؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾، وهذا ما نخشاه على المتعالمين والمبتدئين في طلب العلم، أنهم إذا وجدوا حديثاً أخذوه وحدثوا به، دون أن ينظروا هل هذا الحديث صحيح أم غير صحيح؟ هل هذا الحديث منسوخ أم غير منسوخ؟ هل هذا الحديث معارض بغيره أم غير معارض؟ هل هو مطلق أم مقيد؟ وطريقة أهل العلم إنهم يتثبتون في الأمور، ولا يحدثون الناس إلا بما صح عندهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٤٠- بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ -مَا مَعْنَاهُ-: (هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثَتُهُ عَنْ آبَائِي).

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ الآية]: قال ابن جرير: فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة. فذكر عن سفيان، عن السدي: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١). وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله عَزَّجَلَّ ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وأخرج عن مجاهد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال: هي المساكن والأنعام، وما يرزقون منها، والسرابيب من الحديد والثياب، يعرف هذا كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا فورثونا إياه^(٢).

... — الشَّبَحُ — ...

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾)، هذه آية من سورة النحل قبلها قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾ ٨٢ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٧/١٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٨/١٤).

الْكَافِرُونَ ﴿ [النحل: ٨٢-٨٣]، هذه السورة ذكر الله عَزَّجَلَّ فيها أنواعاً من النعم التي أنعم بها على عباده، ذَكَرَهُمْ بها من أجل أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، ومن أجل إبطال عبادة غير الله عَزَّجَلَّ؛ لأن هذه النعم كلها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو المستحق للعبادة، وأما هذه المعبودات من دونه فليس لها شيء من هذه النعم.

وأول هذه النعم وأعظمها: إرسال الرسل: ﴿ يُنْزِلُ الْمَلَكُ الْكِتَابَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢٠]، ثم عدد الله تعالى بعدها النعم الكثيرة - ولذلك تسمى هذه السورة: سورة النعم، ثم قال بعد ذكر هذه النعم: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

فهذا الباب عقده المصنف لبيان أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية، وكلها أقوال متفقة؛ لأن الآية عامة، وكل ما قيل في تفسيرها عن السلف فإنه حق.

فقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ ﴾ أي: الكفار والمشركون ﴿ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ في المراد بنعمة الله أقوال:

الأول: أن المراد بها هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعثته أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض عمومًا، وعلى المؤمنين خصوصًا.

الثاني: أن المراد بالنعمة جميع ما ذكره الله في هذه السورة؛ لأن المفرد إذا أضيف يعم، فيكون معنى الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله، ﴿ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا﴾ أي: يعرفونها في قلوبهم وفي قرارة أنفسهم وينكرونها بألسنتهم، فمنهم من يقول: هذه من عند أصنامنا، أو من عند آبائنا، أو هذه بحولنا وقوتنا، أو ما أشبه ذلك، فيضيفونها إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ:

إما إلى آبائهم وأجدادهم، كقول القائل: ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.

أو إلى أصنامهم، فينسبون إليها نعمة الولد، وإنزال المطر، وشفاء المريض، ونحو ذلك.

أو إلى كدهم وكسبهم هم، فيقولون: ما حصل لنا هذا إلا بمعرفتنا وحذقنا وكدنا؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، أي: على معرفة مني بوجوه المكاسب.

وأيًا كان وجه إضافة النعمة إلى غير الله، فإنه كفر بنعمة الله، وهو كفر بالربوبية وشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم جعلوا هذه الأشياء مشاركة لله في خلقه، فهي كفر وشرك.

فهذه الآية ساقها المصنف في هذه الترجمة؛ لأن نسبة النعم إلى غير الله تنقص للرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وشرك يخل بالتوحيد وينقصه، وقد يضاد التوحيد، فمن اعتقد أن هذه النعم من صنع غير الله وخلق غير الله فقد كفر كفرًا أكبر، وإن اعتقد أن هذه أسباب فقط، وأنها أثرت في إيجاد هذه النعم، فهذا شرك أصغر، فعلى كل حال إضافة النعم إلى غير الله شرك إما أكبر وإما أصغر.

والواجب أن تضاف النعم إلى الله عَزَّجَلَّ، وأن يُشكر عليها، ويحمد عليها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن من أضافها إلى غير الله لم يشكر الله ولم يحمد الله، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ويقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، فشكر النعمة عبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكفرها شرك بالله عَزَّجَلَّ.

فهذه مسألة عظيمة قد يقع فيها كثير من الناس؛ كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر الباب، فيجب التنبه لها.

❁ وقوله: (قَالَ مُجَاهِدٌ - مَا مَعْنَاهُ -: (هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثَتُهُ عَنْ أَبِي)) هو مجاهد بن جبر التابعي الجليل، من تلاميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد أشرنا إلى معنى قوله فيما سبق، وأن الرجل بدل أن يقول: هذا مالي أعطاني الله إياه وتفضل به علي، يقول: ورثته عن أبيائي، فيجعل الفضل لآبائه ولا يجعل الفضل لله عَزَّجَلَّ.



وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: (يَقُولُونَ: لَوْلَا فَلَانٌ مَا كَانَ كَذَا) ^(١).

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: (يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا) ^(٢).

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ -بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...» الْحَدِيثِ ^(٣)، وَقَدْ تَقَدَّمَ-: (وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضَيِّفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْمَلَأُ حَادِقًا. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ) ^(٤).

قوله: [وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: (يَقُولُونَ: لَوْلَا فَلَانٌ مَا كَانَ كَذَا)]: عون

بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبد الله، الكوفي الزاهد، عن أبيه وعائشة وابن عباس، وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقه أحمد وابن معين. قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة.

واختار ابن جرير القول الأول ^(٥)، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره

العلماء في معناها، وهو الصواب ^(٦).

قوله: [وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضَيِّفُ إِنْعَامَهُ إِلَى

غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٨/١٤).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/٤٧٩)، وشفاء العليل (ص ٣٦).

(٣) سبق تخريجه (٤٧٤/٢).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٣٣).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥٨/١٤).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٣٣، ٣٤).

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْمَلَأُ حَذِيقًا. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ]. انتهى. وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله، وأسند أسبابها إلى غيره، مما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا، وذلك من أنواع الشرك كما لا يخفى.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: (وَقَالَ عَوْنٌ) هو: عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، الإمام الجليل، (يقولون: لَوْلَا فَلَانٌ مَا كَانَ كَذَا)، فأضافوا النعمة إلى فلان، وأنه لولاه ما حصلت، وهذا كفر بالنعمة، وكان الواجب أن يُقال: لولا الله ما حصل كذا وكذا؛ لأنه سبحانه هو الذي أنعم بها، وإذا كان ولا بد أن يُجعل لفلان شيئاً من الذكر، فيقال: لولا الله ثم فلان. كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فَلَانٌ»^(١). أما أن يُقال: لولا فلان لم يحصل كذا. هذا لا يجوز. أو يُقال: لولا الله وفلان. هذا أيضاً لا يجوز.

أما قول: لولا الله ثم فلان. فهذا لا بأس به؛ لأن فلاناً جعل تابعاً لا مؤثراً. فهذا يبين وجوب تحري الدقة في الألفاظ، وأن العبد ينبغي عليه ألا يتلفظ بلفظ غير صحيح يؤثر على عقيدته.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٢٤٥ / ٦)، وابن ماجه (١٠٨٢١)، واحمد في المسند (٣٨٤ / ٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٠ / ٥)، والبيهقي في الكبرى (٢١٦ / ٣) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قوله: (وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: (يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آهْلِنَا) ابن قتيبة إمام جليل من أئمة أهل السنة، وله مؤلفات عظيمة، ويلقبه العلماء بخطيب أهل السنة؛ لفصاحته وبلاغته، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة، فالإمام ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ يفسر هذه الآية بأنهم يقولون: (هَذَا بِشَفَاعَةِ آهْلِنَا)، أي: ينسبون النعمة إلى الأصنام، ويقولون: هذه النعم حصلت بشفاعة آهلتنا عند الله؛ لأنهم يعبدونها ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فيزعمون أن هذه الأصنام شفعت لهم عند الله فحصلت لهم هذه النعم!! هذا قول المشركين، ولا يقولون: هذه النعم من الله، وليس لأحد فيها تدخل، وإنما هي من الله هو الذي تفضل بها، ويحمدونه عليها ويشركونه عليها، لا يقولون هذا، وإنما يشكرون هذه الأصنام التي شفعت لهم عند الله بزعمهم، فحصلت لهم هذه النعم.

❁ قوله: (وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية، يكنى بأبي العباس (بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...»)، تقدم هذا الحديث في باب الاستسقاء بالنجوم، وذلك أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى بأصحابه صلاة الصبح في الحديبية - موضع قريب من مكة - «عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ»، أي: مطر نزل في الليل، والمطر نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ كَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ:

مُطَرَّنًا بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرَّنًا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ»^(١)، فهذا الحديث صريح في أن من نسب النعم إلى غير الله فإنه يكون كافرًا بالله، والمراد: كفر النعمة، وليس الكفر الأكبر المخرج من الملة، وكفر النعمة كفر أصغر لا يخرج من الملة، لكنه خطير.

❁ قال شيخ الإسلام: (وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُصَيِّفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ) أي: هذا كثير وروده في الكتاب والسنة، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذُمُّ مَنْ نَسَبَ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ.

والواجب أن تضاف النعم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويحمد ويشكر عليها، ولا تضاف إلى غيره. وهذا ورد في معناه حديث قدسي، يقول الله عَزَّوَجَلَّ فيه: «إِنِّي وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ، أُخْلِقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكُرُ غَيْرِي»^(٢).

❁ قوله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْمَلَأُحُ حَازِقًا. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ) يعني: إذا مشوا في البحر، وهذا من آيات الله أن تجري السفن والمراكب على الماء وترسو عليه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢]، أي: كالجبال ولا تغوص في الماء، سخر الله هذا البحر يحملها كما سخر الهواء الآن أن يحمل

(١) سبق تخريجه (٢/ ٤٧٤).

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٩٣)، والبيهقي في شعب الإيثار (٤/ ١٣٤)، والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦٦) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الطائرات المشحونة بالركاب والأمتعة، ولو شاء لسلط على السفن أمواج البحر فأغرقتها، ولو شاء لأسكن الريح فتوقفت عن السير، كل هذا بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالواجب على العبد أن يشكر الله على ذلك، قال عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]. ذلك أن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اقتضت أن ينجيهم، وأن ينقذهم من هذا الخطر، فكان الواجب أن يشكروا الله عَزَّجَلَّ، لكنهم يسندون هذا إلى غير الله، فيقولون: كانت الريح طيبة غير عاصفة فتحركت السفينة، وكان الملاح - وهو قائد السفينة - حاذقاً، أي: ماهراً في قيادة السفينة، فيضيفون هذا إلى الريح وإلى حذق الملاح، ولا ينسبونه إلى الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يشكروه على ذلك.

وهذا عجائب بني آدم، أنهم أضافوا هذه النعمة إلى الأسباب، ولم يضيفوها إلى مسبب الأسباب، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من كفر النعمة والعياذ بالله.

وهذا يجري على ألسنة كثير من الناس - كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فكثير من الناس يضيف النعم إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى الله، وهذا خطر عظيم يجب التنبه له، ويجب على الإنسان أن ينزه لسانه عن مثل هذا الكلام الذي فيه شرك وفيه كفر وهو لا يدري.

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن ذلك عام في جميع النعم التي ينعم الله بها على عبادة، مما ذكر في هذه السورة وما ذكر في غيرها، والنعم لا تحصى ولا تعد، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: ٢٠]، فالنعم لا تحصى، منها ما يعرف ويظهر، ومنها ما لا يظهر، والواجب على المسلم أن يشكر الله على نعمه، وألا يضيفها إلى غيره.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النُّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا.
 الثانية: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ.
 الثالثة: تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَارًا لِلنُّعْمَةِ.
 الرابعة: اجْتِنَاعُ الضَّادِينَ فِي الْقَلْبِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النُّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا) أي: ما معنى معرفتهم لنعمة الله؟ المعرفة في القلوب، فهم يعرفونها في قلوبهم، ويقولون بها في قلوبهم؛ لأن كل عاقل يعرف أنه لا أحد يقدر على الخلق والرزق والإحياء والإماتة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا تقر به الفطر والعقول، وأن ما سوى الله فهو عاجز عن الخلق والتدبير، ولكنهم بألسنتهم وأفعالهم يكفرون هذه النعم، ولهذا يقول العلماء - كما ذكر ابن القيم في كتابه «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: إن أركان الشكر ثلاثة:

الركن الأول: التحدث بالنعم ظاهراً؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، فتشكر الله بلسانك على هذه النعم، تضيفها إلى الله، وتعترف أنها من الله عَزَّوَجَلَّ، لا بد أن تنطق بلسانك.

الركن الثاني: لا يكفي التحدث باللسان، بل لا بد أن تعترف بقلبك أن هذه النعم من الله وحده، لا بحولك ولا بقوتك، ولا بحول فلان ولا علان، ولا لأي أحد تدخل فيها.

الركن الثالث - وهو مهم جداً -: أن تستعين بهذه النعم على طاعة الله، وتصرفها في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن صرفتها في معصية الله، واستعنت بها على معصية الله، فهذا كفر للنعمة، فالذي يصرف نعم الله في الخمر، ويصرفها في الزنا، والمحرمات، واللغو واللعب، والأسفار المحرمة، هذا قد كفر بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه استعان بنعمة الله على معصية الله عَزَّوَجَلَّ. أما الذي يصرفها في طاعة الله، فيخرج زكاتها، ويتصدق منها على الفقراء والمحتاجين، وينفق منها في طاعة الله، فيبني بها المساجد، والمدارس، ويسخرها في مصالح المسلمين، ويعين بها المحتاجين، وينفقها في الجهاد في سبيل الله، فهذا قد شكر نعمة الله.

❁ قوله: (الثانية: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ)، هذا قول شيخ الإسلام أن كفر النعمة يجري على ألسنة الكثير من الناس في تعبيراتهم وأقوالهم، فيقول القائل: لولا فلان ما حصل كذا، وفلان هو الذي ببركاته حصلت هذه النعمة! ولا يذكر الله أبداً، إنما يذكر مجهودات فلان، وبركات فلان، وأفعال فلان، فهذا كفر بالنعمة.

والواجب أن يقول: هذا من فضل الله، ولا مانع ينسب الجهد إلى أهله ويشكرهم عليه؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ»^(١)، ولكن لا يقتصر على شكر فلان، وينسى الله عَزَّوَجَلَّ، بل يقول: لولا الله ثم فلان. هذا هو المنهج السليم.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وأحمد في المسند (٢/٢٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٦/٦) من حديث أبي هريرة

❦ قوله: (الثَّالِثَةُ: تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَارًا لِلنِّعْمَةِ) تسمية هذا الكلام، وهو: لولا فلان لم يحصل كذا، أو كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا، وما أشبه ذلك من الألفاظ، فيجب على المسلم أن يعدل ألفاظه، ولا يطلق لسانه في مثل هذه الكلمات، فإذا قال: لولا فلان ما حصل كذا، أو كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا فقطعنا البحر وخرجنا بسلام، وما أشبه ذلك، فإن هذا الكلام كفر بالنعمة، وإن لم يكن كفرًا أكبر يخرج من الملة، فهو كفر أصغر.

والمشركون الأولون كانوا إذا وقعوا في الخطر في البحر يخلصون الدعاء لله عَزَّوَجَلَّ؛ لعلمهم أنه لا يُنْجِي من الشدائد إلا الله، لكن المشركون المتأخرون في وقتنا هذا إذا وقعوا في الشدة في البحر، فإنهم ينادون الموتى، ويستغيثون بالأولياء والصالحين، كما هو معلوم عنهم، يهتفون بأسماء الذين يعبدونهم من دون الله، يا فلان، يا فلان!! فصاروا أشد وأغلظ شرًا من الأولين والعياذ بالله؛ لأن الأولين كانوا يخلصون في الشدة، وهؤلاء يزيد شركهم في الشدة عن شركهم في الرخاء، ويزعمون أن الأولياء ينجونهم في السفر من أخطار البحار، والطواغيت يلقنونهم هذه الأمور، ويقولون لهم: إذا وقعت في الشدة اهتفوا بفلان، فإنه ينقذك.

ويذكر أن بعض الطواغيت كان عنده مريدوه، فخرج من عندهم، وجاء مبلىل الأكمام بالماء، فسألوه، قال: إن ناسًا في البحر هتفوا بي لما أشرفوا على الغرق، وإني أنقذت سفيتهم فأصاب أكمامي شيء من ماء البحر!! وهذا من الكذب والتدليس على الناس، كيف وهو في بيته يدخل يديه إلى البحر

وينقذ السفينة بركاها؟! هذا من التدليس والكذب، لكنهم مع هذا، صدقوه وعظموه.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: اجْتِمَاعُ الضَّادِّينَ فِي الْقَلْبِ) وهما: المعرفة والإنكار؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾، وهذا من العجيب أن يجتمع فيهم كفر وإيمان، وإنكار واعتراف، هذا من التناقض، والمؤمن لا يكون متناقضًا.



٤١- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾]،
 الند: المثل والنظير، وجعل الند لله: هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير
 الله؛ كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع
 عنهم، ويشفع لهم، قال عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
 قال العماد ابن كثير في تفسيره: (قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
 أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس،
 وقتادة، والسدي، وأبو مالك، وإسماعيل بن أبي خالد)^(١).

... — الشَّبَحُ — ...

✽ قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا
 وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾) أي: ما جاء في تفسير هذه الآية، وأنها شاملة للنهي عن
 الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

لما أمر سبحانه بالتوحيد في أول الآية قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ
 الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
 فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا
 تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، وهذه القاعدة في القرآن

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩).

الكريم وفي السنة النبوية، أنه إذا جاء الأمر بالتوحيد فإنه يأتي بعده النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد لا يتحقق إلا بترك الشرك، وعبادة الله لا تصح إلا بترك الشرك.

وهذا الأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى جميع الخلق: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ هذا عام لجميع الخلق، ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ هذا في توحيد الألوهية، وهو توحيد العبادة، وقال: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ لأن الرب هو الذي يستحق العبادة، والرب معناه: المربي لجميع الخلق بنعمه وورزقه ووحيه وإرسال رسله، كل هذا يدخل في معنى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فالذي يستحق العبادة هو الذي يخلق، أما الذي لا يخلق فإنه لا يستحق شيئاً من العبادة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، فالذي لا يخلق لا يستحق العبادة، وجميع المعبودات التي تُعبد من دون الله كلها لا تخلق، حتى أحقر الأشياء، قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، لا يخلقون ذباباً، فكيف بما هو فوق ذلك؟! فالذي يستحق العبادة هو الذي يقدر على الخلق.

ولهذا تحدى الله المشركين الذين يعبدون من دون الله أن يبينوا ماذا خلقت آلهتهم، لما ذكر سبحانه مخلوقاته في أول سورة لقمان، قال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ

فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴿١١﴾، وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤]، فلا يقدر أي مشرك أن يدعي أن معبوده يخلق شيئاً، وما دام كذلك، فإن الشرك يبطل من أساسه؛ لأن العاجز لا يُعبد، إنما يُعبد القادر على الخلق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾﴾ إذا تذكرتم أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي خلقكم ومن قبلكم، وأنه لا خالق غيره، فإنكم تتقون عذابه بعبادته وحده، ولا تشركون به شيئاً.

قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴿٢﴾﴾ أي: ممدودة وممهدة، تنامون عليها، وتجلسون عليها، وتسировن عليها، وتزرعونها، وتدفنون فيها، وتخرجون منها، فهي فراشكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿٣﴾﴾ أي: سقفاً فوق الأرض فيها الكواكب والأفلاك، وفيها الملائكة، وفيها ما لا يعلمه إلا الله من العوالم.

قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٤﴾﴾ أي: من السحاب ﴿مَاءً ﴿٥﴾﴾ وهو المطر الذي تحيي به الأرض، وتنبت النبات، وهذا المطر نعمة من الله عَزَّجَلَّ إذا حبسه فلن يستطيع أحد أن ينزله، مهما بلغت قوة البشر لن يستطيعوا أن ينشئوا السحاب، وأن يمتطروا المطر؛ لأنه من خلق الله وإرادته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم أيضاً البراري القاحلة البعيدة، التي ليس فيها ماء، ولا حولها مياه، يسوق الله عَزَّجَلَّ إليها السحاب فتمطرها فتنبت، وتمسك الماء فيشرب الناس،

من الذي فعل هذا؟ هل فعلته الأصنام؟! هل فعلته القبور والأضرحة؟!
حاشا وكلا، إنما أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا شاء حبسه.

❁ قوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ جميع الثمرات والنباتات بأنواعها وأشكالها التي لا يعلمها ولا يحصرها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تنبت من ماء واحد، ومن تربة واحدة، وهي مختلفة في الطعوم والروائح والألوان، من الذي خلقها؟ لا أحد ينكر أن الله سبحانه هو الذي خلقها وفاوت بينها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤]، من الذي فاوت بينها وفرق بينها، مع أن الماء واحد والتربة واحدة؟ هذه قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يمنع النبات أن ينبت، ويمنع الأشجار أن تثمر، فمن أين يأكل الناس؟ لكن بقدرته ورحمته أنبت الأشجار وأخرج الثمار للناس.

لما ذكر الأدلة على توحيده نهى عن الشرك، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، والأنداد: جمع ند، وهو الشبيه والنظير والعديل، لا أحد يشابه الله، ولا أحد يعادل الله، ولا أحد يماثل الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف تجعلون له أمثالا وشبهاء ونظراء لا يساونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ذلك لأن في الشرك تسوية المخلوق العاجز بالخالق القادر، وهذا من أبطل الباطل.

هذه براهين عقلية، وهم يعترفون بها، يعترفون أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق الرازق الذي يحيي ويميت، وهو الذي ينزل المطر، يعترفون بهذا كله ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يقدر على شيء، وهذا من انتكاس الفطر وذهاب العقول.

﴿ فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢] هذا خطاب للمشركين الذين يعلمون أن هذه الأشياء لا يقدر عليها إلا الله، فكيف يعبدون معه غيره؟! وكيف يسوون به غيره ممن هو عاجز وفقير ومحتاج؟ لكنها فطر منحرفة وعقول فاسدة.

فالله أقام عليهم الحجة بما يعترفون به، وهو توحيد الربوبية، أقامه حجة وبرهاناً على توحيد الألوهية، وهذه طريقة القرآن في سوق الأدلة على التوحيد، براهين عقلية وبراهين قاطعة ساطعة ليس فيها غموض، لكن أين العقول التي تفكر؟! يحكمون العادات والتقاليد على البراهين، وهذا من أعجب العجب، ويصدقون دعاة الضلال وشياطين الإنس والجن الذين يدعون إلى الشرك، ويكذبون الأنبياء والرسل الذين يدعون إلى التوحيد، فيتبعون دعاة الشرك، ويتركون دعاة التوحيد، هذا من انتكاس الفطر وذهاب العقول.

ثم يأتي من يقول: هؤلاء الذين يعبدون القبور جهال!! سبحان الله! هذا القرآن بين أيديهم وبهذا الوضوح وبهذا البيان، وهم يقرؤونه ويسمعونه ليل نهار، فكيف يكونون جهالاً؟! وإذا كانوا جهالاً فمتى يعلمون، والقرآن



واضح في هذا؟! لا شك أن هذا من انتكاس الفطر وذهاب العقول، والجهل إنما كان قبل بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد البعثة ونزول القرآن، وانتشار الدعوة في أرجاء المعمورة، فقد زال الجهل، ولم يبق إلا العناد أو التجاهل، وهذا ليس بحجة ولا عذر.



قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: «الْأَنْدَادُ هُوَ الشَّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي. وَتَقُولَ: لَوْ لَا كُتَيْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللَّصُوصُ، وَلَوْ لَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللَّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْ لَا اللَّهُ وَفُلَانُ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شَرْكٌ». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١).

وقال ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد، التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه (٢).

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل (٣).

قوله: [قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: «الْأَنْدَادُ هُوَ الشَّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ... الخ.. وهذا من ابن عباس تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حبر الأمة وترجمان القرآن فسر الأنداد بأنه الشرك، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: لا تشركوا به أحداً، فهم ليسوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٢ / ١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٦٤ / ١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٢ / ١).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٦٤ / ١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٢ / ١).

شركاء الله ولا أنداداً لله، لكن أنتم الذين جعلتموهم أنداداً، وادعيتهم لهم هذا. وسبق أن بينّا أن الشرك ينقسم إلى قسمين:

الأول: شرك أكبر وهو شرك ظاهر، مثل: عبادة الأصنام، وعبادة الأشجار والأحجار والقبور، وذلك بالذبح لهذه الأشياء، والنذر لها، والاستغاثة بها، هذا شرك ظاهر واضح، وشرك أكبر يخرج من الملة؛ لأنه صرف العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثاني: شرك أصغر، وهو خفي، سمي خفياً لأنه يخفى على الناس ويتساهلون به، وإن كانوا مسلمين، وإن كانوا موحدين، لكنهم يخفى عليهم.

والشرك الخفي نوعان:

الأول: شرك في الألفاظ، مثل: الحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، وما أشبه ذلك، هذا شرك ليس معه نية، وإنما هو شرك لفظي فقط.

الثاني: شرك في النوايا والمقاصد، وهو الرياء والسمعة؛ لأنه في القلوب لا يعملها إلا الله.

ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن هذا النوع من الشرك الذي هو الشرك الأصغر: (أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةِ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ)؛ لأن الناس لا يعرفونها ويتساهلون بها، وهم مسلمون وموحدون، لكن قد يتلفظون بهذه الأشياء، أو يكون عندهم رياء في قلوبهم. وهذا هو الذي

خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه، وقال: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ». فَسُئِلَ عَنْهُ. فَقَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ»^(١). فهذا يقع من المسلم الموحد، وهو خطير؛ لأنه يجر إلى الشرك الأكبر، فيجب معرفته؛ لأجل تجنب الألفاظ التي فيها شرك، وتجنب النيات والمقاصد التي فيها شرك.

أما الشرك الأكبر فهذا لا يقع من مسلم، وإن ادعى الإسلام فهو غير مسلم، الذي يدعي أنه مسلم وهو يعبد القبور ويستغيث بالأموات هذا ليس بمسلم؛ لأنه مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة.

لكن الشرك الأصغر يحصل من أهل التوحيد والإيمان، فلذلك يجب عليهم أنه يحذروه؛ لأنه أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاة سوداء في ظلمة الليل، سواد في سواد، هذا تمثيل لحفاء هذا الشرك على كثير من الناس، الذين يتساهلون به ولا يلقون له بالاً، فيجب الحذر منه لأنه يجر إلى الشرك، وهو وإن كان شركاً أصغر فهو أكبر من الكبائر كما سيأتي.

ثم مثل لبعض الألفاظ التي يتساهل فيها الناس، وهي من الشرك الأصغر الخفي، فقال: (وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي) إذا اقتصر على الحلف بالله عَزَّجَلَّ هذا صحيح، لكن أن يقول: وحياتك، وحياتي، فتارة يحلف بالله، وتارة يحلف بحياة المخلوقين، هذا شرك، سواء حلف بحياته أو حياة المخاطب كله شرك.

قال: (وَتَقُولُ: لَوْلَا كُلِّيْبُهُ هَذَا لَا تَأَنَّا اللَّصُوصُ) يعني: يسندون الأشياء إلى الأسباب، فلا شك أن الكلب حارس يُتخذ للحراسة، وأنه ينبه على مجيء اللصوص، لكن ليس هو الذي منع اللصوص من السطو، الذي منعهم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما الكلب سبب. أحياناً يكون عند الرجل عشرة كلاب أو مائة كلب، ولا يمنع ذلك اللصوص من السطو عليه إذا قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك، فليست الكلاب وحدها هي التي تحرسك، وإنما هي سبب، قد تنفع وقد لا تنفع، فيجب على العبد أن يُعلق قلبه بالله عَزَّجَلَّ.

قال: (وَلَوْلَا الْبُطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللَّصُوصُ) وكذلك يتخذون البط، أو البيغاوات، أو أنواعاً من الطيور تصدر أصواتاً إذا استكرت أحداً، فينبه صاحب البيت بسبب ذلك، فهي فيها فائدة لا بأس، لكن لا تسند إليها سلامتكم من اللصوص، إنما تسندها الله عَزَّجَلَّ هو الذي حفظك، وهو الذي دافع عنك، فأحياناً يُسرق الإنسان وعنده بط وغيره من الطيور، إذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقدر له أن يُسرق.

قال: (وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ) كذلك التشريك في المشيئة بقول: ما شاء الله وشئت، وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قول ذلك، وقال: عدل هذا فقال: «هُوُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»^(١)، فتقدم مشيئة الله عَزَّجَلَّ، ثم تأتي بـ (ثم)؛ لأنها تقتضي الترتيب والتعقيب، أما الواو فهي لمطلق الجمع، لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، وإنما تقتضي التشريك، فقول القائل: جاء

فلان وفلان، أي: اشتركا في المجيء، ولا ميزة لأحدهما على الآخر في التقدم أو التأخر، لكن لو قال: جاء فلان ثم فلان، علمنا أن مجيء أحدهما سبق مجيء الثاني، ولم يحصل بينهما اشتراك في المجيء، هذا مقتضى اللغة.

كذلك في المشيئة، تقول: ما شاء الله ثم شئت؛ لأن العبد له مشيئة، لكنها لا تكون إلا بعد أن يشاء الله عَزَّجَلَّ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وفي هذا ردُّ على الجبرية الذين يقولون: إن العبد ليس له قدرة ولا مشيئة، وأفعاله إنما هي كحركة المرتعش، أو كالريشة في مهب الريح، أو بمنزلة حركة أغصان الشجر.

وما أحسن قول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حين يصف مذهب الجبرية في نفي مشيئة العباد، حيث يقول^(١):

فَالْجَبْرُ يُشْهِدُكَ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا مِثْلَ ارْتِعَاشِ الشَّيْخِ ذِي الرَّجْفَانِ
لَا فَاعِلَ أَبَدًا وَلَا هُوَ قَادِرٌ كَالْمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ

لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثبت للعباد مشيئة، في قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لكن لا تجمع بين مشيئة المخلوق ومشيئة الخالق بالواو بقولك: ما شاء الله وشئت؛ لأن في هذا إشراك للمخلوق مع الخالق، ولكن قل: ما شاء الله ثم شئت، أو ما شاء الله ثم شاء فلان؛ لأن (ثم) تفيد الترتيب والتعقيب.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١١٦/٢).

❁ قال: (وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ) الصحيح أن تقول: لولا الله ثم فلان، ولا تجمع بين الله وبين فلان بالواو؛ لأن هذا يقتضي التشريك، وفلان هذا سبب من الأسباب قد ينفع وقد لا ينفع، ولكن تحصيل النتائج هو من الله عَزَّجَلَّ.

❁ قال: (لَا تَجْعَلْ فِيهَا فَلَانًا) أي: لا تجعل في هذه الألفاظ فلانًا بالواو، ولكن اجعل (ثم)، أو قل: ما شاء الله، أو: لولا الله، ويكفي هذا، لكن إذا كان ولا بد أن تذكر فلانًا، فأنت بـ (ثم)؛ لأنها تفيد الترتيب والتعقيب، وليس فيها إشراك.

❁ قال: (هَذَا كُلُّهُ بِهِ شَرِكٌ) أي: شرك بالله عَزَّجَلَّ في الألفاظ.



وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ^(١).

قوله: [وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ»]: يحتمل أن يكون شكاً من الراوي، ويحتمل أن تكون (أو) بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من باب كفر دون كفر.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (عَنْ عُمَرَ) الصحيح أنه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❁ قوله: «فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ» يحتمل أن الراوي شك: هل قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَفَرَ»، أو قال: «أَشْرَكَ»؟ ويحتمل أن هذا أصل الحديث، وأن الحالف بغير الله يحصل منه الأمران: الكفر والشرك، لكنه شرك أصغر وكفر أصغر لا يخرجان من الملة، إلا إذا عَظَّمَ المخلوق مثلاً يعظم الخالق، فحينئذ يكون شركاً أكبر، مثل ما عليه عباد القبور، فإنهم يحلفون بالله ويكذبون، ولكن لا يحلفون بالقبور إلا وهم صادقون؛ لأنهم يخافون من القبور أن تصيبهم بسوء، فإذا قيل له: احلف بالله بادر إلى الحلف، وإذا قيل له: احلف بمن تعظمه من الموتى - كالبدوي أو الحسين - ينتفض ولا يستطيع أن يتكلم؛ لأنه يخشى أن يصيبه بأذى، فهذا شرك أكبر بلا شك.

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والتِّرْمِذِيُّ (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (١٢٥/٢)، والحاكم في المستدرک (٦٥/١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهنا قد يرد سؤال، وهو: كيف يمكن الجمع بين ما جاء في بعض الأحاديث من الحلف بغير الله، كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنَّ صَدَقَ»^(١)، وبين قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ»؟

أجاب عنه العلماء بجوابين:

الأول: أن هذا الحديث وأمثاله لا يُقصد به اليمين، وإنما هو مما يجري على الألسنة من غير قصد اليمين.

الثاني: أن هذا كان قبل النهي، فكان في الأول يجوز الحلف بغير الله، وبعد ذلك نُهي عن الحلف بغير الله، فقلوه: «أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ» وأمثاله يكون منسوخاً بالنهي عن الحلف بغير الله، وهذا هو الراجح إن شاء الله.

والشاهد من الحديث للترجمة: أن الحلف بغير الله من اتخاذ الأنداد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ النَّدَّ معناه: النّظير والسّيّبه، فالذي يحلف بغير الله يجعل المحلوف به ندّاً لله وشبيهاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



(١) أخرجه مسلم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»^(١).

قوله: [وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»]: ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر، وإن كان أصغر كما تقدم.

... — الشَّبَحُ — ...

الحلف بالله كاذبًا كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه كذب، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيُصْدَقْ»^(٢)؛ لأن من تعظيم الله عَزَّجَلَّ ألا يحلف به وهو كاذب، فالحلف بالله كاذبًا سيئة وكبيرة من كبائر الذنوب، لكنه أخف من سيئة الشرك التي هي الحلف بغير الله، فهما سيئتان، لكن الأولى سيئة عمل، والثانية: سيئة شرك، وسيئة الكذب أخف من سيئة الشرك. فهذا يدل على أن الشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب، أكبر من الكذب.

فابن مسعود من فقهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أن الحلف بالله كاذبًا أحب إليه من أن يحلف بغير الله. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (لأن الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله توحيد، وتوحيد معه كذب خير من شرك معه صدق)^(٣)، فإذا قارنت بينهما وجدت أن سيئة الكذب أخف من سيئة الشرك، هذا وجه

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٤٦٩)، والطبراني في الكبير (٢/ ٨٩٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٤٦٦)، والبيهقي في الكبرى

(١٠/ ١٨١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٨١).



.....

قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا يعني ذلك أن يتساهل الإنسان في الحلف بالله كاذبًا؛ لأن الكذب من كبائر الذنوب، لكن هذا من باب المقارنة لأجل بيان عظم أمر الشرك بالله، وأنه ذنب لا يعدله ذنب.



وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

قوله: [وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»]: وذلك لأن العطف بالواو يقتضي المساواة؛ لأنها في وضعها لمطلق الجمع، بخلاف الفاء و(ثم)، وتسوية المخلوق بالخالق بكل نوع من العبادة شرك، وهذا ونحوه من الشرك الأصغر.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

هذا توجيه من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونهى عن العطف بالواو بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق، وأمر بالعطف بـ (ثم)؛ لأن الواو تقتضي التشريك والمساواة، وأما (ثم) فإنها تقتضي الترتيب والتعقيب، وبذلك يبعد الإنسان عن الشرك؛ لأن العبد له مشيئة، ولكن مشيئته بعد مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فهذه الآية تصدق قول القائل: «ما شاء الله ثم شئت».

فالحمد لله الذي جعل لنا بدائل صحيحة نتخاطب بها، وتغنينا عن الألفاظ الشركية، وهذا يوجب على المسلم أن يتعلم التوحيد وأنواعه،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٢٤٥ / ٦)، وابن ماجه (١٠٨٢١)، واحمد في المسند (٣٨٤ / ٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٠ / ٥)، والبيهقي في الكبرى (٢١٦ / ٣).

ويتعلم الشرك وأنواعه، حتى يتبع التوحيد ويتجنب الشرك، فلا تكفي معرفة التوحيد بدون معرفة الشرك، بل لابد من الأمرين، والله عزَّ وجلَّ يقول:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ويقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، لابد أن تعرف الطاغوت، وتعرف الكفر، وتعرف الإيمان بالله، ولا يكفي أن تعرف الحق فقط، بل لابد أن تعرف أيضًا ما يضاد الحق من أجل أن تتجنبه.



وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فَلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ»^(١).

قوله: [وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فَلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ»]: إبراهيم: هو النخعي، وهذا فيما يقدر عليه الحي الحاضر، بخلاف من ليس كذلك، ممن لا يسمع كلاماً، ولا يرد جواباً؛ كالأموات والغائبين.

... — الشَّبَحُ — ...

إبراهيم النخعي: هو أحد كبار التابعين من تلاميذ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان رَحِمَهُ اللَّهُ يكره أن يقول: (أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ)، والكرهية عند السلف معناها التحريم، أما عند المتأخرين فإن الكراهية يُراد بها كراهية التنزيه.

وإبراهيم النخعي من التابعين، فهو يريد بالكراهية التحريم، كان يكره أن يقول: (أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ) والعود: هو الالتجاء، فعندما تخاف من عدو فإنك تلتجئ إلى الله، وتقول: أَعُوذُ بِاللَّهِ من الشيطان الرجيم، أَعُوذُ بِاللَّهِ من هذا العدو، كما قالت مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما تمثل لها الملك بشراً: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في مصنفه (٢٧/١١)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٩٤/١).

والاستعاذة بالله من أنواع العباداة، فلا تجمع بين المخلوق والخالق في الاستعاذة، أيضًا المخلوق يستعاذ به حسب قدرته، فيمكن أن تلجأ إلى شخص لكي يحميك من العدو، وتطلب منه المساعدة، بشرط أن يكون حيًا قادرًا على مساعدتك، ويسمعك ما تطلبه منه، فلا بأس أن تلتجئ إليه، وهذا من الأسباب؛ كالذي استغاث بموسى على عدوه: ﴿فَاسْتَعِذْهُ الْوَيْلُ لِمَنْ كَفَرَ﴾ [القصص: ١٥]. لا بأس بذلك، لكن لا تجمع بين الله وبين المخلوق بالواو، فلا تقل: أعوذ بالله وبك، إنما تقول: أعوذ بالله ثم بك. لأن (ثم) تفيد الترتيب والتعقيب، وهذا هو التوحيد، أما قول: أعوذ بالله وبك، فهو شرك، وفرق بين اللفظين.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأَنْدَادِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الْآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشُّرْكِ الْأَكْبَرِ؛ أَنَّهَا تَعُمُّ الْأَصْغَرَ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْحَلِيفَ بغيرِ اللَّهِ شِرْكٌ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ.

الخَامِسَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَائِ وَ (ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأَنْدَادِ) وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسرهما بالشرك الأصغر تنبيها على الشرك الأكبر، وجعل منه: لولا الله وفلان، ولولا كلبية هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وما شاء الله وشئت، كل هذا يدخل في جعل الأنداد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى ولو قاله بلسانه فقط، دون أن يعتقده بقلبه.

❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الْآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشُّرْكِ الْأَكْبَرِ؛ أَنَّهَا تَعُمُّ الْأَصْغَرَ)؛ لأن قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ عام في اتخاذ الأنداد، سواء بالعبادة، أو حتى بالألفاظ، كل هذا يدخل في الآية، مثل ما سبق في حديث حذيفة بن اليمان لما قطع التميمة من شخص، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، الآية في الشرك

الأكبر، وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استدل بها على تعليق التيممة، وهو شرك أصغر، فالصحابه يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على المنع أيضًا من الشرك الأصغر.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْحَلْفَ بِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ)؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سماه شركًا، فقال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ»، وهو شرك أصغر لا يخرج من الملة، إلا إذا كان في نيته أن المحلوف به يساوي الله، فيكون شركًا أكبر، بل بعضهم يعتقد أن المحلوف به أعظم من الله، ولذلك يتهاون بالحلف بالله ولا يتهاون بالحلف بالقبر أو الولي، مما يدل على أن المخلوق عنده أعظم من الخالق.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ) اليمين الغموس: هي اليمين الكاذبة أو الحلف على الكذب، سميت غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، لكنها أخف من الحلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي وإن كانت كبيرة من كبائر الذنوب، إلا أن الحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم من الذنوب.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَائِ وَ «ثُمَّ» فِي اللَّفْظِ) الفرق بين الواو (ثم): أن (ثم) تجوز في العطف على الله، والواو لا تجوز في العطف على الله؛ لأن الواو للمشاركة والمساواة، وأما (ثم) فهي للترتيب والتعقيب.

فدل ذلك على أن طالب العلم يجب عليه ألا يقتصر على معرفة الشرك الأكبر، بل يتعلم الشرك الأصغر أيضًا، فيعرف متى يكون، وبماذا يحصل؟

حتى يتجنبه ويحذر منه؛ لأن الشرك الأصغر أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة السوداء في الليلة الظلماء، فإذا اعتاده الناس تدرجوا به حتى يقعوا في الشرك الأكبر والعياذ بالله.



٤٢- بَابُ

مَا جَاءَ فِيهِمْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْذُقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ^(١).

قوله: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»: تقدم أنه لا يجوز الحلف بغير الله في حق كل أحد.

قوله: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْذُقْ»: وهذا مما أوجبه الله على عباده، قال عَرَجَلٌ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَقْرَى الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِثَاثَةِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥].

قوله: «وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ»: هذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له متعذراً، والحديث يدل على الوجوب، ومن حقه عليه أن حسن به الظن إذا لم يتبين كذبه؛ كما في الأثر عن عمر: (وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ شَرًّا، وَأَنْتَ تَحِدُّ لَهُ فِي الْخَيْرِ مُحَمَّلًا)^(٢)، وهو من حسن الخلق، ومكارم الأخلاق، وكمال العقل، وقوة الدين.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤٦٦/٨)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٨١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه المحامي في الأمالي (ص ٣٩٥)، وابن أبي الدنيا في مداراة الناس (ص ٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٣٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/٣٦٠).

... — الشَّيْخُ — ...

تقدم في الباب الذي قبل هذا والذي قبله النهي عن اتخاذ الأنداد لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن ذلك من الشرك، قد يكون شركاً أكبر، وقد يكون شركاً أصغر، ومن ذلك الحلف بغير الله، وفي هذا الباب الوعيد على من لم يقنع بالحلف بالله؛ لأن الواجب على العبد إذا أراد أن يحلف فلا يحلف إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، وإذا حلف بالله فإن المحلوف له يجب أن يرضى بذلك ويصدق الحالف تعظيماً لله، فإذا لم يقنع بالحلف بالله فمعناه أنه تنقص لله عَزَّوَجَلَّ، ونقص في التوحيد، وأما الرضا بالحلف بالله فهذا من تعظيم الله ومن كمال التوحيد، فإن كان الحالف صادقاً فهو على صدقه، وإن كان كاذباً فإثم عليه. هذا وجه المناسبة لعقد هذا الباب في كتاب التوحيد.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفي هذا الحديث أربع مسائل كلها في التوحيد:

الأولى: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» هذا فيه النهي عن الحلف بغير الله، والحلف بغير الله لا يجوز سواء بالآباء أو بغيرهم، ولكنه ذكر الآباء تنبيهاً على ما جرت به عادتهم أنهم كانوا يحلفون بآبائهم.

الثانية: فيه وجوب الحلف بالله لمن أراد أن يحلف، فإنه يحلف بالله ولا يحلف بغيره، وذلك من التوحيد؛ لأن الحلف تعظيم للمحلوف به.

الثالثة: وجوب الصدق في اليمين؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ» هذا أمر فيه وجوب الصدق في اليمين، وتحريم الكذب في اليمين، لاسيما إذا حلف في خصومة؛ لأنه إذا حلف في الخصومة بالله وهو كاذب فإنه يرتكب جريمتين: الأولى: جريمة الكذب في اليمين، والكذب كبيرة من كبائر الذنوب، في اليمين وفي غيرها، والثانية: أنه يأخذ مال أخيه بغير حق، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَأِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَائِكَ»^(١). القضيب: هو العود، والأراك: شجر معروف، فإذا حلف ليأخذ عودًا من أخيه بغير حق، كان من أهل النار، وحرمت عليه الجنة، فكيف بمن يحلف على أكثر من ذلك من الأموال والأراضي والخصومات؟! لا شك أن الأمر أشد.

الرابعة: إذا حلف لك أخوك بالله فعليك أن تقنع؛ لأنه ليس بعد الله شيء، فإن كان كاذبًا فإثم عليه، وإن كان صادقًا فهو قد حلف لك صادقًا، فأنت تقنع بالحلف بالله تعظيما لله عَزَّ وَجَلَّ. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ» هذا محل الشاهد من الحديث للترجمة، والمعنى: أنه إذا لم يقنع بالحلف بالله فليس من الله، وهذه براءة من الله، فدل على أن ذلك كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه تنقص لله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا لم ترض بالله فبمن ترض إذا؟!!

(١) أخرجه مسلم (١٣٧) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أوجب الله عَزَّجَلَّ على عباده الصدق، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فالواجب على العباد أن يتخذوا وقاية بينهم وبين الله من عذابه، وذلك بامثال أوامره وتجنب نواهيه، ولا يقيهم من عذاب الله إلا ذلك، ويكونوا مع الصادقين الذين صدقوا فيما بينهم وبين الله بالإيمان بالله وتوحيده والجهاد في سبيله، وصدقوا أيضًا فيما بينهم وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعه وطاعته ومحبته، وصدقوا أيضًا فيما بينهم وبين الخلق فلم يكذبوا عليهم، ولم يغدروا، ولم يخونوا، ولم يغشوا، وإنما يتعاملون بالصدق، وفي ضمن ذلك النهي عن أن يكونوا مع الكاذبين من المنافقين والفساق وأهل الغدر والخيانة وغيرهم.

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، وهذا بيان بأن الذي يكذب ناقص الإيمان، ولا يؤمن بآيات الله؛ لأن آيات الله تنهى عن الكذب، ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ حصر الكذب فيهم كأنه ليس هناك من يكذب غيرهم، فالذي لا يؤمن بالقرآن، ولا يؤمن بالوعد والوعيد، هذا هو الكاذب.





فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: النَّهْيُ عَنِ الْحَلْفِ بِالْأَبَاءِ.
 الثانية: الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللَّهِ أَنْ يَرْضَى.
 الثالثة: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ



٤٣- بَابُ

قَوْلُ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ

عَنْ قَتِيلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتُ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ^(١).

قوله: [قَتِيلَةَ] بمثناة: بنت صيفي الأنصارية، صحابية مهاجرة^(٢)، لها حديث في سنن النسائي، وهو المذكور في الباب، ورواه عنها عبد الله ابن يسار الجعفي.

وفيه قبول الحق ممن جاء به، وفيه بيان النهي عن الحلف بالكعبة وغيرها، مع أنها بيت الله التي حُجَّها وقصَّدها بالحج والعمرة فريضة.

وأنت ترى ما وقع مما يخالف ذلك من الحلف بالكعبة ودعائها، وكذا مقام إبراهيم، وقلَّ من يسلم من هذا ممن يحج من أهل الآفاق وأهل مكة، كما كان يفعل بغيرها. والكعبة عظمها الله بأن جعل حجها ركناً على من استطاع، وشرع العبادة عندها، وخصها بالفضل.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥).

(٢) هي: قَتِيلَةُ بنت صيفي الجهنية، قال ابن حجر في الإصابة (٨/ ٧٩): «ويقال: الأنصارية، قال أبو عمر: كانت من المهاجرات الأول... ولم أر من نسبها أنصارية، وقوله: من المهاجرات، بأبى ذلك».

فالمشروع إنما هو الطواف بها، والصلاة إليها، لا الحلف بها ونحوه من الشرك في العبادة، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩].

قوله: (وَإِنْ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ): والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله؛ كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وفي هذه الآية والحديث الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أَرَادَهُ اللهُ من العبد وما شاءه، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ فَنَقْدِرُ﴾ [الفرقان: ٢]، وفي الحديث: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ أُكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)، وهو في الصحيحين وغيرهما.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب من جنس الأبواب السابقة، وهو في الشرك الأصغر، وقد جاء النهي عنه مجملًا في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، والمصنف رَحِمَهُ اللهُ فصلها في هذه الأبواب؛ لأن ابن عباس فسرها بعدة أشياء، منها: الحلف بغير الله، وما شاء الله وشاء فلان، ولولا الله وفلان، وحياتك وحياتي.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، وأحمد في المسند (٣١٧/٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٥٨/١، ١٣٨/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٤/١٠) من حديث عبادة بن الصامت. وليس في الصحيحين.

فالمصنف فصل هذه الأشياء في أبواب، فجعل الحلف بغير الله في باب، وجعل من لم يقنع في باب، وجعل قول: «ما شاء الله وشئت...» إلى آخره في باب، وهذا من باب التفصيل لهذه الأمور.

❦ قوله: (بَابُ قَوْلٍ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ) يعني: أنه لا يجوز، قول: ما شاء الله وشئت، بالواو؛ لأن الواو تقتضي التشريك، وهذا من الشرك في الألفاظ، وهو شرك أصغر لا يخرج من الملة.

ثم أورد حديث عن قتيلة بنت صيفي الأنصارية: (أَنَّ يَهُودِيًّا) أي: واحد من اليهود، واليهود: أمة التوراة المنتسبة إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهم يُنسبون إلى اليهودية نظرًا إلى الأصل، فيقال لهم اليهود، ويعاملون معاملة أهل الكتاب، وإن كان عندهم انحرافات وضلالات، وكفريات، وشركيات، لكن لا يمنع هذا أن يسموا باليهود.

واليهود معروفة عداوتهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمسلمين، لكنهم يتصيدون على المسلمين الأخطاء ولو كانت صغيرة، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل الحق، ولو كان الذي جاء به من ألد أعدائه، فهذا اليهودي قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ) أي: تحلفون بغير الله، وتقولون: ما شاء الله وشئت، فتجمعون بين الخالق والمخلوق في المشيئة، وتشركون بينهما؛ لأن الواو تقتضي التشريك.

فأقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما قال، واعتبر هذا شركًا، ونهى أمته عن ذلك، ولم يقل: كذلك أنتم يا معشر اليهود عندكم كذا وكذا؛ لأن ما قاله

حق، وما دام حقاً فإننا نقبله، ونعدل الخطأ الذي عندنا، ولو أتى الحق على لسان عدو لنا؛ لأن الحق ضالة المؤمن.

فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته أن يقولوا: «فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلُقُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتُ»؛ لأن ثم تقتضي الترتيب والتعقيب، فتكون مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق، وهذا كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فجعل مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق عَزَّجَلَّ، وليست مشاركة لمشيئة الله، وإنما هي بعدها ومرتبة عليها، فإذا شاء الله شاء المخلوق، وإذا لم يشأ الله لم يشأ المخلوق.

وفي هذا رد على الجبرية الذين ينفون مشيئة المخلوق، ويقولون: ليس هناك مشيئة ولا إرادة إلا لله، أما المخلوق فإنه مجبور على أفعاله، ليس له فيها اختيار ولا مشيئة.

وفيه رد على القدرية المعتزلة الذين يقولون: المخلوق له مشيئة مستقلة عن مشيئة الله عَزَّجَلَّ، وأنه يخلق فعل نفسه.

فهؤلاء غلوا في نفي مشيئة المخلوق، وهؤلاء غلوا في إثبات مشيئة المخلوق، وكلا الطرفين ضال، والحق إثبات مشيئة الله ومشيئة المخلوق، وجعل مشيئة المخلوق بعد مشيئة الله عَزَّجَلَّ، والذي يوافق الحق أن تجعل مشيئة المخلوق مترتبة على مشيئة الخالق بـ (ثم)، أما إذا استبدلت (ثم) بالواو

فقد أشركت بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق، وهذا من الشرك في الألفاظ، وإن لم يعتقد المسلم، لكن الواجب عليه أن يتجنبه.

❦ قوله: (وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ) والحلف بالكعبة شرك، مع أن الكعبة بيت الله، لكنها مخلوقة، فلا يجوز الغلو بها بأن يُحلف بها، أو يُطلب منها الحوائج وقضاء الحاجات، كما يفعله الجاهل والقبوريون الذين يخاطبون الكعبة، ويطلبون منها، ويستغيثون بها، مما هو شرك أكبر أشد من الحلف من الكعبة، فالذي يقول: يا كعبة الله افعلي كذا، يا كعبة الله أعطني كذا، هذا شرك أكبر، أما الحلف بها فهو شرك أصغر.

والكعبة بيت الله، أمرنا سبحانه أن نستقبلها في الصلاة، ونطوف بها، وندعو الله عندها، أما أن نطلب منها قضاء الحاجات، أو نستغيث بها، أو نعتقد أنها تعطي وتمنع، وأنها تدبر، فهذا شأن المشركين.

فأمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: (وَرَبَّ الْكَعْبَةِ)، هذا هو البديل الصحيح؛ لأن رب الكعبة هو الله، وهو سبحانه رب كل شيء، والكعبة بيت الله، أضيفت إليه إضافة تشريف وتكريم، من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، مثل: ناقة الله، وبيت الله، ورسول الله.

وفي هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا كان له هوى فإنه يفهم الحق من أجل أن يعير خصمه به، ويعمى عما عنده من العيوب، فهو يرى عيوب الناس ولا يرى عيب نفسه، فاليهود لم يروا عيوب أنفسهم، ولاحظوا على المسلمين هذه الكلمة: (والكعبة)، و(ما شاء الله وشئت)؛ لأن لهم هوى،

يتصيدون على المسلمين الأخطاء، وهذا دأب أهل الضلال دائماً وأبداً، تجدهم يتصيدون الأخطاء على أهل الخير وإن كانت صغيرة، وينسون العيوب التي عندهم وإن كانت كبيرة؛ لأن الهوى أعماهم عن عيوبهم، وذكرهم بعيوب الآخرين.

وفيه أيضاً أن الذي ينهى عن شيء يأتي له ببديل صالح إذا أمكن، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نهاهم عن قول: (والكعبة)، قال: «أَنْ يَقُولُوا: رَبِّ الْكَعْبَةِ»، هذا هو البديل الصحيح، ولما نهاهم عن قول: (ما شاء الله وشئت)، قال لهم: «قولوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتُ»، فدل على أن الذي ينهى عن شيء يأتي بالبديل الصحيح كلما أمكن.



وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، قَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(١).

قوله: [وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، قَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»]: هذا يبين ما تقدم من أن هذا شرك؛ لأن المعطوف بالواو يساوي المعطوف بالمعطوف عليه؛ لأن الواو وضعت لمطلق الجمع، فلا يجوز أن يجعل المخلوق مثل الخالق في شيء من الإلهية والربوبية، ولو في أقل شيء؛ كما تقدم في الرجلين اللذين قرب أحدهما ذبابًا للصنم فدخل النار.

وفيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمَى حَمَى التوحيد، وسد طرق الشرك في الأقوال والأعمال.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا رجل قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ»، فَأَنكَرَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ وَلَمْ يتركه على قوله هذا، فقال له: «قَالَ: أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟»، يعني: شريكًا، فهذا يشهد لتفسير ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ قال: أَنْدَادًا: شركاء.

فهذا اللفظ من اتخاذ الأنداد مع الله عَزَّوَجَلَّ، ذلك لأنه عطف مشيئة الرسول على مشيئة الله بالواو، فجعله شريكًا لله، وهذا شرك في اللفظ،

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وأحمد في المسند (١/ ٢٨٣)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٧) وفيه: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا...». وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٧٤)، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٩) وفيه: «جَعَلْتُ لِلَّهِ نِدًّا...».

وهو شرك أصغر لا يخرج من الملة. فأرشده النبي ﷺ إلى العبارة الصحيحة، وقال: «بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»، وهذا من باب التنبيه إلى الأكمل، وإلا فإنه يجوز له أن يقول: «مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ» كما في الحديث الذي قبل هذا، لكن الأكمل هو الاختصار على مشيئة الله وحده.

فإذا كان النبي ﷺ أنكر على هذا الرجل قول: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ»، مع أنه ﷺ له مشيئة، فكيف بالذي يقول^(١):

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِيمِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخِذًا بِيَدِي فَضْلاً وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَمَنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

ما هذا الغلو والعياذ بالله؟! هل اللوح والقلم من علم الرسول؟! هل الدنيا والآخرة كلها ملك للرسول ﷺ؟! هل لا ينقذ من عذاب الله يوم القيامة إلا الرسول ﷺ؟! إذا كان كذلك فأين الله سُبحانه وتعالى؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

هذا هو الشرك الأكبر، والغلو الفظيع - والعياذ بالله - في الرسول ﷺ، ومع هذا يرددون هذه القصيدة في أعيادهم وفي محافلهم، بل يفضلونها على القرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



وَلَا بِنِ مَاجِهَ: عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأَمَّهَا قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَإِنْكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَإِنْكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى زُؤِيًّا وَأَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنْكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(١).

قوله: [عَنِ الطُّفَيْلِ]: هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة، أخو عائشة لأُمِّهَا، له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْبَابِ.

وهذه الرؤيا حق، أقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمل بمقتضاها، فنهاهم أَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ. وقد بَلَّغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَلَاغَ الْمُبِين، وَأَنْذَرَ عَنِ الشَّرْكِ، وَحَذَرَ عَنِ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَاَنْظُرْ إِلَى مَا وَقَعَ مِنَ الشَّرْكِ الْعَظِيمِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ يَنَادُونَ الْمَيِّتَ مِنْ مَسَافَةِ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، وَيَعْتَقِدُونَ فِيهِ أَنَّهُ يَنْفَعُ وَيُضِرُّ، وَيَسْمَعُ وَيَسْتَجِيبُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَافَةِ، وَجَعَلُوا الْأَمْوَاتَ شُرَكَاءَ اللَّهِ فِي الْمَلِكِ، وَالتَّدْبِيرِ،

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجِهَ (٢١١٨) بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٧٢ / ٥) بِنَحْوِهِ.

وعلم الغيب، وغير ذلك من خصائص الربوبية، وتركوا نبيهم وما جاء به، وقاله وما نهى عنه، كأنهم لم يسمعوا كتاباً ولا سنة.

وقد بعثه الله بالنهي عن الشرك كما ترى، فما زال يدعو الناس إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، حتى أكمل الله لهم به الدين، وأتم عليهم النعمة، لكن رجعوا من الكمال إلى الضلال، ومن سبيل النجاة إلى سبيل الهلاك. وهذه وإن كانت رؤيا منام، فقد أقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبر أنها حق.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (عَنِ الطَّفِيلِ)، هو: الطفيل بن عبد الله بن سخبرة، أخو عائشة لأُمها؛ لأن عبد الله بن سخبرة كانت تحته أم رومان زوجته، وكان حليفاً لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فلما توفي عبد الله بن سخبرة تزوج أبو بكر الصديق امرأته أم رومان، فأنجبت له عبد الرحمن بن أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلما بعث الله محمداً بالإسلام، أسلم الطفيل وحسن إسلامه، ورأى هذه الرؤيا التي قصها على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورؤيا المؤمن إذا كانت حقاً يُعمل بها، وهي جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، وأول ما يُبدأ به الأنبياء الرؤيا الصادقة^(٢)، فهي جزء من

(١) سبق تخريجه (١١٩/٢).

(٢) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الذي أخرجه البخاري (٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠) وفيه: «أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ...».

النُّبُوَّة، وهي من المبشرات، هذا إذا كانت رؤيا حق وليست أضغاث أحلام، وليست من الشيطان؛ لأن الرؤيا على ثلاثة أقسام:

الأول: ما يكون من الشيطان إذا نام الإنسان ولم يذكر الله عند نومه، ولم يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص، والمعوذتين، فإن الشيطان يتسلط عليه، ويأتيه بالأحلام المزعجة حتى يشوش عليه نومه، ومثل هذا لا يُصدق، ولا ينبغي للعبد أن يُحدث بها؛ لأنها من الشيطان ولا تضر الإنسان بإذن الله؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا، وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ»^(١).

الثاني: أحاديث نفس، وهي أضغاث الأحلام، إذا كان الإنسان في اليقظة يفكر في أشياء أو تهمة أشياء، فإذا نام جاءت هذه الأضغاث في النوم؛ لأنها منطبعة في نفسه وفي ذاكرته، فهذه أضغاث أحلام ليس لها قيمة، فلا يلتفت إليها.

الثالث: الرؤيا التي تجري على يد ملك من الملائكة، فيرى الإنسان أشياء عجيبة، هذه هي الرؤيا الصحيحة، ومنها هذه الرؤيا التي رآها الطفيل ابن عبد الله ابن سخرية، حيث رأى أنه أتى على نفر من اليهود، فقال له: «إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ» هذا مدح لهم باعتبار الأصل؛ لأنهم في الأصل كانوا على

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، «لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَزِيرُ ابْنُ اللَّهِ»، عزير: هو رجل من اليهود قيل: إنه نبي، وقيل: إنه رجل صالح غلوا فيه، حتى قالوا: هو ابن الله. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، يسمونه الآن عزرا، وهو في الأصل: عزير عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقال له اليهودي: «وإنكم لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ» فأنكر على المسلمين هذه اللفظة، مثل ما أنكرها اليهودي الذي سبق في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فهم يتتبعون العيوب التي عند المسلمين ويحفظونها، ولكنهم لا ينظرون إلى عيوبهم؛ لأنهم أهل هوى.

❁ قال: «ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَعْرِمَنِ النَّصَارَى»، والنصارى: في الأصل أتباع المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكل من انتسب إلى ديانة عيسى فإنه يقال له: نصراي، ولو كان قد حرف وغير وبدل، ويعامل معاملة أهل الكتاب باعتبار الأصل.

❁ فقال له: «إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ»؛ كما ذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك عنهم في القرآن، فقال له النصراي: «وإنكم لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ» اتفقت كلمة اليهود والنصارى على إنكار هذه الكلمة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكرها أيضًا وأقر اليهود والنصارى على أن هذه الكلمة شرك، لكنه شرك في الألفاظ، وهو شرك أصغر لا يخرج من الملة.

ولكن لا يتهاون بالشرك ولو كان أصغر، ولو كان بالألفاظ، بل لابد من تركه وإنكاره، إذا سمعت من ينطق به، لا يكفي أن تقول: هذا شرك أصغر وتسكت، بل يجب عليك الإنكار.

ثم إن طفيلًا لما أصبح حدث بهذه الرؤيا؛ لأنها عجيبة، ثم جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ»، ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمد الله وأثنى عليه، وهذه سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يبدأ بالحمد لله والثناء على الله، ثم يذكر الغرض الذي أراد أن يتكلم به.

❁ ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ» هذه الكلمة يؤتى بها إذا أراد المتكلم أن يفتح الموضوع الذي تكلم من أجله، ولذلك تسمى كلمة فصل، وقيل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾ [ص: ٢٠] أن فصل الخطاب هو قول: أما بعد.

❁ قال: «فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا وَأَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً» وهي قول: ما شاء الله وشاء محمد، «كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا» ما الذي منع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينهاهم عنها؟ قيل: الذي منعه حياؤه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه لم ينزل عليه فيها وحي، وإلا لو نزل عليه فيها وحي لصدع بها ولم يمنعه الحياء، لصدع بها.

❁ قال: «فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدُّهُ»، فدل على أن هذه الكلمة شرك؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقر أهل

الكتاب على تسميتها شركًا، لكنه شرك في اللفظ، وهو شرك أصغر، ودل أيضًا على أن الشرك الأصغر قد يصدر من المؤمن، بخلاف الشرك الأكبر فإنه لا يصدر من مؤمن والعياذ بالله.

وفي هذا الحديث قبول الحق ممن جاء به، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل قول أهل الكتاب، مع أنهم عندهم شرك وعندهم كفر، وعندهم عداوة للحق، ومع هذا لما قالوا كلمة الحق قبلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وبعض الناس إذا أنكرت عليه شيء أخذته العزة بالإثم، وقال: أنت أشد منا، أنت تقول كذا وكذا، وأنت تفعل كذا وكذا، ولا يقبل الحق، وهذا ليس من هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته.

وفي الحديث أيضًا وجوب إنكار المنكر؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر هذا القول، وقال: «فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ».

وفيه الإتيان بالبديل الصالح إذا أمكن، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبدل كلمة: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ» بكلمة: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ».

وفيه التنبيه على المنع من الغلو في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه إذا مُنعت هذه الكلمة مع أن الرسول له مشيئة، فكيف بمن يسند إلى الرسول أشياء ليست من حقه؟! كأن يُقال: إنه يعلم الغيب، أو يُقال: إنه ينقذ من النار من دون الله عَزَّجَلَّ، أو أنه يُستغاث به بعد موته، ويُلجأ إليه في المهمات بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا شك أن هذا أشد وأنكى والعياذ بالله، كما هو حال عبدة المشاهد والقبور.

وفيه أن اليهود والنصارى يعرفون الشرك الأصغر، بينما بعض العلماء المنتسبين إلى هذه الأمة لا يعرفون الشرك الأكبر، فهم لا ينهون عن الشرك بالقبور والاستغاثة بالأموات وغير ذلك، وهو شرك أكبر، فهم في الحقيقة ليسوا علماء، إنما هم علماء ضلال وفتنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفيه العمل بالرؤيا إذا كانت الرؤيا صحيحة، وأنها قد تكون سبباً لتشريع بعض الأحكام، وهذا في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد اكتمل الدين وانتهى التشريع، قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلا يثبت بالرؤيا حكم شرعي بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن إذا كانت رؤيا صالحة فإنها يُستبشر بها، وتُفسر، أما إذا كانت رؤيا مزعجة فإنها تُترك ولا تفسر، ولا تضر صاحبها بإذن الله.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشَّرِكِ الْأَصْغَرِ.

الثانية: فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوَى.

الثالثة: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟» فَكَيْفَ بَمَنْ قَالَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ

وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ.

الرابعة: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشَّرِكِ الْأَكْبَرِ، لِقَوْلِهِ: «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا».

الخامسة: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

السادسة: أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ.



٤٤- بَابُ

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قوله: [بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾]: قال العماد ابن كثير في تفسيره: (يخبر الله تعالى عن دهرية الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، وقالوا: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم، ويعيش آخرون، ولا ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، ولهذا قال عنهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. قال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤] أي: يتوهمون ويتخيلون^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال رحمه الله: (بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ) هذا الباب ذكره المصنف رحمه الله في سياق الأشياء التي تؤثر على عقيدة التوحيد، إما بالمنافاة وإما بالنقص، فمسبة الدهر تنقص التوحيد، ولذلك عقد لها هذا الباب، وأورد فيه آية وحديث.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

❁ قوله: (مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ) السب: معناه التنقص، والدهر: المراد به الوقت والزمان، أي: من ذم الوقت والزمان فقد آذى الله؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكره سب الدهر؛ لأن مسببة الدهر في الحقيقة مسببة لله، لأن الدهر مجرد ظرف زمان مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي يُجْرِي فيه ما يكرهه الناس ليس هو الدهر، وإنما هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي يُجْرِي هذه الأمور ويقدرها، وإنما الدهر وقت وزمان لا يُذَم ولا يُتَنَقَص؛ لأنه لا تأثير له في حدوث الحوادث.

والدهر في حد ذاته نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمن استغله في طاعة الله واستغله فيما ينفعه، ولهذا قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، فالعصر الذي هو الزمان مجال للعمل، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ أَيْلًا وَالتَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، والأعمال الصالحة إنما تكتسب في هذا الدهر، فالوقت ثمين، وهو نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن ضيعه فهو خاسر، ومن حفظه فإنه يكون رابحاً بإذن الله.

فدم الدهر لا يرجع إليه، وإنما يرجع إلى خالق الدهر، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله عَزَّجَلَّ يتأذى بالأفعال القبيحة لأنه يكرهها، كما أنه يحب الأعمال الطيبة ويرضاها، لكنه سبحانه لا يتضرر من أفعال العباد، قال عَزَّجَلَّ في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي»^(١)، الله لا يتضرر كما أنه لا ينتفع بأعمال العباد، وإنما

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هم الذين يتضررون بها أو ينتفعون، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، وهناك فرق بين التأذي والتضرر، التأذي يحصل بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ، وأما التضرر فهو محال أن يلحق بالله عَزَّوَجَلَّ ضرر من عباده، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ٣٢]، فهم لا يضررون الله بسيئاتهم وذنوبهم، وإنما يضررون أنفسهم، لكن الله سبحانه يتأذى بالأشياء التي لا تتناسب مع جلاله وعظمته؛ لأنه يكرهاها ويبغضها.

ثم ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، هؤلاء هم مشركو العرب، ينكرون البعث، وإن كانوا يقرون بالربوبية وأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، يقرون بتوحيد الربوبية ويعبدون الله في بعض العبادات، ولكنهم يشركون به معه غيره، وأيضاً جمعوا إلى الشرك إنكار البعث، وهذا كثير في القرآن يذكر الله في المشركين أنهم ينكرون البعث، ويستبعدونه، ويستنكرون أن يحيي الله العظام إذا تفتت وضاعت وصارت رميماً، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، يستنكرون أن تعود العظام إذا تفتت وتكسرت مرة ثانية، ونسوا أنه سبحانه هو الذي خلقهم من عدم، فالذي قدر على ابتداء الخلق من عدم قادر من باب أولى على إعادته مرة أخرى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

الإعادة أهون في نظر العقول، وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ ليس شيء عليه عسير، لكن هذا من باب ضرب المثل للعقول.

❖ قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعني: ليس هناك بعث، إنما هي الحياة الدنيا فقط، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ناس يولدون وناس يموتون، ويقولون: هذه سنة الحياة وسنة الكون، وليس هناك بعث ولا نشور.

❖ ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ هذا وجه الاستدلال: أنهم أسندوا الإهلاك إلى الدهر، وهل الدهر هو الذي يهلك أو يحيي؟! زعموا أن الإنسان يعيش ويهرم ويشيب ثم يموت، وسبب موته هو الهرم، وليس سببه انتهاء أجله الذي كتبه الله له، وما لهم بذلك من برهان ولا لدليل على مقاتلتهم هذه، إلا أنهم استصعبوا ذلك بعقولهم القاصرة، ونسوا قدرة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم يقيسون قدرة الخالق على قدرة المخلوق، فإذا كان هذا محالاً في قدرة المخلوقين، فإنه ليس محالاً في قدرة الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

❖ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والظن لا يُبنى عليه عقيدة، ولا يُبنى عليه إيمان ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]، لا يُبنى الدين والعقيدة إلا على دليل يقيني، فما هو الدليل على نفي البعث؟ ليس عندهم دليل، بل الأدلة كثيرة جداً تدل على وجود الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يدل على أن كل من ادعى دعوة نفيًا أو إثباتًا فعليه أن يقيم الدليل على دعواه، وإلا فإنه كاذب.

فهذه الآية تنكر على الذين ينكرون البعث وينسبون الهلاك إلى الدهر، وهذا يقع كثيرًا من الشعراء، إذا أصابهم شيء سلطوا الزم على الدهر، ولعنوا

الدهر، وشتما الساعه التي حصل فيها كذا، واليوم الذي حصل فيه كذا، وهذا موجود في بعض الناس اليوم، وهو من بقايا الجاهلية. ألا يعلم هؤلاء الجاهل أن هذا الذم يتوجه إلى الله سُبحانه وتعالى؟ وأنه ينقص عقيدة التوحيد وإن كان الإنسان لا يعتقدده؟

فيجب على العبد المؤمن أن ينزه لسانه عن مسبة الدهر، وأن يرجع إلى نفسه ويحاسبها على ما أصابه من سوء، قال عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فالواجب عليه أن يحاسب نفسه ويتوب إلى الله سُبحانه وتعالى، بدلاً من أن يسب الدهر، أو يقعد يلعن الشيطان، لا شك أن الشيطان ملعون؛ لأن الله لعنه في كتابه، لكن لعنك للشيطان لا يفيدك شيئاً، بل هذا يفرح الشيطان ويقول: انتصرت عليه وأغويته وأضللته.

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

نَعِيبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لَزَمَانِنَا عَيْبُ سِوَانَا^(١)

يعني: أن العيب ليس في الزمان، وإنما هو في الإنسان.

فالواجب أن يرجع الإنسان إلى نفسه ويحاسبها، ويعلم أن هذا من الله سُبحانه وتعالى، قدره عليه عقوبة له وتنبهاً له؛ ليتوب إلى الله سُبحانه وتعالى.



(١) انظر: ديوان الإمام الشافعي (ص ١٠٦).

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»^(١).
وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٢).

قوله: [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»]. وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»]: قال في شرح السنة: (حديث متفق على صحته، أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة.

قال: ومعناه أن العرب كانت من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله عَزَّجَلَّ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمر التي يصفونها، فنهوا عن سب الدهر)^(٣). انتهى باختصار.

ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة في أشعار المولدين؛ كابن المعتز، والمتنبي، وغيرهما، وليس منه وصف السنين بالشدّة؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ الآية [يوسف: ٤٨].

قال بعض الشعراء^(٤):

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

(٣) انظر: شرح السنة للبغوي (٣٥٧/١٢).

(٤) هو عتاب بن ورقاء الشيباني، توفي في حدود الخمسين والمائتين. انظر: معجم الأدباء (٣/٤٦٠)، والوافي بالوفيات (٢٨٨/١٩)، وتاريخ الإسلام (٣٤٨/١٨).

إِنَّ اللَّيَالِي مِنَ الزَّمَانِ مَهْوَلَةٌ تُطَوَّى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ وَطَوَالَهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَارُ
وقال أبو تمام^(١):

أَعْوَامٌ وَصَلَّ كَادَ يُنْسِي طَبِيبُهَا ذَكَرُ النَّوَى فَكَأَنَّهَا أَيَّامُ
ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ أَعْقَبَتْ نَحْوِي أَسَى فَكَأَنَّهَا أَعْوَامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونُ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَخْلَامُ

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله عَزَّجَلَّ في الحديث القدسي: «يُؤْذِنُنِي ابْنُ آدَمَ» دل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَأَذَى بأفعال عباده التي يكرهها ويبغضها، ولكنه لا يتضرر بها. ثم فسر ذلك الأذى بقوله: «يَسُبُّ الدَّهْرَ» والدهر ليس محلاً للسب؛ لأنه ليس له تأثير فيما يحدث للعباد من أمور يكرهونها، فيكون محل السب هو الله عَزَّجَلَّ؛ لأنه سبحانه هو الذي قدر هذا الأمر الذي يكرهه العبد، وبسببه حصل منه سب الدهر.

❁ قال: «وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» يعني: أنا الذي خلقت الدهر، وأنا الذي أجري الدهر بما يكرهه الناس، ولا يعني ذلك أن الدهر من أسماء الله؛ لأنه فسر به بقوله: «أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، فلا يجوز أن يؤخذ من هذا الحديث أن الدهر من أسماء الله عَزَّجَلَّ اعتماداً على قوله: «أَنَا الدَّهْرُ»، بل

(١) انظر: ديوان أبو تمام (ص ٢٨٢)، والصناعتين الكتابة والشعر (ص ٤٢٥)، ومعاهدة التصنيف (٤٣/١).

يُكْمَلُ إِلَى قَوْلِهِ: «أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»؛ لَأَنَّهُ يُوَضِّحُ الْمَقْصُودَ وَيُفَسِّرُهُ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الدَّهْرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَقَدْ غَلَطَ، كَالْإِمَامِ ابْنِ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْطَأَ فِي هَذَا، وَعَدَّ الدَّهْرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، أَخَذًا مِنْ قَوْلِهِ: «أَنَا الدَّهْرُ»، مَعَ أَنَّ آخِرَ الْحَدِيثِ يَفْسِرُ أَوَّلَهُ.

وهكذا الأحاديث التي من أمثال هذا الحديث، والتي يكون فيها شيء مستغرب في أسماء الله وصفاته، يجب أنها تقرأ جميعاً من أولها إلى آخرها؛ لأن بعضها يفسر بعضاً، فلا نقطع جزءاً من الحديث ونقول: هذا يدل على كذا، دون أن نكمل الحديث.

مثل قوله عَزَّجَلَّ في الحديث القدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»^(١)، بعض طلبة العلم يقولون: إن الله يوصف بالتردد، أخذًا من هذا اللفظ، فنقول لهم: ما أكملت الحديث، فهو يفسر ذلك في آخر الحديث بقوله: «يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، فمعنى ترددت: أي كرهت، ويكون معنى الحديث: ما كرهت شيئاً مثلاً كرهت قبض روح عبدي المؤمن. والله يوصف بأنه يكره ويبغض ويحب، ولا يوصف بالتردد.

فالواجب على طالب العلم ألا يتسرع في هذه الأمور، فيقطع لفظاً من الحديث ويقول: هذا يدل على كذا، دون أن يُكْمَلَ الحديث، وقد يكون للحديث حديث آخر يفسره، أو آية توضحه، فلا بد من الجمع بين النصوص؛

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأن كلام الله عَزَّجَلَّ لا يتناقض، وكلام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتناقض، بل يفسر بعضه بعضًا، ويوضح بعضه بعضًا.

وفي رواية: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» هذا نهي، والنهي يقتضي التحريم، وقوله: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ» هذا أيضًا يدل على التحريم؛ لقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]. ثم علل النهي بقوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»، فمن سب الدهر فقد سب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا محذور عظيم، ولذلك يجب على العبد أن يمسك لسانه عن مسببة الدهر ومسببة الأوقات، وأن يسند الأمور إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يحاسب نفسه عما فرط وعما قصر؛ لأنه ما أصابه من شيء إلا بسبب ذنوبه ومعاصيه، فليتب إلى الله عَزَّجَلَّ، وليعلم أن ذلك قدر من الله عَزَّجَلَّ، قدره عليه بسبب أفعاله عقوبة له، وتنبهًا له لعله أن يتوب.

✽ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة في أشعار المولدين) المولدين: الشعراء الذين جاءوا بعد عصر بني أمية، وهم الذين اختلطت لغتهم بالعامية، ولا يستشهد بأشعارهم لأنها دخلها اللحن، مثل: ابن المعتز، والمتنبي، وأبي تمام، والبحتري، بخلاف شعراء العرب الأصليين، وشعراء الجاهلية، وشعراء عصر بني أمية، هؤلاء يحتج بأشعارهم في اللغة؛ لأنها لم يدخلها اللحن.

✽ قال: (وليس منه وصف السنين بالشدة) يجوز أن تقول: هذا يوم شديد، وهذا يوم عصيب، وهذه سنة شديدة؛ لأن هذا وصف وليس ذمًا،

والله سبحانه خلقه هكذا، فجعل بعض الأوقات شديدة وعصيبة، مثل: سنوات القحط والجذب؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، فهذا من باب الوصف لا من باب الذم.

وجعل الله عَزَّجَلَّ بعض الأيام مباركة، مثل: شهر رمضان، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، هذه أوقات خير ومواسم رحمة. فهذه أوصاف ليست ذمًّا ولا مدحًا.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

الثانية: تَسْمِيَّتُهُ أَذَى اللَّهِ.

الثالثة: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الرابعة: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ)؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ»، وهذا نهي يقتضي التحريم، وكذلك قوله عَزَّجَلَّ: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ» فدل على التحريم والنهي عن ذلك.

❖ قوله: (الثانية: تَسْمِيَّتُهُ أَذَى اللَّهِ) الله عَزَّجَلَّ يتأذى بأفعال عباده

وأقوالهم، لكنه لا يتضرر بذلك، وفرق بين التأذى والتضرر.

❖ قوله: (الثالثة: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»)

وتأخذ من قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» أن الدهر من أسماء الله، بل اقرأ الحديث كله، فإن النصوص بعضها يفسر بعضها.

❖ قوله: (الرابعة: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ)

هذه مسألة مهمة جداً، المسلم لا يقصد أذية الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه ليس مثل المشرك، فقد يجري على لسان المؤمن سب الدهر، لكنه لا يقصد أذية الله، ولا يقصد أن الدهر هو الذي يتصرف، ولكن مع هذا الله يتأذى به، ولو لم يقصده بقلبه،



.....

فدل على أن هذا ممنوع، ولو كان الإنسان يقول بلسانه دون اعتقاد، أما إذا كان معه اعتقاد، فإنه يصير كافرًا.



٤٥ - بَابُ

التَّسْمِي بِقَاضِي الْقَضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنْ أَخْنَعَ اسْمُ عِنْدَ اللَّهِ: رَجُلٌ تَسْمَى: مَلِكُ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ»، قَالَ سُفْيَانُ مِثْلُ شَاهَانُ شَاهُ^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيِظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبِثُهُ»^(٢).
قَوْلُهُ (أَخْنَعَ): يَعْنِي أَوْضَعَ.

قوله: [فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنْ أَخْنَعَ اسْمُ عِنْدَ اللَّهِ: رَجُلٌ تَسْمَى: مَلِكُ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ»]؛ لَأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ إِنَّمَا يَصْدُقُ عَلَى اللَّهِ، فَهُوَ مَلِكُ الْأَمْلَاكِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَلِكُ فِي الْحَقِيقَةِ، لَهُ الْمَلِكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَتَصَرَّفُ فِي الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾^(٣) الْآيَةُ [آل عمران: ٢٦].

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْظَّمَ الْمَخْلُوقُ بِمَا يُشَبِّهُ مَا يُعْظَّمُ بِهِ الْخَالِقُ جَلَّ وَعَلَا، وَمَا كَانَ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَنْهَى عَنْهُ، كَالَّذِي تَرْجَمُ بِهِ الْمَصْنَفُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْدُقُ هَذَا الْمَعْنَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ، فَلَا يَصْلَحُ أَنْ يُسَمَّى بِهِ الْمَخْلُوقُ؛ لِأَنَّ كُلَّ لَفْظٍ يَقْتَضِي التَّعْظِيمَ وَالْكَهَالُ لَا يَكُونُ إِلَّا لَهُ تَعَالَى وَتَقَدُّسٌ دُونَ غَيْرِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٢٠٦)، وَمُسْلِمٌ [ح ٢١ (٢١٤٣)].

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ [ح ٢٢ (٢١٤٣)].

قوله: (قَالَ سُفْيَانُ مِثْلُ شَاهَانُ شَاه): عند العجم عبارة عن ملك الأملاك، ولهذا مثل به سفیان.

قوله: [وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغِيظُ رَجُلًا عَلَى اللَّهِ»]، أغيط: من الغيظ، وهو مثل الغضب والبغض، فيكون بغيضاً إلى الله مغضوباً عليه، وهذا من الصفات التي تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تمثيل، والله أعلم.

قوله: «وَأَخْبَنُهُ»: وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله إذا رضي بذلك؛ لتعظيم الناس له بما لا يستحقه، وعدم إنكاره وكرهته لذلك.

قوله: [(أَخْنَعَ): يَعْنِي أَوْضَعَ]: وهذا المذكور ينافي كمال التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص، فيكون فيه شائبة من الشرك، وإن لم يكن أكبر.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب في النّهي عن التسمّي بالأسماء الضخمة التي فيها العظمة التي لا تليق إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا مما يُغض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو بذلك مشابه للباب الذي قبله؛ لأن الباب الذي قبله فيه النّهي عن مسبة الدهر، لأن ذلك يؤذي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فسبّ الدهر يؤذي الله، وهذا يغيط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلا الأمرين محرّم شديد التحريم.

ثم يأتي بعد هذا الباب: (باب احترام أسماء الله)، وهو كذلك يُشبه هذين البابين.

فهذه الأبواب الثلاثة بعضها يشبه بعضاً، لكنها لما كانت متنوعة نوعاً
المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، من أجل أن يُعرف كل منها مفصلاً؛ لأنَّ أمور التوحيد لا بدَّ
فيها من التفصيل والبيان، ولا يكفي فيها الإجمال والاختصار.

❁ قوله: (التَّسْمِي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ) يعني: كل اسم فيه تعظيمٌ
شديد للمخلوق من الألقاب والأسماء التي فيها تعظيم لا يليق إلا بالله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل: ملك الأملاك، وسيد السادات، وما أشبه ذلك من الألقاب
الضخمة التي يتلقب أو يتسمّى بها بعض الجبابرة أو المستكبرين.

وكلُّ هذا محرّم ومنهْيٌّ عنه؛ لأنَّ المطلوب من المخلوق التواضع مع الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتجنُّب ما فيه تزكية للنفس أو تعظيم للنفس، ولأنَّه يحمل على
الكبر والإعجاب، وخروج الإنسان عن طوره ووضعه الصحيح.

والتسمي بهذه الأسماء يُحِلُّ بعقيدة التوحيد، لأنَّ عقيدة التوحيد تدور
على تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن المشابهة والمماثلة، فمن تسمّى باسم لا يليق إلا بالله
على وجه التعاضُّم، فقد تشبه بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمثلاً: (قاضي القضاة) هذا لا يليق إلا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو
الذي يقضي بين الناس يوم القيامة القضاء النهائي، يقضي بين جميع الخلق،
ملوكهم وعامتهم، وعلماهم وعوامهم، فالقضاء المطلق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
أما القاضي من الناس فإنه لا يقضي بين كل الناس، وإنما يقضي بين فئات
قليلة من الناس، إما في بلد وإما في قضية خاصّة، ثم إن قضاءه قد يكون

صواباً وقد يكون خطأً، أما قضاء الله عَزَّوَجَلَّ فلا يكون إلا حقاً وصواباً، ولا يتطرق إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خطأ ولا نقص.

فدل ذلك على أن كلمة (قَاضِي الْقُضَاةِ) فيها تعظيم زائد، ومنح للمخلوق صفة لا يستحقُّها، ومرتبة لا يرقى إليها.

فإذا كان هناك قاضٍ كبيرٌ يُرجع إليه في أمور القضاء وتنظيماته ومجرياته، فالمناسب في حقه أن يُقال: رئيس القضاة، ولا يُقال: قاضي القضاة. وكذلك لا يُقال لأحد من المخلوقين: (مَلِكُ الْأَمْلَاكِ)؛ لأن المُلْكَ المطلق لله عَزَّوَجَلَّ، وهو المُلْكُ الدائم الشامل، أما ملك المخلوق فهو مُلْكٌ جزئي ومؤقت.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ترجم بقاضي القضاة؛ لأنها كلمة تدخل في (مَلِكِ الْأَمْلَاكِ)، فإذا نُهي عن إحداها شمل النهي الأخرى؛ لأن كلا من اللفظتين فيهما التعظيم الزائد عن حقِّ المخلوق. وكذلك ملك المخلوق مِنْحَةٌ وعَارِيَّةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم يملك هذا المُلْكُ بحوله ولا قوَّته، وإنما الله هو الذي ملكه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، هو سبحانه الذي يعطي الملك لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء، أما ملك الله عَزَّوَجَلَّ فإنه مُلْكٌ حقيقيٌّ عام دائم.

❁ ثم ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي هريرة الذي في صحيح مسلم، وفيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ أَخْنَعَ»، وفسرها بقوله في آخر الباب: ((أَخْنَعَ): يَعْنِي أَوْضَعَ)، فإذا أُطلق على المخلوق (مَلِكُ الْأَمْلَاكِ) فإنه يكون

بهذه الكلمة وضيعةً عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن كان مقصود صاحبها الرِّفعة والعلو، فإنَّ الله يجازيه بنقيض قصده، ويجعله وضيعةً؛ كما جاء في الحديث الآخر: «يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»^(١)، وذلك معاملةً لهم بنقيض قصدهم.

❖ قوله: «رَجُلٌ تَسَمَّى» أي: سَمِيَ نَفْسَهُ، وفي رواية: «يُسَمَّى»^(٢) بالياء، أي: سَمَاهُ غَيْرُهُ وَرَضِيَ هُوَ بِذَلِكَ وَلَمْ يُنْكِرْهُ.

فهذا فيه سوء أدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعاظُمُ ورفعة لا يستحقُّها المخلوق، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْأُخْرَىٰ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، فالمؤمن وإن تولى ومَلَكَ فَإِنَّهُ لَا يُرِيدُ الْعُلُوَّ، وإنَّما يريد بالولاية والمُلْكُ الإصلاح والعدل بين النَّاسِ، فإذا كان هذا قصده صار من أحبِّ الخلق إلى الله عَزَّجَلَّ.

فلا يُفْهَمُ من هذا الحديث النَّهْيُ عَنْ تَوَلَّى الْمُلْكَ، إنما تَوَلَّى السُّلْطَةَ والحكم مطلوب إذا كان القصد الإصلاح، ولا عيب في ذلك، إنما العيب في القصد السيِّئ، فإنَّ كان قصده من تَوَلَّى الْمُلْكَ الْعِظَمَةَ والكبرياء والتَّجَبُّرُ صار مُهَانًا عند الله عَزَّجَلَّ، وإنَّ كان قصده الإصلاح والعدل وإقامة الحق في الأرض صار مأجورًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل أَجْرُهُ عَظِيمٌ، ومن الذين تُسْتَجَابُ دَعْوَتُهُمْ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد في المسند (١٧٩/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٩٦) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) أخرجه مسلم [ح ٢٢ (٢١٤٣)].

❁ قوله: (قَالَ سُفْيَانُ): هو سفيان بن عُيَيْنَةَ، الإمام المحدث الجليل، (مِثْلُ شَاهَانِ شَاهٍ) وهي تعني عند العجم: (ملك الملوك). ومقصود سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا أن يُبَيِّنَ أَنَّ هذا اللَّقْبَ مَمْنُوعٌ في جميع اللِّغَاتِ، سواء بالعربيَّة أو بالأعجميَّة؛ لأن المعنى واحد.

❁ قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ»): هذا أفعل تفضيل، والغیظ: شدَّة الغضب.

وصفات الغیظ والغضب والكرهه والبغض في حق الله تثبت كما جاءت، ولا تؤول مثل ما يفعل المؤولة، إنما يُقال: هذا غیظ يليق بالله، وغضب يليق بالله، وكرهه تليق بالله، وليس كغضب المخلوق، ولا كغیظ المخلوق، ولا مثل كراهه المخلوق، إنما هي صفات كسائر صفاته سبحانه خاصة به، وإن كان يوجد لفظها في المخلوقين إلا أن هذا خاص بالمخلوقين، فالرب له صفات تناسبه، والمخلوق له صفات تناسبه، وإن اشتركت في اللفظ والمعنى لكنها لا تشترك في الحقيقة والكنه والكيفية، وهذه قاعدة معروفة في الأسماء والصفات.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: النَّهْيُ عَنِ التَّسْمِي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ، كَمَا قَالَ سَفِيَانُ.

الثَّالِثَةُ: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الرَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِإِجْلَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله: (الأُولَى: النَّهْيُ عَنِ التَّسْمِي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ)، هذا واضح،

هذا من لفظ الحديث.

✽ قوله: (الثَّانِيَّةُ: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ، كَمَا قَالَ سَفِيَانُ) أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ

يقاس عليه مثل: قاضي القضاة، وملك الملوك، وشاهان شاه، فالمعنى واحد.

✽ قوله: (الثَّالِثَةُ: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ

لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ) هذا إذا جرى على اللسان فقط بدون اعتقاد القلب، أما إذا

اعتقد القلب أَنَّ فُلَانًا هو ملك الملوك، أو أَنَّ فُلَانًا هو قاضي القضاة، وأنه

يستحق هذا التعظيم، فإن هذا كفر، أما إذا جرى على لسانه ولم يقصده بقلبه

فهذا منهي عنه.

✽ قوله: (الرَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِإِجْلَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ) أَنَّ الامتناع من

هذا الشيء والنهي عنه لِإِجْلَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعْلَالِ وَتَعْظِيمِهِ.



٤٦- بَابُ

احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرِ الْأَسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

... — الشَّيْخُ — ...

الله عَزَّجَلَّ له أسماء كثيرة أسماء حسنى؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والأسماء: جمع اسم، مأخوذ من السمو وهو الارتفاع، أو من السمة وهي العلامة، فالاسم ما يميز المسمى عن غيره، وأسماء الله عَزَّجَلَّ كلها حسنى بمعنى أنها تدل على معان جليلة، وتتضمن صفات لله عَزَّجَلَّ، فكل اسم من أسمائه عَزَّجَلَّ يتضمن صفة من صفاته، فكلها أسماء حسنى، منها ما بينه الله في كتابه، ومنها ما بينه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، ومنها ما استأثر بعلمه الله عَزَّجَلَّ، ولم يبينه لعباده، فلا يعلم عدد أسمائه إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتعدد الأسماء يدل على عظم المسمى، فيجب احترام أسماء الله، أي: تعظيمها وإجلالها وتوقيرها، وعدم الاستهانة بها.

ومن إهانة أسماء الله التسمي بها، أي: إطلاقها على المخلوق، فمن تسمى بشيء منها فإنه يجب عليه أن يغير هذا الاسم، فالواجب شيثان:

أولاً: احترام أسماء الله عَزَّجَلَّ.

ثانياً: تغيير اسم من تسمى بأسماء الله؛ لأجل احترام أسماء الله.

وهذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذه الترجمة، وذلك من كمال توحيد الله عَزَّجَلَّ الكمال الواجب.

والمراد بالأسماء التي لا يجوز أن يتسمى بها المخلوق: الأسماء الخاصة بالله؛ كلفظ الجلالة: الله، والرحمن، ورب العالمين، فهذه أسماء خاصة بالله لا يجوز لأحد أن يتسمى بها.

أما بقية الأسماء فقد تُطلق على المخلوق وتكون معانيها خاصة بالمخلوق ولائقة به؛ كالسميع، والبصير، والعزیز، والملك، والرؤوف، والرحيم، وما أشبه ذلك، هذه يتسمى بها المخلوق لكن مع الفرق بين أسماء الله من هذه الأسماء وأسماء المخلوق، فأسماء الله تليق بجلاله وعظمته، وأسماء المخلوق تليق به.

فالأسماء التي يحرم التسمي بها ما كان خاصاً بالله عَزَّجَلَّ، ومن تسمى بها أو سُمي أحداً بها فقد ألحد في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فمن الإلحاد في أسماء الله تسمية المخلوقات بها، كما قالوا عن العزى -الصنم المعروف- أنها مأخوذة من العزيز، وأن اللات مأخوذة من اسم الجلالة من الله، وأن مناة مأخوذة من المنان!!

فإن كان تسمية المخلوقات بها من الإلحاد فيها، كان - من باب أولى - إنكارها ونفيها عن الله من أعظم الإلحاد، كما فعلت الجهمية ومن شباههم من نفاة الأسماء والصفات.

وكذلك من الإلحاد فيها تأويلها على غير معناها الصحيح، كما فعلت المعتزلة والأشاعرة من تأويل أسماء الله عن معانيها الصحيحة إلى معاني لم يردها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا كله من الاستهانة بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك من الاستهانة بها إلقاؤها في الأرض ليطأها الناس، أو إلقاؤها بين القاذورات والأوساخ، فمن فعل ذلك بقصد إهانتها فإنه يكفر بذلك، فإذا وطئها بقدمه، أو ألقاها في القاذورات أو في المزابل قاصداً ذلك، فإنه بذلك يصير مرتدّاً دين الإسلام، وأما إذا لم يقصد ذلك، ولكنه لم ينتبه لهذا الشيء، فهذا محرم، ولا يقتضي الردة؛ لأنه لم يفعل ذلك قاصداً إهانتها، وإنما فعله غفلة أو جهلاً منه، فعلى كل حال أسماء الله يجب احترامها وتعظيمها وتوقيرها وإجلالها.



عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبُو الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبُو الْحَكَمِ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِي كِلَا الْقَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنْ أَوْلَدٍ؟» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ^(١).

قوله: [عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ]: هو الخزاعي، اسمه: خويلد بن عمرو، أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثاً، اتفقا على حديثين، وانفرد البخاري بحديث. وعنه أبو سعيد المقبري، ونافع بن جبير، وطائفة، قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين^(٢).

قوله: (يُكْنَى)، الكنية: ما صُدِّرَ بِأَبٍ أَوْ أُمٍّ ونحو ذلك؛ كأبي محمد، واللقب: ما ليس كذلك؛ كزَيْنِ العابدين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» أي: هو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا وله فيها حكم مما أنزله على نبيه من الكتاب والحكمة، لكن قد يخفى على المجتهد، فإن المجتهدين وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً، فمن رزقه الله قوة الفهم،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي في الكبرى (٤٦٦/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٧/٢)، والطبراني في الكبير (٤٦٥)، والحاكم في المستدرک (٧٥/١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٤٥).
(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٢٩٥/٤).

وأعطاه مَلَكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء، أدرك ما هو الصواب من ذلك.

وقوله: «إِلَيْهِ انْحُكْمُ» في الدنيا والآخرة؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ قَدْ دُوِّهِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩]. فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

قوله: «إِنْ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتُونِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ»: والمعنى -والله أعلم-: أن أبا شريح كان مرضياً عندهم، يتحرى ما يصلحهم إذا اختلفوا، فيرضون صلحه، فسموه حكماً، وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب ونحوهم من سوائف آبائهم وأهوائهم، فليس من هذا الباب؛ لما فيه من النهي الشديد، والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه، ويحكم بما كانوا يحكمون به، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»، فكناه بالكبير، وهو السنة، وغير كنيته بأبي الحكم؛ لأن الله هو الحكم على الإطلاق، ومنه

تسمية الأئمة بالحكام، فينبغي ترك ذلك والنهي عنه لهذا الحديث، وهذا قد حدث في الناس قريباً.

... — الشَّيْخُ — ...

استدل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لهذه الترجمة بهذا الحديث، وهو حديث أبي شريح: أنه كان يُكنى أبا الحكم.

والكنية: ما صُدِّرَ بأب أو أم، وتكون للتكريم، مثل: أبو عبد الله، أبو محمد، أبو خالد، ومثل: أم عبد الله، وأم محمد.

أما اللقب: فهو ما أشعر بمدح أو ذم، فيستعمل لمدح مثل: زين العابدين، وشيخ الإسلام، ويستعمل لذم مثل: الكذاب، والذميم، وسفيه قومه. ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، فإذا كان اللقب يشعر بزم وتنقص للشخص فإنه لا يجوز استعماله.

فهذا الرجل كان يُكنى أبا الحكم، فلما سمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك استنكره، وقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ النُّحُومُ»، أي: لا يليق بك أن تتسمى أو تتكنى بهذه الكنية، هذا هو وجه الشاهد من الحديث للترجمة أنه لا يجوز للعبد التكني بمثل هذه الكنية؛ لأن الحكم هو الله.

فأبو شريح بين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السبب في هذه التسمية، وأنه لم يسم نفسه بذلك، وإنما الناس هم الذين أطلقوها عليه لسبب، وهو أنه كان إذا اختلف قومه في شيء رجعوا إليه، فحكم بينهم، فرضي كلا الفريقين بحكمه، أي: كان يقوم بالإصلاح بين الناس، وهذا أمر طيب، ولهذا قال

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا»، والله عَزَّجَلَّ يقول في آية سورة النساء: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، ويقول عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فالصلح مطلوب، ولكن الصلح ليس فيه إلزام، وإنما فيه تراضٍ، ولهذا قال أبو شريح: «فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ»، أما الصلح الذي يكون معه إلزام لأحد الطرفين هذا لا يجوز؛ لأنه ظلم، الصلح يمشي على الرضى والتراضى.

أما الذي يحكم بين الناس بغير كتاب الله وسنة رسوله، ويلزمهم بذلك؛ كالقوانين الوضعية، أو عوائد وسوالم البادية، والعوارف القبلية، فهذا حكم بغير ما أنزل الله، وهو من حكم الطاغوت، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. فلا يجوز الإلزام إلا بما في كتاب الله أو في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما الصلح الذي يجري بين الناس فهذا لا يصح إلا مع التراضى من الطرفين، فإن لم يتراضوا فلا بد من الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك بالذهاب إلى القضاة والمحاكم الشرعية.

وقد أنزل الله عَزَّجَلَّ هذا القرآن حاكماً بين الناس، وشاملاً لجميع منازعاتهم، فما من قضية إلا وفي القرآن حكمها، ولكن الناس قد لا يدركون هذه الأحكام من القرآن ولا يتوصلون إليها، وإلا فالقرآن في حد ذاته شامل لجميع ما يتنازع فيه الناس، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿ [الفرقان: ٣٣]، لكن أفهام الناس تختلف، لكن الواجب على الحكام والعلماء الاجتهاد، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»^(١)، وخطؤه مغفور؛ لأنه لم يتعمد الخطأ.

وكذلك سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شك أنها مشتملة على حلول مشاكل الناس، ولكن إن حصل تقصير أو تفريط فهو من العباد أنفسهم، فالذي يقول: إن القرآن لا يصلح، والسنة لا تصلح في هذا الوقت للحكم في القضايا العصرية، إنها هي لوقت مضى من عصور ماضية، فهذا كافر مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه اتهم كتاب الله بالنقص، واتهم سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنقص وعدم الصلاحية. فالعيب فينا وليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهما كاملان شاملان لكل شيء.

وليس هذا خاصًا بالنزاع في مسائل الأموال أو الخصومات، بل هذا عام في كل الخلافات، خلافات في الأقوال الفقهية، والأقوال العقائدية، كل خلاف فإنه يجب الرجوع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن باب أولى مسائل العقيدة، ومسائل المذاهب والاجتهادات الفقهية، فإنه يجب عرضها على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأخذ بها دل عليه الدليل من أقوال العلماء، وأقوال المجتهدين.

الحاصل: أن الصلح بين الناس إذا لم يكن مخالفاً ومعارضاً لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورضي به الطرفان، فإنه خير؛ لقوله

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَزَّجَلْ: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]؛ لأنه يُذهب الأحقاد والضغائن، ويحصل به التراضي.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» الولد: يشمل الذكور والإناث، فقال: «شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «هَإِنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»، فكناه بابنه الأكبر. ففي هذا دليل على أن الرجل يُكنى بابنه، فيقال: أبو فلان، ويجوز أن يُكنى ولو لم يكن له ولد، فيقال: أبو فلان.

وفيه أن الكنية تكون بأكبر الأولاد؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كناه بأكبر أولاده، وهذا هو المشروع.

وفي الحديث دليل على إنكار المنكر؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر هذا المنكر لما سمعه، وفيه دليل على التماس البديل الصالح، فإذا رأيت منكراً وأردت أن تمنعه وله بديل صالح، فإنك تأتي بالبديل؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما منع التكني بأبي الحكم أتى بالبديل الصالح، وهو التكني بأكبر الأولاد.

وفي الحديث دليل على وجوب احترام أسماء الله عزَّجَلْ، ويدل أيضاً على ما ذكره المصنف، وهو: (وَتَغْيِيرِ الْأَسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ)، أي: من أجل احترام أسماء الله، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيّر هذا الاسم إلى اسم لا محذور فيه.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: إِحْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الثانية: تَغْيِيرُ الْأَسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

الثالثة: إِخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأولى: إِحْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ) هذا ظاهر من الحديث أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فعل هذا وغير كنية هذا الصحابي من أبي الحكم إلى أبي شريح إلا احتراماً لأسماء الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأبو شريح ما قصد هذا ولا سمى نفسه بذلك، وإنما الناس هم الذين سموه بذلك، فدل على أنه يغير ولو لم يقصد هذا.

❁ قوله: (الثانية: تَغْيِيرُ الْأَسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ) وهذا ما فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يكتف بالنهي عن الأسماء التي لا يجوز التسمي بها، وإنما غيّر كنية هذا الرجل بكنية أخرى تليق به، وليس فيها اعتداء وعدم احترام لأسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ قوله: (الثالثة: إِخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ) ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل الصحابي عن أكبر أبنائه، ثم كناه به، فهذه هي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٤٧- بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ

فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ -دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ-: «أَنَّه قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بَطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجَبْنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَاءَ - فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَا خَيْرَ نَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنَسْعَةٍ^(١) نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ لَتَنكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾».

قوله: [بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ]، أي: فقد كفر.

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٤٧): (النَّسْعَةُ بالكسر: سَيْرٌ مَضْفُورٌ يُجْعَلُ زِمَامًا لِلْبَعِيرِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ تُنْسَجُ عَرِيضَةٌ تُجْعَلُ عَلَى صَدْرِ الْبَعِيرِ، وَالْجَمْعُ: نُسُوعٌ وَنَسْعٌ وَأُنْسَاعٌ). وانظر لسان العرب (٨/ ٣٥٢).

وقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية: قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في تفسيره: (قال أبو معشر المدني، عن محمد بن كعب القرظي وغيره، قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبنا عند اللقاء. فرفع ذلك لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فقال: ﴿أَبِاللهِ وَءَايِنِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾، وإن رجليه لينسفان الحجاره، وما يلتفت إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو متعلق بنسعة ناقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: ﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به، ﴿إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦] أي: لا يُعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضهم، بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة). انتهى (١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وقد أمره الله أن يقول: ﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم: لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يُقال قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد: إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٨).

إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين) اهـ^(١).

وفيه بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها، أو عمل يعمل به، وأشدّها خطرًا إرادات القلوب، فهي كالبحر الذي لا ساحل له، ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله، وعدم احترامهم لأجله.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا باب عظيم في بيان حكم من استهزأ بالله، أو برسوله، أو بأمور الدين والشرعية، سواء في ذلك أكان هازلاً أم جاداً.

❁ قوله: (بَابُ مَنْ هَزَلَ)، والهزل: ضد الجد، ومعناه: اللعب والمزح، (مَنْ هَزَلَ شَيْءٌ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ) أي: لو استهزأ بالله، أو بالقرآن فضحك من آياته من باب السخرية أو من باب التنقص، أو استهزأ بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتنقصه، أو تنقص سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما حكم من فعل هذه الأشياء؟

المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ترك الحكم في الترجمة، وأورد قول الله عَزَّجَلَّ: ❁ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ❁ لأن حكم من يفعل ذلك ظاهر في هذه الآية.

ثم ذكر سبب نزول هذه الآية، وهو ما حصل في غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت تتصف بالشدة من ناحية

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٢).

بعد المسافة؛ لبعد تبوك عن المدينة، ومن ناحية الوقت؛ لأنها كانت في وقت الصيف في شدة الحر، ووقت طيب الثمار، وهم متشوقون إلى الثمار، فالله أراد أن يختبر المؤمنين؛ ليظهر المؤمن من المنافق، فجاءت غزوة تبوك ممتحنة الناس حكمة من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكذلك لم يكن العدو فيها هيئاً سهلاً، إنما خرج النبي في هذه الغزوة لملاقاة الروم، والروم كان عندهم بأس وقوة.

فهذه الغزوة اجتمعت فيها شدائد كثيرة، منها:

أولاً: أنها بعيدة المسافة، قال عَزَّجَلَّ في حق المنافقين الذين تخلفوا عن هذه الغزوة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكُمْ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢].

ثانياً: أنها كانت في وقت شديد الحر، قال عَزَّجَلَّ عن المنافقين: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

ثالثاً: أنها كانت في موسم طيب الثمار، والناس بحاجة إلى جمع الثمار والأكل منها؛ لأنهم أهل جوع وأهل فاقة.

رابعاً: أنهم خرجوا لملاقاة عدو شديد البأس، فقد كان الروم أكبر دولة على وجه الأرض في ذلك الوقت.

وقد بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الروم يعدون العدة لغزو المسلمين، فبادر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبل أن يأتوا، وصرح لأصحابه بالغزوة، وكان في الغزوات التي قبلها لا يبين لهم وجهته، فكانوا يخرجون معه ولا يدرون أين يذهبون،

إلا هذه الغزوة، فقد صرح أنه يريد الروم، وأن وجهته إلى تبوك، فعند ذلك تخاذل المنافقون، فمنهم من اعتذر ولم يخرج مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن له عذر إلا الخوف من الروم، والرغبة في الراحة والظل، والأكل من الشمار، وعدم تجشم المشقة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُولُ أَثْدَنَ لِي وَلَا نَفْتَنِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ نِيَعَانَهُمْ فَبَطَلَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، ومنهم من خرج مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحصل منه ما حصل، مثل ما ذكر الله في هذه الآية.

وأما أهل الإيمان فلم يترددوا في الخروج مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خرجوا طيبة نفوسهم مغتبطين، صابرين محتسبين، فتميز المؤمن من المنافق، فأنزل الله سورة التوبة، والتي تُسمى: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، وهتكت أستارهم. فهي سورة عظيمة بينت ضغائن المنافقين، إذا قرأتها تجد فيها العجب العجيب، وأثنى الله فيها على المؤمنين ثناء عظيمًا، ووعدهم بعظيم الأجر والثواب، هؤلاء الذين صدقوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم تنهم المشقة ولا قوة العدو وشدة بأسه.

ولما علم الروم بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إليهم، وأنه نزل في تبوك بمن معه من المسلمين، أصابهم الرعب فلم يتحركوا من مكانهم، ومكث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تبوك عشرين يومًا ينتظر، فلما لم يأتوا قفل

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة سالمًا هو وأصحابه، لم ينلهم سوء من العدو، وكبت الله عدوهم، وألقى الرعب في قلوب الروم.

هذه غزوة تبوك وما فيها من الأسرار والحكم والعبر والعظات، وهي آخر غزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان فيها اختبار وامتحان من الله عزَّ وجلَّ، فنجح أهل الإيِّمان، وأخفق أهل النفاق، الذين يدَّعون الإيِّمان وهم كاذبون، وهكذا المحن يتيين فيها المؤمن الصادق من المنافق.

أما أوقات الرخاء وطيب العيش، لا يُعرف من الناس المؤمن من المنافق، كلهم يدَّعون الإيِّمان والإسلام، فإذا أتت الشدائد تبين المؤمن من المنافق.

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قفل من تبوك، وكان في جيشه بعض المنافقين وضعاف الإيِّمان، تجاذبوا الحديث فيما بينهم يقطعون به عناء السفر، فقال بعضهم: (مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا)، يعني: أنهم يحبون الأكل والشرب، (وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ)، يعنون بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فكان شاب من شباب الأنصار حاضراً، وهو عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال للمتكلم: (كَذَّبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ)، أنكر عليه، وكان المتكلم واحداً وبقية من كانوا معه سكتوا، فصار حكمهم حكم المتكلم؛ لأنهم لم ينكروا عليه، فأتى عوف بن مالك مسرعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلغيه بما قاله المنافق، فوجد الوحي قد سبقه، وأنزل الله على رسوله هذه الآية: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

فلما حصلت هذه الحادثة أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحيل؛ لأجل أن يفسد الخطة على المنافقين، وعلم هذا الرجل الذي تكلم في حق النبي وأصحابه أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغه الخبر، فجاء إليه ليعتذر ويقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يلتفت إليه، ولم يزد أن يقول له: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، فما زال هذا الرجل متعلقاً بنسعة ناقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتذر، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يلتفت إليه، ولا يزيد على تلاوة الآية الكريمة.

وقد كانت هذه المقولة من رجل واحد، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فأسند مقالة الرجل إلى الجالسين معه؛ لأنهم لم ينكروا عليه، فدل على أن من لا ينكر المنكر فإن حكمه يكون كحكم فاعل المنكر، وأن من تكلم بالردة ولم يرد عليه الحاضر فإنه يكون مرتدًا مثله؛ لأنه رضي بذلك.

ومن تأمل قول هذا المنافق وجد العجب العجاب، فقوله عن صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَرْغَبَ بُطُونًا) يعني: يحبون الأكل بشراهة، وهل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحبون الأكل؟! الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقومون ويصومون، ويقاثلون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحياناً وليس معهم ما يأكلونه، وقد يأكلون ورق الشجر، أو يأكلون الجراد، وأحياناً يكون معهم تمرات قليلة يقتاتونها. وهذا المنافق يقول عنهم: (أَرْغَبَ بُطُونًا)، وهذه صفات المنافقين خلعوها على المسلمين، لكن كما يُقال: رمتني بدائها وانسلت^(١).

(١) هذا المثل لإحدى ضرائرهم بنت الخزرج، امرأة سعد بن زيد مناة، رمتها رهم بعيب كان =

❁ قوله: (وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً) وهل الرسول والصحابة يكذبون؟! إنما هذه هي أبرز صفات المنافقين، وحال هذا المنافق يشهد على ذلك.

❁ قوله: (وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ) إذا كان الصحابة جناء، فمن الذين غزوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاهدوا معه؟! ومن الذين فتحوا الفتوح بعده، ونشروا الإسلام؟! لا شك أن الجبن والتخلف عن لقاء العدو من صفات المنافقين، أما الصحابة فشجاعتهم وإقدامهم على الجهاد لا تخفى على كل ذي بصيرة.

فلما سمعه عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول ذلك ذهب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخبره بأمر ذلك المنافق، فوجد القرآن قد سبقه، وفي هذا دليل على وجوب إنكار المنكر، وفيه سعة علم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله علم مقالتهم وسمعها من فوق سبع سموات، فأنزل الوحي على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما علم هذا المنافق أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلغته مقالته، أسرع إليه معذراً، ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقبل اعتذاره؛ لأن الله لم يقبل عذره، وأمره أن يقول له: ﴿أَبَا اللَّهِ وَأَيُّنِيهِ وَرَسُولِي كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، فامتثل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الله عَزَّجَلَّ، وقال له ما أنزله الله في حقه، ونسب هذا القول إلى الجماعة مع أن المتكلم والمراجع واحد؛ لأن الذين شهدوا المجلس الذي قيل فيه هذا القول، ولم ينكروه، صار حكمهم حكم قائله والعياذ بالله.

=فيها، فقالت الضرة: «رمتني بدائها وانسلت». انظر: مجمع الأمثال (١/ ١٠٢)، وجمهرة الأمثال (١/ ٤٧٥).

وفي الحديث دليل على أن الإنسان إذا تكلم بكلام الكفر، فإنه يكفر، ولو لم يعتقد هذا بقلبه، وإذا فعل الكفر يكفر، وإذا فعل الشرك يشرك، ولو لم يعتقد بقلبه؛ لأن هؤلاء يقولون: إنما كنا نخوض ونلعب، يعني ما قصدنا هذا في قلوبنا، وأيضاً هم كانوا مؤمنين ثم ارتدوا بسبب استهزائهم بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته؛ لأن الله عَزَّجَلَّ قال في حقهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فلو كانوا منافقين من قبل لما قال: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ لأن المنافق كافر في الأصل، فدل على أن هؤلاء النفر كانوا مؤمنين، فلما تكلموا بهذا الكلام -والعياذ بالله- ارتدوا عن دين الإسلام، وأما المنافقون فقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، ولم يقل: بعد إيمانهم، فدل على أن المنافق يُقال له مسلم؛ لأنه استسلم وانقاد ظاهراً، لكن لا يُقال له: مؤمن.

وهذا الذي حدث من هؤلاء المنافقين على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحدث مثله في مجالس أكثر الناس اليوم، وخصوصاً المتعالمين، والذين يزعمون الغيرة على الدين، فلا تطيب لهم مجالسهم إلا بالكلام على أهل العلم، وتنقص أهل العلم بأنهم ليسوا بشيء، وأنهم مدهنون، وأنهم عملاء للسلطين... إلى آخره، نسأل الله العافية، ولذا يجب الحذر من الخوض في مثل هذا الكلام؛ لأنه قد يوصل صحابه إلى الكفر بعد الإيثار والعياذ بالله.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: وَهِيَ الْعَظِيمَةُ: أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ.
 الثانية: أَنَّ هَذَا هُوَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَاتِنًا مَنْ كَانَ.
 الثالثة: الْفَرْقُ بَيْنُ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.
 الرابعة: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ.
 الخامسة: أَنَّ مِنَ الْأَعْدَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله: (الأولى: وَهِيَ الْعَظِيمَةُ: أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ) أي: يكون كافراً مطلقاً، ولو لم يعتقد ما قاله، ولو قاله على سبيل الهزل والتسلية، وهذه فائدة عظيمة جداً فيها رد على المرجئة، الذين يخرجون العمل عن مسمى الإيمان.

✽ قوله: (الثانية: أَنَّ هَذَا هُوَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَاتِنًا مَنْ كَانَ) ولو كان غير منافق في الأصل، ولو كان مؤمناً صادق الإيمان ثم حصل منه ذلك، حكمه أنه ارتد عن دين الإسلام. وهذا يدل على خطورة اللسان، وأن العبد ينبغي عليه أن يحفظ لسانه من هذه الأمور.

✽ قوله: (الثالثة: الْفَرْقُ بَيْنُ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ)؛ لأن عوف ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ذهب إلى الرسول وأخبره، لم ينكر عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يقل له: أنت نمام. بل قبل منه لأنه ناصح، فدل على الفرق بين النصيحة والنميمة، فمن جاء يبلغ ولي الأمر عن أناس مفسدين يخططون لضرر

المسلمين، فإن فعله هذا من النصيحة لولاة الأمر وليس من النسيمة، وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(١).

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ) الله عَزَّجَلَّ أمر بالعفو، لكن العفو في محله، وأما إذا كان العفو في غير محله فلا يجوز، ومن ذلك العفو عن أعداء الله.

والمتنبى يقول:

وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ فِي الْغُلَا

مُضِرٌّ كَوَضَعَ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى^(٢)

فالعفو له مواضع، والغلظة لها مواضع، فلا بد من الحزم مع الكفار والمنافقين ودعاة الضلال.

❁ قوله: (الْخَامِسَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَعْذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ) ذلك أن نواقض الإسلام لا يُعذر فيها بالمرح واللعب؛ لأنها ليست مجالاً لذلك، وإنما يُعذر فيها المكروه على القول وقلبه مطمئن بالإيمان.



(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكره البخاري معلقاً (ص ١٨) قال: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

(٢) انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (١/ ٢٥١)، والحياسة المغربية (١/ ٤٤٦).

٤٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مُحَقِّقٌ بِهِ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ»^(٣).

وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»^(٤).

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيْتُهُ عَلَى شَرَفٍ»^(٥).

قَوْلُهُ: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ الآية]: ذكر المصنف رَحْمَةً اللَّهِ تَعَالَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَكْفِي وَيُشْفِي فِي الْمَعْنَى، قَالَ: [قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مُحَقِّقٌ بِهِ»]. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي».

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/٢٥)، وأخرجه البخاري معلقاً، باب تفسير سورة حم السجدة فصلت (ص ٩٠٥، ٩٠٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٧٣/١٥).

(٣) انظر: تفسير الثعالبي (٦٠/٤)، وتفسير البحر المحيط (٤١٥/٧)، وشفاء العليل (ص ٣٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠١٢/٩) عن السدي، وانظر: تفسير الطبري (١٢/٢٤).

(٥) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٢/٢٤).

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال قتادة: [...] الخ، وليس ما ذكره اختلافًا، وإنما هو أفراد المعنى.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية) أي: ما جاء من تفسير هذه الآية، من نسبة النعم إلى غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدم شكرها، فإن هذا ينقص التوحيد، وهذا مناسبة ذكر هذا الباب في كتاب التوحيد، أن نسبة النعم إلى غير الله وعدم شكرها أنه نقص في التوحيد، ونسبة النعم إلى الله عَزَّجَلَّ والقيام بشكرها هذا مكمل للتوحيد.

✽ قوله: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ﴾ ضمير الغائب هنا يرجع إلى الإنسان المذكور في قوله عَزَّجَلَّ في الآية التي قبلها: ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقْ قَنُوطٌ﴾ (٤٩) وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴿[فصلت: ٤٩-٥٠]، فذكر أن الرحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن هذا الإنسان عكس الأمر، فلم ينسبها إلى الله وقال: ﴿هَذَا لِي﴾، يعني أنا مستحق لهذا، أو أن هذا بسبب عملي وحذقي ومهارتي، وما أشبه ذلك من الأقوال التي فيها كفران النعمة وعدم شكرها، وإنكار أنها فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وإن لم يقل هذا بلسان المقال فإنه يقوله: بلسان الحال.

فالواجب نسبة النعم إلى الله، والقيام بشكرها قولًا واعتقادًا وعملاً، قال عَزَّجَلَّ: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]. هذا

هو الواجب، فكون النعمة أو الرحمة جاءت بعد الضراء، من الذي أزال الضراء وأحل محلها الرحمة؟ هل يستطيع الإنسان أن يزيل الضراء عن نفسه؟ لا أحد من الخلق يستطيع أن يزيل الضراء عن نفسه، بل الله عَزَّجَلَّ هو الذي يزيلها، والإنسان يعترف أنه عاجز عن إزالة الضراء، فإذا أصابته الضراء لجأ إلى الله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] حتى المشركون وهم مشركون يخلصون في الشدة، ويعلمون أنه لا يكشف الضر إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن إذا زال الكرب والضرر نسي أن الذي أنجاه منه هو الله، ونسب هذا إلى نفسه: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] إذا جاءت السعة والنعمة نسي ربه، ودعا معه غيره، ونسب هذا الشيء إلى نفسه وإلى جهده وعمله.

صحيح أن الأشياء لها أسباب، ولكنها لا تنسب إلى الأسباب، وإنما تنسب إلى الله عَزَّجَلَّ مسبب الأسباب؛ لأن السبب بذاته لا يوجد شيئاً، فكم من أسباب بذلت ولم ينتج عنها شيء، هذا دليل على أن السبب ليس بلازم أن يوجب النتيجة، وإنما هذا يرجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مسبب الأسباب.

وهذا يكثر على ألسنة كثير من الناس، يمدحون أنفسهم ويمدحون غيرهم، وينسبون حصول الأشياء إلى مجهودات فلان، ومهارة فلان، ويمسنون الثناء على المخلوقين، مع نسيانهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مسبب الأسباب، فلا تسمع -إلا ما قل- على ألسنتهم الشكر لله وأن هذا فضل من الله، بل كلها مجهودات فلان وأعمال فلان. ولا بأس من الإطراء والمدح، وأن يُثنى

على الإنسان بقدر جهده، لكن لا يُنسب الأمر إليه، ولا ينسب السبب إليه، وإنما يُشكر الله وينسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والمخلوق يُحمد ويُشكر على قدر جهده، لكن الشكر المطلق يكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيقال: لولا الله ثم فلان، لولا فضل الله عَزَّ وَجَلَّ ثم فلان. ليكون الأمر واضحاً على المنهج السليم، أما أن يُنسى الله، وتنسب الأشياء إلى المخلوق، ويُعظم ويُطرى، وكأن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس له أي منة، فهذا هو كفران النعمة.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تفاسير السلف لهذه الآية، فقال: (قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مُحَقَّقٌ بِهِ» هو مجاهد بن جبر التابعي الجليل، إمام المفسرين؛ لأنه روى عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فسر هذه الآية بأن ينسب العبد حصول الشيء إلى عمله وكده وكسبه، وأنه مستحق له، فيكون بذلك قد أنكر نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ عليه.

قال: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي») يعني: أن حصوله من عندي وبسببي. والمعنى واحد لا فرق بينه وبين ما قاله مجاهد.

قال: (وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]) قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَىٰ عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ»، لأنني حاذق بالتجارة والاقتصاد، وعندي خبرة اقتصادية ومعرفة بالأسواق، فيرجع هذا إلى حذقه ومعرفته بوجوه المكاسب، ولا يعترف لله عَزَّ وَجَلَّ بفضل ومنة وكرم، وهذا من كفران النعمة والعياذ بالله.

فقد تجد أفقر الناس متخصصين في الاقتصاد وليس عندهم شيء، وتجد تجارًا كبارًا لا يعرفون الاقتصاد ولا درسوه، ولا تخرجوا من جامعة، فدل هذا على أن حصول النعم وزوال المحن لا يرجع إلى مجهودات البشر وخبرة البشر، إنما هذا من الله عَزَّجَلَّ، ولكن مجهودات البشر وخبرة البشر لا تعدو أن تكون أسبابًا قد تترتب عليها نتائج وقد لا تترتب.

قال: (وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ») نسب العلم إلى الله، وأنه سبحانه يعلم أنه يستحق هذا الشيء، ولذلك أعطاه، فأنكر فضل الله عليه. ولا فرق بين هذا القول وقول مجاهد: (أُوتِيَتْهُ عَلَى شَرَفٍ) أي: أن الله علم أنني رجل شريف وذو مكانة ومنزلة أستحق بها هذا الشيء. فأنكر أيضًا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه الأقوال من أئمة السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تفسير هاتين الآيتين هي من باب اختلاف التنوع، وليست من باب اختلاف التضاد.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ، وَأَقْرَعٌ، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، وَيَذْهَبُ عَنِّي قَدْ قَدَرَنِي النَّاسُ بِهِ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَدْرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ - أَوْ قَالَ الْبَقَرُ، شَكَّ إِسْحَاقُ - إِلَّا أَنَّ الْأَبْرَصَ، أَوْ الْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُسْرَاءً، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَرَنِي النَّاسُ بِهِ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقْرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَردَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوُلِدَ هَذَا، قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحَبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ بَعِيرًا، أَتَبْلُغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحَقُّوْقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَفْذُرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ،

فَقَالَ: رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْجِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمُ، فَقَدْ رَضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ، وَأَقْرَعٌ، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا...»] الحديث.

وهذا حديث عظيم، يبين حال من كفر النعم، وحال من شكرها. قال ابن القيم: (أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي عنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبه والخضوع له). اهـ^(٢).

قوله: «قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ» أي: بكرهه رؤيته، وقربه منهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٢) انظر: طريق الهجرتين (ص ١٦٨).

... — الشَّجْ — ...

هذا الحديث في الصحيحين في هذه القصة العظيمة، وهي: (أَنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) يعني: ذرية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام؛ لأن إسرائيل هو يعقوب، ثلاثة نفر: (أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى) أي: أصحاب آفات.

الأبرص: البرص مرض جلدي يصيب الجلد، فيتغير لونه إلى بياض ليس حسناً، وبعض البرص يصير إلى سواد، لكن الأغلب أنه يكون إلى بياض غير مستحسن، فترتفع الأدمة التي خلقه الله عليها ويكون أبيض بياضاً غير مستحسن، وقد عجز الأطباء حتى الآن عن علاج هذا المرض، ولهذا جعل الله شفاء الأبرص من معجزات عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وهذا من معجزات الأنبياء لا يقدر عليها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والأقرع: هو الذي لا ينبت له شعر على رأسه، والشعر على الرأس جمال ووقاية للرأس، فإذا كان رأسه كله ليس عليه شعر صار مشوهاً، وكان مستقذراً عند الناس.

والأعمى: هو من ذهب بصره، والبصر من كمال الهيئة وجمال الشكل، وفاقد البصر يتنقصه كثير من الناس.

فأرسل الله عَزَّ وَجَلَّ ملكاً من الملائكة، تصور بصورة إنسان؛ لأن الملك لا يأتي الناس بصورته الملكية، وإنما يأتيهم بصورة مثل صورتهم؛ لأجل ألا

ينفروا منه. فجاء إلى الأبرص وسأله عن أحب الأشياء إليه، فقال: (لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ)، هذا أهم شيء عنده؛ لأن الناس كانوا يستقذرونه بسبب لون جلده، فمسحه الملك فذهب عنه البرص، وصار لونه حسناً، ثم قال له الملك: (فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟) وهذا زيادة على ما أُعطي من حسن اللون والجلد، فقال: (الْإِبْلُ - أَوْ قَالَ الْبَقْرُ)، وهذا شك من الراوي، مما يدل على دقة السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الرواية، فهم لا يجزمون بالرواية إذا كان فيها شك، ولذلك أتى بالاحتمالين إبراء للذمة. بخلاف كثير من الناس اليوم، يندفعون وينسبون الأقوال والأفعال إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سبيل الجزم، دون التحقق من صحة نسبتها إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل ليس عندهم غلبة ظن على الأقل، أما أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا شكوا جاءوا بالاحتمال إبراء للذمة.

❦ قال: «فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشْرَاءَ» والعشراء: هي التي مضى على حملها ثمانية أشهر، وقربت من الولادة، وهي أنفس الأموال، ثم قال له: (بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا)، دعا له بالبركة؛ لأن المال إذا لم تحل به البركة، فإنه يتلف ولا ينمو. وهذا بأمر الله عَزَّجَلَّ من أجل الابتلاء والامتحان.

ثم أتى إلى الأقرع، وسأله عن أحب الأشياء إليه، فقال: (شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ)، فمسحه فرالت عنه هذه الآفة، وأُعطي شعراً حسناً، وهذه نعمة عظيمة من الله عَزَّجَلَّ. ثم قال له زيادة على ذلك: (فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟) زيادة خير، قال: (الْبَقْرُ أَوْ الْإِبْلُ)، فأعطي

بقرة حاملاً، أي: في بطنها جنين، ودعا له الملك بالبركة في ماله كما دعا للأبرص.

ثم ذهب إلى الأعمى، وسأله عن أحب الأشياء إليه، فقال: (أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي؛ فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ)؛ لأن البصر نعمة عظيمة، (فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ)، فزاده الملك وقال له: (فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟) قال: (الْغَنَمُ)، فأعطاه الله شاة حاملاً، ودعا له الملك بالبركة.

فوقعت البركة على هذه الدواب الثلاث، وصار للأبرص واد من الإبل، وللأقرع واد من البقر، وللأعمى واد من الغنم، وتمت عليهم نعمة الله وصاروا أغنياء أصحاب، ولأنهم ما زالوا في دور الامتحان والاختبار، جاءهم الملك مرة ثانية، فجاء للأبرص فقال له: (رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٍ؛ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحَبَالُ)، يعني: الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، وفي رواية: (الخيال)^(١) بالياء، جمع: حيلة، (فَلَا بَلَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ)، انظر إلى أدب عباد الله الصالحين، ما قال: ما لي بلاغ إلا بك، إنما قال: (بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ)، ولم ينسب هذا إلى السبب وإنما نسبته إلى الله، وهذا من كمال التوحيد، ثم قال: (أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجُلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ؛ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي)، فاعتذر له ولم يعطه شيئاً، وقال: (الْحَقُّوقُ كَثِيرَةٌ) أي: لو أعطيتك، وأعطيت فلاناً وفلاناً، لنفذت الإبل، وما بقي لي شيء، فقال

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦/٥٠٢): «ولبعض رواة مسلم: (الخيال) بالمهمله والتحتانية، جمع: حيلة، أي: لم يبق لي حيلة».

له الملك: (كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذُرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا؛ فَأَعْطَاكَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْمَالَ؟) ذَكَرَهُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَأَعْطَاهُ جَلْدًا حَسَنًا، وَلَوْ نَا حَسَنًا، وَأَغْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَالْعَجِيبُ أَنَّ الْمَلِكَ جَاءَهُ بِصُورَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي التَّذْكِيرِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَنَفَّعْ بِهَذِهِ الْمَوْعِظَةِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: (إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ)، فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ دَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ: دَعَا عَلَيْهِ بِزَوَالِ النِّعْمَةِ.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْأَقْرَعِ، وَطَلَبَ مِنْهُ مِثْلَ مَا طَلَبَ مِنَ الْأَبْرَصِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ الْأَقْرَعُ مِثْلَهَا رَدَّ عَلَيْهِ الْأَبْرَصِ، فَقَالَ لَهُ: (إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ)، يَعْنِي: رَدُّكَ فَقِيرًا أَقْرَعًا، كَمَا كُنْتَ مِنْ قَبْلُ.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْأَعْمَى فَطَلَبَ مِنْهُ الْمُسَاعَدَةَ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ حَالَهُ وَفَقْرَهُ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِخْتِبَارِ وَالْإِمْتِحَانِ، فَقَالَ لَهُ: (قَدْ كُنْتُ أَعْمَى) يَعْنِي: تَذَكَّرْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَاعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِ، (فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي) فَنَسَبَ الْفَضْلَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَشَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ (فَخَذُ مَا شِئْتُ، وَدَعُ مَا شِئْتُ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ)، هَذَا مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ.

هنا انتهى الامتحان، وما بقي إلا النتائج، فما هي النتائج؟

قال له الملك: (أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ) يَعْنِي: اخْتَبَرْتُمْ أَنْتَ وَصَاحِبَاكَ، (فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ) بِسَبَبِ شُكْرِكَ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، (وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ) بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ. هَذِهِ النِّتِيجَةُ: فَازَ الْأَعْمَى



برضا الله تعالى لما تذكر نعمة الله عليه، ونسب الفضل إلى أهله، وخسر
الأبرص والأقرع بسبب إنكارهما لفضل الله عليهما، وهذا عام في كل من
كفر نعمة الله، ومن شكر نعمة الله عز وجل.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثَّانِيَةُ: مَا مَعْنَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

الثَّالِثَةُ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أُوتِيَتْهُ، عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

الرَّابِعَةُ: مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله: (الأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ) تفسيرها بكلام السلف الذي ذكره المؤلف عن مجاهد، وعن ابن عباس، وعن قتادة.

✽ قوله: (الثَّانِيَةُ: مَا مَعْنَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾) أي: هذا بقدرتي وعلمي وخبرتي ... الخ.

✽ قوله: (الثَّالِثَةُ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أُوتِيَتْهُ، عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾) مثل الأول: على خبرة ومعرفة وحذق، فينسب هذا إلى نفسه.

✽ قوله: (الرَّابِعَةُ: مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ)، فيها عبر عظيمة، منها:

أولاً: أن نسبة النعم إلى الله عَزَّوَجَلَّ توحيد، وأن نسبتها إلى غيره شرك، فإن اعتقد أن غيره هو الذي أوجدها فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أن غيره سبب والله هو الذي أوجدها، ولكنه نسبها إلى السبب، فهو شرك أصغر لا يخرج من الملة؛ لأنه لا يجوز النسبة إلى الأسباب، حتى ولو كانت أسباباً صحيحة، وإنما تُضاف النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا مرَّ بنا في أثر ابن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تفسير قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾،
أنَّه قولُ الرجل: (لَوْ لَا كَلِيبَةُ هَذَا؛ لَأَتَانَا اللَّصُوصُ! وَلَوْ لَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ؛
لَأَتَى اللَّصُوصُ)، فلا تجوز النسبة إلى الأسباب، وإنما تُنسب النعم إلى مسبب
الأسباب، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثانيًا: أنَّ النعم والنقم ابتلاء واختبارٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال عَزَّجَلَّ:
﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ثالثًا: أنَّ الله عَزَّجَلَّ أعطى الملائكة القدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة،
وهذا ثابتٌ من نصوص كثيرة، فتشكُّلهم لأجل مصالح العباد؛ لأنَّهم
لا يُطبقون رؤية الملائكة على هيئتهم التي خلقهم الله عليها.

رابعًا: مشروعية ذكر قصص الأولين من بني إسرائيل وغيرهم؛ لأجل
الاعتبار والاتعاظ، بشرط أن تكون قصصًا صحيحة.

خامسًا: أنَّ من شكر نعمة المال: إخراج الحقوق الواجبة فيه، من زكاة،
وإطعام جائع، وكسوة عارٍ، وما أشبه ذلك من الحقوق الواجبة والحقوق
المستحبة، وأنَّ البخل بحقوق المال من كفر النعمة.

سادسًا: أنَّ الجزء من جنس العمل؛ فقد رضي الله عن هذا الأعمى
بسبب إحسانه، وسخط على صاحبيه بسبب بخلهما بحقوق الفقراء
والمساكين.

سابعًا: وصف الله عَزَّجَلَّ بالرَّضى والسخط، على ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،
فليس كرضى المخلوق، ولا كسخط المخلوق.

٤٩- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّا ءَاتَهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَفَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: (اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُّعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرِو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلَبِ -) ^(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: (لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ؛ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِي أَوْ لَا جَعَلَنَ لَهُ قُرْنِي إِيَّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ فَيَشْقُهُ، وَلَا فَعَلَنَ - يُخَوِّفُهُمَا - سَمِيَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ. فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ؛ فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَذْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمِيَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾. رواه ابن أبي حاتم ^(٢).

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ ^(٣).

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَا إِنْسَانًا ^(٤).

(١) انظر: مراتب الإجماع (ص ١٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٤ / ٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٧ / ٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٤ / ٥).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٣ / ٥).

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا^(١).

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]]. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في معنى هذه الآية: حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش. فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض الملل ولم يكن بآدم^(٣).

وعن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أولادًا، فتعبدهم لله، وتسميه عبد الله، وعبيد الله، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس و آدم، فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، فولدت رجلًا، فسمياه عبد الحارث، ففيه أنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] إلى آخر الآية^(٤).

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٤٤، ١٤٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٢-١٦٣٤).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١١)، والترمذي (٣٠٧٧)، والطبراني في الكبير (٦٨٩٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٤٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٤٦).

قوله: [قَالَ ابْنُ حَزْمٍ]: هو عالم الأندلس أبو محمد علي بن أحمد بن سعد ابن حزم، القرطبي الظاهري، صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة، وله اثنتان وسبعون سنة.

قوله: (اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ -): قلت: وعبد المطلب هذا جد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عَلَيْهِمَا السَّلَام.

حكى رَحِمَهُ اللَّهُ اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدتهم بعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبد الله وحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته، وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته، وأحكامه القدريّة جارية عليهم ولا بد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فهذه العبودية العامة، وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ونحوها.

قوله: (حَاشَا عَبْدَ الْمُطَلِّبِ): هذا استثناء من العموم؛ لأنه ليس المقصود منه عبودية الرق، وإنما هو اسم علق به لما أتى به عمه المطلب من عند أخواله بني النجار من المدينة وهو صبي، فرأته قريش حين جاء به وقد تغير لونه من السفر، فقالوا: عبد المطلب، ثم تبين لهم أنه ابن أخيه هاشم، فصارت العبودية في هذا الاسم لا حقيقة لها ولا قصد، لكن غلب عليه، فصار لا يُسمى إلا به، وإلا فاسمه في الأصل شيبة.

وقد صار عبد المطلب معظمًا في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم، وما جرى له في حفرها مذكور في السير وكتب الحديث، وصارت السقاية له وفي ذريته^(١).

قال شيخنا في معنى قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾: إن هذا الشرك بمجرد تسميته، لم يقصدا حقيقته التي أرادها إبليس، وهذا يزيل الإشكال، وهذا معنى قول قتادة: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا في قصة آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في آخر سورة الأعراف، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] خلق آدم من طين، من حمًا مسنون، والمعنى واحد، أصله التراب، ثم صار طينًا، ثم صار حمًا مسنونًا، ثم خلق الله منه آدم بقدرته

(١) انظر: الكامل في التاريخ (١/ ٥٤٩، ٥٥٠)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٤٤-٢٥٣).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أوجده من عدم من غير أب ولا أم، ثم خلق الله حواء من آدم، من ضلعه الأيسر، وهذا من عجائب قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والحكمة في ذلك: ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾، ليسكن الزوج إلى زوجه فتحصل الطمأنينة والراحة، أما الرجل الذي لا زوجة له فإنه لا يحصل له سكن نفسي وروحي، وكذلك المرأة التي لا زوج لها لا يحصل لها السكون النفسي والراحة، إنما يحصل هذا بين الزوجين، وهو من أعظم مقاصد الزواج، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

❁ قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ يعني: وطئها كما يفعل الزوج مع زوجته، وقضاء الشهوة وطلب الولد أحد مقاصد الزواج العظيمة الكثيرة، فلما وطئها ﴿حَمَلَتْ﴾ أي: علقَت النطفة في رحمها، ﴿حَمَلًا خَفِيًّا﴾ وهذا في أول أطوار الحمل، لا تشعر المرأة بالحمل في أوله، فتمشي وتذهب وتجيء ولا تشعر به، ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ هذا في الطور الرابع لما نُفِخَتْ فيه الروح أثقلت بالحمل، وهذه عادة النساء، ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ آدم وحواء ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ أي: مولودًا سويًّا؛ لأنهما لم يكن يعيش لهما ولد، كلما حملت ولد الولد ميتًا، فطلبوا من الله عَزَّجَلَّ أن يرزقهما ولدًا سويًّا يعيش ويبقى، وفي هذا الرجوع إلى الله في طلب الحاجات، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ تعهدا بذلك لله عَزَّجَلَّ، وفي هذا شكر النعمة، وأن الولد السوي بالخلقة من نعم الله عَزَّجَلَّ.

❁ قال: ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمَا صَلَاحًا﴾ أي: أجاب دعاءهما، ورزقهما مولودًا
سويًا، وسلم من الموت عند الولادة، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ ما
تفسير هذا؟

❁ قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ﴾ أي: آدم وحواء ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ ما قال:
شركاء مطلقًا، بل قال: ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ يعني: في هذا المولود، وإلا حاشا
وكلا على الأنبياء الشرك الأكبر، إنما هو شرك جزئي فيما آتاها، فما صفة هذا
الشرك؟ وما سببه؟

أما سببه فهو أن الشيطان آتاها وقال: (سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ)، يعني:
لتسميانه لغير الله، والحارث: هو الشيطان، قيل: كان اسمه الحارث، ثم إنه
لما لُعن وطُرد سمي: إبليس، قال: (لَتُطِيعَانِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنِي إِيْلَ، فَيَخْرُجُ
مِنْ بَطْنِكَ فَيَشُقُّهُ)، فلم يطيعاه فمات الولد، ثم حملت مرة ثانية، فجاءهما وقال
لهما مثل قوله الأول، فلم يطيعاه فمات الولد، ثم حملت مرة أخرى، فجاءهما
وكرر عليهما مقالته، فأخذهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث؛ لأجل أن
يسلم من الشيطان.

فعتب الله عليهما ذلك بقوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ هذا هو
الصحيح في تفسير الآية، وهو الذي اختاره ابن جرير والشوكاني، والمؤلف
والشارح مشيا على هذا القول، وأن المراد آدم وحواء.

وذهب آخرون - كابن كثير وغيره - إلى أن المراد ذرية آدم، وليس آدم ولا حواء؛ لأن آدم نبي ولا يقع منه هذا، وعلق ابن كثير على هذا القصة بقوله: «وكأنه والله أعلم مأخوذ من أهل الكتاب»^(١) أي: من الإسرائيليات.

ولكن الصحيح هو القول الأول؛ لأن السياق في آدم وحواء ظاهر، وصرفه عن آدم وحواء تعسف، أما قوله عَزَّوَجَلَّ في آخر الآية: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا المراد به الذرية، وهذا من باب الالتفات والانتقال من آدم إلى ذريته، والسياق يقتضي هذا، والضوائر كلها بالثنائية، فهي تدل على أن المراد آدم وذريته.

أما ما نوع الشرك الذي حصل؟ فهو شرك أصغر، شرك في الطاعة فقط، وليس شركاً في العبادة، ومن أطاع مخلوقاً في معصية الله فهذا نوع من الشرك، يُسمى شرك الطاعة، وهو شرك أصغر، والأنبياء قد تقع منهم الصغائر، لكنهم لا يصرون عليها، بل يتوبون منها، فهم معصومون من الاستمرار على الصغيرة، وليسوا معصومين من الوقوع في الصغيرة، وما ذكر ذنب لنبي من الأنبياء إلا ذكرت معه التوبة، هذا مطرد في القرآن.

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٧٦): «كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَوْلَادًا، فَهَوِّدُوا وَنَصَرُوا، وَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٍ عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ وَأَوَّلَى مَا جُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَهُ مُحْفُوظًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَا عَدَلَ عَنْهُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، وَلَا سِيَّامَا مَعَ تَقْوَاهُ لِلَّهِ وَرَعَهُ، فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ مُوقِفٌ عَلَى الصَّحَابِيِّ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ آمَنُ مِنْهُمْ، مِثْلُ: كَعْبٍ أَوْ وَهْبِ بْنِ مُثَنَبٍ وَغَيْرِهِمَا، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَنَّا بَرْتَنَا مِنْ عَهْدَةِ الْمَرْفُوعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

فهذا هو الصحيح في معنى الآية، والشاهد منها: أن تعبيد الاسم لغير الله نوع من الشرك، كأن يُقال: عبد الحسين، أو عبد الرسول، أو عبد الكعبة، أو عبد العزى، وما أشبه ذلك؛ لأن العبودية لله عَزَّجَلَّ، العبودية العامة والعبودية الخاصة، فالعبودية العامة معناها: أن الخلق جميعهم ملك لله يتصرف فيهم كيف يشاء، وهذه تشمل المؤمن والكافر، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فلا يخرج أحد عن أمر الله القدري الكوني، لا المؤمن، ولا الكافر، ولا الملائكة، ولا غيرهم، كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والعبودية الخاصة: هي عبودية الألوهية، وهذه خاصة بالمؤمنين فقط، فتسمية المخلوق عبداً لغير الله هذا شرك في الربوبية، وهو شرك الطاعة.

هذا ما قيل في معنى هذه الآية، وهذا هو الجواب عما خالف في أنها تعني آدم وحواء، ففيها تحريم تعبيد الأسماء لغير الله، وأن الله عَزَّجَلَّ سماه شركاً، لكنه شرك أصغر لا يخرج من الملة، أما إذا أريد بعبد المسيح أنه يعبد المسيح، أو أريد بعبد الحسين أنه يعبد الحسين، فهذا شرك أكبر.

ولهذا قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: (اتَّفَقُوا) يعني: العلماء (عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - حَاشَا عَبْدَ الْمُطَلِّبِ-)، أي: استثنوا عبد المطلب، وهو جد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ؛ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ»^(١)،

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وذلك في غزوة حنين. فدل على أن عبد المطلب لا يدخل في هذا، ولكن الواقع أن عبد المطلب ليس من التعبيد المحذور، وإنما عبد المطلب له قصة، فاسمه: شيبه بن هاشم بن عبد مناف، لكنه كان في زيارة لأخواله بني النجار في المدينة، فذهب إليه عمه المطلب بن عبد مناف، وجاء به من المدينة وهو صغير، فتغير لونه إلى السواد بسبب السفر، فلما رآته قريش قالوا: هذا عبد المطلب، يعني: ظنوه مملوكًا له؛ لأن العبيد في الغالب يكونون من ذوي البشرة السوداء، ثم تبين لهم بعد ذلك أنه ابن أخيه هاشم، فمضى يُقال له: عبد المطلب، من باب التلقب لا من باب التسمية.

قوله: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ) هذا تفسير لقوله عز وجل: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾؛ يعني: شرك في الطاعة، وليس في العبادة، ومن أطاع مخلوقًا في معصية الله فقد أشرك الشرك الأصغر.

قوله: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾ قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَا إِنْسَانًا) يعني: صالحًا في الخلقة، فالولد السوي في الخلقة من نعم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وكم نرى من المشوهين والمعوقين! هذا ابتلاء وامتحان من الله، فإذا جاء الولد سليمًا هذا من أكبر نعم الله على الوالد.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأُولَى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الشُّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدِ حَقِيقَتُهَا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنَ النَّعَمِ.

الخَامِسَةُ: ذَكَرَ السَّلَفُ الْفَرْقَ بَيْنَ الشُّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشُّرْكِ فِي

الْعِبَادَةِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأُولَى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ) الآية تقتضي التحريم؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْكَرَ هَذَا.

❁ قوله: (الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ) أن المراد بها قصة آدم وحواء آدم وحواء.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الشُّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدِ حَقِيقَتُهَا) ليست عبادة، وإنما هي تسمية مجردة فقط.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنَ النَّعَمِ)؛ لأن سلامة الولد وسلامة خلقته - ذكرًا كان أو أنثى - من أكبر النعم على الوالد.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: ذَكَرَ السَّلَفُ الْفَرْقَ بَيْنَ الشُّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشُّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ) وذلك في تفسيرهم لما حصل من آدم وحواء على أنه شرك لله في طاعته وليس في عبادته، فدل على الفرق بينهما.

٥٠- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

الآية [الأعراف: ١٨٠].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآية]: أراد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بذوات الأموات، وأن المشروع هو التوسل بالأسماء والصفات والأعمال الصالحة.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنَّهُ وَتَرِيحُ بُنْتُرٍ»^(١).
أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان.

وأخرجه الترمذي في «جامعه» عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب بسنده مثله، وزاد بعد قوله يحب الوتر: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهِمِّنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ، الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ، الرَّافِعُ، الْمُعِزُّ، الْمُدِلُّ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ، الْعَدْلُ، اللَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، الْعَظِيمُ، الْغَفُورُ، الشَّكُورُ، الْعَلِيُّ، الْكَبِيرُ، الْحَفِيطُ، الْمُقِيتُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، الْمُجِيبُ، الْوَاسِعُ، الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ، الْمَحِيدُ، الْبَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الْحَقُّ،

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

الْوَكِيلُ، الْقَوِيُّ، الْمَتِينُ، الْوَلِيُّ، الْحَمِيدُ، الْمُحْصِي، الْمُبْدِئُ، الْمُعِيدُ، الْمُخْيِي،
الْمُمِيتُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْوَاحِدُ، الْمَاجِدُ، الْوَاحِدُ، الصَّمَدُ، الْقَادِرُ، الْمُقْتَدِرُ،
الْمُقَدِّمُ، الْمُؤَخِّرُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْوَالِي، الْمُتَعَالِي، الْبَرُّ، التَّوَّابُ،
الْمُنْتَقِمُ، الْعَفْوُ، الرَّءُوفُ، مَالِكُ الْمُلْكِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الْمُقْسِطُ، الْجَامِعُ،
الْغَنِيُّ، الْمُغْنِي، الْمَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، النُّورُ، الْهَادِي، الْبَدِيعُ، الْبَاقِي، الْوَارِثُ،
الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ»^(١).

ثم قال الترمذي: ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء الحسنی إلا في هذا الحديث.

والذي عند بعض الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج، هذا ما ذكره العماد ابن كثير في «تفسيره»^(٢)، ثم قال: ليعلم أن الأسماء ليست منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه أحمد، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي فِي يَدِكَ مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ،

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١)، وابن حبان في صحيحه (٨٨/٣)، (٨٩)، والحاكم في المستدرک (٦٢/١)، والبيهقي في الكبرى (٢٧/١٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٧٠)، ومجموع الفتاوى (٦/٣٧٩)، (٢٢/٤٨٢)، ومدارج السالكين (٣/٤١٥).

أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِبِيعَ قَلْبِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا»، فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ». وقد أخرجهُ أَبُو حَاتِمٍ ابْنُ حَبَانَ فِي «صَحِيحِهِ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

لما كان هذا الكتاب الذي بين أيدينا مداره على توحيد الله عَزَّجَلَّ، وقد ذكر فيه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تحقيق توحيد العبادة، أي: توحيد الألوهية، ناسب أن يذكر توحيد الأسماء والصفات؛ لأن التوحيد - كما سبق بيانه - ثلاثة أقسام:

- * توحيد الربوبية.
- * وتوحيد الألوهية.
- * وتوحيد الأسماء والصفات.

أما توحيد الربوبية فهذا أقرب به أغلب الخلق، فهم يقولون بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخالق، الرزاق، المحيي، المميت، وغير ذلك من أفعال الله عَزَّجَلَّ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فهو سبحانه يذكر توحيد الربوبية في القرآن من باب إلزام المشركين بأنهم لما اعترفوا بتوحيد الربوبية،

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٩١ / ١)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٣ / ٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٠ / ٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٩٨ / ٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢).

فإنهم يلزمهم أن يعترفوا بتوحيد الألوهية؛ لأن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، فمن أقر بالألوهية فقد أقر بالربوبية ضمناً، وأما من أقر بالربوبية فإنه لا يكون مقراً بالألوهية، ولكن يلزمه ذلك.

ومن توحيد الربوبية توحيد الأسماء والصفات، لكن العلماء جعلوه قسماً ثالثاً؛ لأنه حصل فيه اختلاف بين الجهمية والمعتزلة وأتباعهما من الفرق، فكان لابد من إفراده بالبحث والرد على هؤلاء المخالفين، وإلا فإنه في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية. ولذلك بعض العلماء يقسم التوحيد قسمين^(١): توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية. فيدخلون الأسماء والصفات في توحيد الربوبية، وإنما أفرده المتأخرون لما حصل فيه من الاختلاف من بعض الفرق.

فهذا الكتاب جاء يبين توحيد الألوهية؛ لأنه هو المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو الذي حصل فيه الخلاف بين الرسل وأتباعهم وبين المشركين والكفار من الأمم، لكن لما كانت هناك فرق تخالف في توحيد

(١) لمعرفة أقوال أهل العلم في أقسام التوحيد، انظر على سبيل المثال: «تفسير الطبري» (٣/ ٢١٤)، (٤/ ٤١)، و«اعتقاد أئمة الحديث» لأبي بكر الإسماعيلي (ص ٤٠ وما بعدها)، و«الإيمان» لابن منده (١/ ٣٧٩)، و«التوحيد ومعرفة أسماء الله وصفاته على الاتفاق والتفرد» لابن منده أيضاً (١/ ٦١-١١٦)، (٣/ ٧ وما بعدها)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٧٦-٨٨)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٣٦، ٣٨)، و«المنتقى من منهاج الاعتدال» للذهبي (ص ١٤٨)، و«أقسام التوحيد» لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ، و«الجواب المفيد في بيان أقسام التوحيد» لشيخنا محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ، و«القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد» للشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد.

الأسماء والصفات مناسب أن يعقد المصنف لهذا النوع أبواباً، منها هذا الباب، ومنها ما سبق: احترام أسماء الله وتغيير الاسم من أجل ذلك، التسمي بقاضي القضاة ... إلى آخره. هذا كله من نوع توحيد الأسماء والصفات.

❁ وقوله هنا: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾) أي: ما جاء في تفسير هذه الآية، وبيان معنى الإلحاد في أسماء الله. وهذه الآية تتضمن معاني جليلة، منها:
المعنى الأول: إثبات الأسماء لله عَزَّجَلَّ، والرد على من نفى أسماء الله وصفاته من الجهمية ومن تبعهم.

المعنى الثاني: أن أسماء الله حسنى، وليست مجرد أسماء أو ألفاظ ليس لها معان كما تقوله المعتزلة، بل هي أسماء حسنى بمعنى أنها تتضمن معاني جليلة، وكل اسم منها يدل على صفة من صفات الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فالعليم يدل على العلم، والحكيم يدل على الحكمة، والسميع يدل على إثبات السمع، والبصير يدل على إثبات البصر، وهكذا كل اسم يدل على صفة من صفات الله عَزَّجَلَّ، ولهذا صارت حسنى.

المعنى الثالث: مشروعية التوسل إلى الله عَزَّجَلَّ بها، وذلك بأن يُدعى بأسمائه، ويتوسل إليه بأسمائه؛ لأن هذا سبب للإجابة، ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾؛ أي: توسلوا إلى الله بها في دعائكم، لأن هذا سبب للإجابة، والتوسل معناه التقرب، والوسيلة: هي السبب الذي يتقرب به إلى الله عَزَّجَلَّ، وليست كما يقول المخرفون والقبوريون: الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة من

الصالحين، يتوسط لك عند الله، ويشفع لك عند الله، ويرفع حوائجك إلى الله!! تعالى الله عما يقولون، فكأن الله لا يستجيب ولا يسمع ولا يعلم إلا بواسطة هؤلاء الوسائل التي يتخذونها؛ كحال المشركين من قبلهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فيتخذون وسائط بينهم وبين الله من الملائكة والرسل والصالحين، ويزعمون أنهم قريبون، حتى الأصنام لا يعبدونها لذاتها لأنهم يعلمون أنها أحجار وأشجار، ولكن يقولون: هذه تقربنا إلى الله، وهذه واسطة بيننا وبين الله!! تعالى الله عما يقولون.

والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولم يقل: ادعوني بواسطة فلان أو علان، بل أمر بدعائه مباشرة، وإنما الوسائط والشفعاء يتخذون عند المخلوقين، عند الملوك والسلاطين الذين لا يعلمون أحوال الرعية حتى يأتي من يبلغهم ومن يؤثر عليهم، فيقبلون شفاعته ووساطته، أما الله عَزَّجَلَّ فإنه يعلم السر وأخفى، لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، فهو عَزَّجَلَّ ليس بحاجة إلى أن تجعل بينك وبينه وساطة.

وإذا قالوا: إنما نتوسل إلى الله بهم لأنهم صالحون، ولهم مكانة

عند الله!!

نقول لهم: نعم صالحون ولهم مكانة عند الله، لكن الله لم يشرع لنا أن نتوسل بهم، فصلاحتهم وأعمالهم لهم وليست لكم، وما عليكم إلا أن تدعوا الله وتتقربوا إليه بأعمالكم أنتم، ولا تتقربوا إلى الله بأعمال غيركم، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، فلا ينفعك صلاح أحد كائنًا من كان، إنما ينفعك صلاحك أنت ودعاؤك أنت، وهذا هو الذي يريده الله منك، ولم يرد منك أن تجعل بينك وبينه واسطة، إنما الواسطة وسيلة باطلة شركية أو بدعية ما أنزل الله بها من سلطان.

وأما قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، الوسيلة هنا معناها: التقرب إلى الله بالطاعة والعبادة، وليس معناها اتخاذ الواسطة، كما يظنها القبوريون والمشركون من قبل، فالتوسل على قسمين:

توسل ممنوع: وهو الذي يتخذه المشركون قديماً وحديثاً، من جعلهم الوسائط بينهم وبين الله، من الموتى، والأولياء، والصالحين، وغيرهم، هذه وسيلة منعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَسَمَّاها شركاً.

توسل مشروع: وهو التقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شرع، وهو أنواع: أولاً: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته؛ كما في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: توسلوا إلى الله بها، فينادى عَزَّ وَجَلَّ باسمه: يا رحمن، يا رحيم، يا غفار،

يا رزاق، يا حي، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، تدعوه بأسمائه، وتطلب منه حوائجك.

ثانيًا: التوسل إليه بالأعمال الصالحة، فيتوسل العبد بأعماله الصالحة، ولا يتوسل بأعمال غيره؛ كما توسل أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة وسدت عليهم باب الغار، ففكروا كيف يخرجون، فاهتدوا إلى أنه لا ينجيهم من هذا إلا التوسل إلى الله بأعمالهم، فتوسل أحدهم بربه لوالديه، والثاني توسل إلى الله بتركه الحرام بعدما تمكن منه خوفًا من الله، والثالث توسل بحفظه لأجرة الأجير، لما تركها عنده حفظها ونهاها له إلى أن جاء ودفعها إليه، فاستجاب الله لهم، وأزاح عنهم الصخرة فخرجوا^(١). هذا من التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، وهو في القرآن كثير، ومن ذلك ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿رَبِّنَا أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، هذا توسل إلى الله بالإيمان به وبرسوله، والتوسل بالأعمال الصالحة طيب، بشرط أن تكون أعمالك أنت وليست بأعمال غيرك.

ثالثًا: التوسل إلى الله بالفقر والفاقة والحاجة إلى الله، بأن تشكو إلى الله حاجتك وفقرك ومرضك؛ كما فعل أيوب عليه السلام حين مسه الضر، قال

(١) قصة الثلاثة أصحاب الغار أخرجها البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

عَزَّجَلْ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] توسل إلى الله بحالته ومرضه وبرحمة الله عزَّجَلْ، وكذلك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ توسل إلى الله بفقره وحاجته إلى الله عزَّجَلْ، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

رابعاً: التوسل إلى الله عزَّجَلْ بالتوحيد، مثلما توسل ذو النون عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أُلقي في البحر فالتقمه الحوت، قال عزَّجَلْ: ﴿فَكَادَنِي فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] توسل إلى الله بالتوحيد، وبالإعتراف بذنبه.

خامساً: التوسل إلى الله بدعاء الصالحين الأحياء الموجودين، بأن تطلب من عبد صالح أن يدعو لك؛ لأنه مظنة الإجابة، مثلما توسل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدعاء العباس في الاستسقاء؛ لأنه عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، وتوسل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدعاء يزيد بن الأسود الجرشى^(٢)، لأن دعاء الصالحين أقرب إلى الإجابة، فتطلب من عبد صالح أن يدعو لك، هذا لا بأس به.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠١٠) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا فَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ.

(٢) قال ابن سعد في الطبقات (٤٤٤/٧): «أخبرت عن أبي اليمان، عن صفوان بن عمرو، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ الْحَبَائِرِيِّ أَنَّ السَّمَاءَ فَحَطَّتْ، فَخَرَجَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَأَهْلُ دِمَشْقَ يَسْتَسْقُونَ فَلَمَّا قَعَدَ مُعَاوِيَةُ عَلَى الْمُنْبَرِ، قَالَ: أَيْنَ يَزِيدُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْجَرَشِيِّ؟ فَتَادَاهُ النَّاسُ فَأَقْبَلَ يَتَخَطَّى النَّاسَ، فَأَمَرَهُ مُعَاوِيَةُ فَصَعِدَ الْمُنْبَرَ فَقَعَدَ عِنْدَ رَجُلَيْهِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفِعُ إِلَيْكَ بِخَيْرِنَا، وَأَفْضَلِنَا اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفِعُ إِلَيْكَ بِبِزِيدِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْجَرَشِيِّ، يَا بَزِيدُ، =

ولما أراد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسَافِرَ لِلْعُمْرَةِ، أَسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأُذِنَ لَهُ وَقَالَ: «لَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ»^(١). فلا بأس أن تطلب من أحد أن يدعو لك، بشرط أن يكون حيًّا حاضراً، يسمع طلبك، ويقدر على الدعاء ؛ لأن طلب الدعاء من الصالحين الأحياء من التوسل المشروع، أما الأموات فلا يُطلب منهم شيء، لا دعاء ولا غيره.

المعنى الرابع من المعاني التي تتضمنها الآية: النهي عن الإلحاد في أسماء الله وصفاته؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: تركوهم، هذا وعيد: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والإلحاد في اللغة: هو الميل، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه مائل عن سمت القبر.

والإلحاد في أسماء الله أنواع:

النوع الأول: جحدها ونفيها، كما تقولها الجهمية.

النوع الثاني: إثبات ألفاظها وجحد معانيها، وذلك بتأويلها إلى غير معانيها الصحيحة، كما هو عند المعتزلة والأشاعرة والمؤولة، هؤلاء أثبتوا ألفاظها، ولكنهم نفوا معانيها.

=ارْفَعْ يَدَيْكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَرَفَعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ فَمَا كَانَ أَوْشَكَ أَنْ تَارَتْ سَحَابَةٌ فِي الْغَرْبِ كَأَنَّهَا تُرْسٌ، وَهَبَ هَا رِيحٌ فَسَقَتْنَا حَتَّى كَادَ النَّاسُ أَنْ لَا يَبْلُغُوا مَنَازِلَهُمْ. وانظر ترجمته في: تاريخ دمشق (١٠٧/٦٥)، وسير أعلام النبلاء (١٣٦/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦٩٧/٦).

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، وأحمد في المسند (٢٩/١)، والبيهقي في الكبرى (٢٥١/٥).

النوع الثالث: أن يُدخل فيها ما ليس منها؛ لأن أسماء الله توقيفية، فلا يجوز أن يُسمى الله إلا باسم أثبتته لنفسه في كتابه، أو أثبتته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، فلا نخترع من عندنا أسماء لله لم يأت بها الكتاب ولا السنة.

هذا إلحاد في أسماء الله، مثل الذين يطلقون على الله اسم الموجود، أو القديم، وهذه ليست من أسماء الله، أو يسمونه الدهر، والله عَزَّجَلَّ ليس من أسمائه الدهر، وإنما معنى قوله: «أَنَا الدَّهْرُ» فسر به بقوله في آخر الحديث: «أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، يعني: أنا أدبر الدهر وأصرف الدهر، وليس للدهر أي أثر في إحداث الحوادث، فإذا ذمتم الدهر ذمتم الخالق المدبر. هذا معناه، أما أن نجعل الدهر من أسماء الله حاشا وكلا، هذا من الإلحاد، وإن قال من قال به من الأئمة كابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، لكنه أخطأ فلا يُتابع في ذلك.

ومن الإلحاد في أسماء الله تسمية بعض المخلوقات بها، مثلما قالوا: إن اللات مأخوذة من الإله، والعزى مأخوذة من العزيز، ومناة مأخوذة من المنان، فاشتقوا لأصنامهم أسماء من أسماء الله.

هذه أنواع الإلحاد في أسماء الله عَزَّجَلَّ، وسيدكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعض كلام السلف في معنى الإلحاد فيها، وهو يدور على هذه المعاني.

ثم أورد الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وفي الآية قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ هذه عامة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ذكر في هذا الحديث أن من هذه الأسماء «تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا» أي: عرفها ودعا الله بها «دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وهذه التسعة والتسعون غير معينة، لكنها -والله أعلم- هي الموجودة في القرآن، ولهذا اجتهد العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في أخذها من القرآن وشرحها، كما فعل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية، وكما فعل غيره. وألفوا فيها كتبًا سموها «أسماء الله الحسنى» وشرحوها، وهذا من باب الاجتهاد والأخذ من القرآن، لكن لم يرد ببيانها حديث ينص عليها، لكن لا شك أن كل ما ذكره الله في القرآن فهو من الأسماء الحسنى.

❁ قوله: «مَنْ أَحْصَاهَا» أي: عدها، وعرف معانيها، وتعامل مع الله بموجب هذه الأسماء والصفات، وليس المراد أن يعدها ويكتبها فقط، ولكن المراد أن يعرف معانيها، ويعمل بها، ويتوسل إلى الله بها، وإلا لو كان القصد مجرد عدها وكتابتها لكان سهلاً على كل أحد.

ثم أيضاً ليست أسماء الله عَزَّجَلَّ محصورة في هذه التسعة والتسعين، والنبى لم يحصرها بها، وإنما هذه التسعة والتسعون من أحصاها دخل الجنة، وإلا فالله له أسماء لا يعلمها إلا هو، كما قال النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»^(١). فدل على أن

أسماء الله لا تعد ولا تحصى، منها ما استأثر به في علم الغيب، ولم يعلمها أحدًا من خلقه، ومنها هذه التسعة والتسعون التي هذه صفتها.

❁ قوله: «إِنَّهُ وَتَرِيحُ الْوُتْرِ» الوتر: ضد الشفع، والله عَزَّوَجَلَّ واحد أحد فرد صمد، وهو سبحانه يحب الوتر في الأشياء: الوتر في الصلاة صلاة الليل؛ كما في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْتَرُوا يَا أَهْلَ انْقِرَانٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَتَرِيحُ الْوُتْرِ»^(١)، حتى في الأكل، فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَأْكُلُهُنَّ وَتَرًا»^(٢)، يعني: يقطع طعامه على ثلاث، أو خمس، أو سبع.

وفيه إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يحب محبة تليق بجلاله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فيحب الأعمال الصالحة، ويحب عباده الصالحين، ويحب التوايين، ويحب المتطهرين، ويحب المحسنين.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ رواية أخرى لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورد فيها عدد من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وقال الترمذي عقبه: (ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء الحسنى إلا في هذا الحديث)، ذلك لأن هذا التعداد للأسماء لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هو مدرج في هذا الحديث من بعض الرواة،

(١) أخرجه أبو داود (١٤١٦)، وابن ماجه (١١٦٩)، وأحمد في المسند (١/١٤٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/١٣٦)، والحاكم في المستدرک (١/٤٤١)، والبيهقي في الكبرى (٢/٤٦٨) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٩٥٣).

لكنها أسماء صحيحة، وأغلبها من القرآن الكريم، فالحديث الصحيح ينتهي عند قوله: «وَتُرِيحُ الْوُتْرَ»، أما بقية الحديث فهو مدرج من بعض الرواة.

والمدرج: هو ما كان من كلام الراوي، وليس من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإدراج معروف عند الحفاظ أنه يكون من باب التفسير للحديث، وليس هو من نص الحديث، ويكون من الراوي غالبًا.

ولذلك قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: (لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ لَيْسَتْ مَنْحَصَرَةً فِي تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ) يعني: لا يقع في ذهنك أن أسماء الله تسعة وتسعون فقط، بل أسماء الله كثيرة منها هذه التسعة والتسعون، التي أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَلَمْ يَنْفِ أَنَّ لِلَّهِ أَسْمَاءَ غَيْرَهَا.



ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يشركون^(١).

وعنه: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز^(٢).

وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها^(٣).

وقال قتادة في قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: يشركون^(٤).

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب^(٥).

قلت: والشرك تكذيب من المشرك لما أنزله الله في كتابه وبعث به رسوله، كما جرى من قريش وغيرهم مع النبي ﷺ وأصحابه، وكما جرى من المشركين من هذه الأمة، فلم يأخذوا بالآيات المحكمات في تحريم الشرك والنهي عنه، بل كذبوا بالصدق، واعتمدوا على الكذب على الله، وعلى كتابه ورسوله. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول من القصد والميل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وَحَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِيهَا اِثْنَانِ: لُ بِالْإِشْرَاقِ وَالتَّغْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ^(٦)

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم، وسيأتي قريباً عن قتادة عند الطبري وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٣/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٣/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٣/٥).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٤/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٣/٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٣/٥) من الطريق المذكور، وأخرجه الطبري في

تفسيره (١٣٤/٩) من طريق معاوية عن علي عن ابن عباس رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(٦) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢٥١/٢).

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف دلت على كماله عَزَّوَجَلَّ، والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة -متقدمهم ومتأخرهم-: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يُحتذى حذوه، فكما أنه يجب العلم بأن الله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه، فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فائدة جلية: ما يجري صفة أو خبراً على الرب تعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات؛ كقولك: ذات وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفات منعوتة؛ كالعليم، والقدير، والسميع،

والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله؛ كالخالق، والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتاً، إذ لا كمال في العدم

المحض؛ كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف

عديدة لا يختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو: المجيد، العظيم،

الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه

يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والعفار، وأجد الناقة: علفها. ومنه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]: صفة للعرش؛ لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه؛ كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم. فهو راجع إلى التوسل بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في «المسند» والترمذي: «الِظُّوْا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١). ومنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٢). فهذا سؤال له وتوسل إليه بأسمائه وصفاته، فما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو: الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٧/٤) من حديث ربيعة بن عامر، وأخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، (٣٥٢٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٦/١)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد في المسند (١٢٠/٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غنائه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف^(١).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

كون الأسماء قد يُسمى بها بعض المخلوقين، مثل: الملك، والعزيز، ورؤوف، ورحيم، فلا يعني ذلك أنها تتساوى في الكيفية والحقيقة، فهي وإن اشتركت في اللفظ والمعنى إلا أنها تختلف في الحقيقة والكيفية، فأسماء الله تليق به، وأسماء المخلوقين تليق بهم، كذلك الصفات لله وهي موجودة في المخلوقين مثل السمع والبصر والعلم، فلا يقتضي هذا التشبيه؛ لأن ما يُسند إلى المخلوقين فهو يليق بالمخلوقين، وما يُسند إلى الله فهو يليق بالله، ولا تشابه بين ذلك.

❁ قوله: (وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات)، فكما أن الله ذاتاً حقيقية فله أسماء وصفات حقيقية، فلا ذاته تشبه ذوات المخلوقين، ولا صفاته تشبه صفات المخلوقين. فإذا قال لك المعطل: يَبْنِي لي كيفية صفات الله عَزَّوَجَلَّ!! فقل له: يَبْنِي لي أنت أولاً كيفية ذات الله، فإذا قال لك: لا أعرف كيفية ذات الله، فقل له: أنا كذلك لا أعرف كيفية صفات الله. لأن كيفية الصفات مثل كيفية الذات.

ولهذا لما سأل رجل الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ سألته عن كيفية الاستواء، ولم يسأله عن المعنى، فقال له مالك: «الاستواء معلوم»، يعني: معناه معلوم، «والكيف

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٦٦-١٦٩).

مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»^(١)، أي: السؤال عن الكيفية، فليس معنى إثبات الأسماء والصفات أننا نعرف كيفيتها وحقيقتها، وإن كنا نعرف معناها، بل هناك فرق بين معرفة المعنى ومعرفة الكيفية، ولهذا قال الإمام مالك: «والكيف مجهول»، فينبغي التفصيل في المسألة لمن يريد أن يغالط ويسأل عن الكيفية، وذلك بأن ترد عليه بأن هذا أمر لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي يقول في كتابه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فلا أحد من الخلق يحيط بالله عَزَّجَلَّ علماً، لا يحيطون بذاته، ولا بكيفية صفاته عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: (فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه، فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين) فالذين أُلْهِدُوا في أسماء الله وصفاته بالنفي لها، أو بنفي معانيها، هؤلاء هم الجهمية، ومن سار في ركابهم من المعتزلة والأشاعرة، وكل من دخل في مجال التأويل وصرف هذه الصفات عن معناها الصحيح إلى معانٍ ابتدعوها من عندهم ما أنزل الله بها من سلطان. فأصل البلاء من الجهمية، ثم توارثه الفرق التي جاءت من بعدهم.

❁ ثم نقل الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ تقسيم العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لأسماء وصفات الرب عَزَّجَلَّ، فقال: (أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات؛ كقولك: ذات وموجود) وهذا لا علم لنا به، نشبهه ولكن لا نعلم كيفيته.

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥٠، ١٥١)، وفي الاعتقاد (ص ١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص ١٣٩).

✽ قال: (الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية؛ كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير) وهذا نعرف معانيه، لكن لا نعرف كيفيته.

✽ قال: (الثالث: ما يرجع إلى أفعاله؛ كالخالق والرازق) أي: صفات الأفعال، مثل: الخلق، والرزق، والمشيئة، والكلام، هذه أيضًا نسبتها لله كما جاءت، معترفين بما تدل عليه من المعاني، ولكننا لا نخوض في الكيفية.

✽ قوله: (الرابع: التنزيه المحض، ولا بد من تضمينه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض؛ كالقدوس السلام) التنزيه المحض يعني: الخالص، فتزهر أسماء الله وصفاته عن مشابهة المخلوقين، فإنها تختلف في حقيقتها وكيفيتها، ولكن ليس المراد بالتنزيه التنزيه المطلق، بل التنزيه الذي يتضمن إثباتًا، مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، هذا نفي لكنه يتضمن كمال الحياة، فكل نفي جاء في أسماء الله وصفاته فإنه يتضمن مدحًا، وليس هو نفيًا محضًا.

✽ قوله: (الخامس: الاسم الدال على جملة أوصاف لا تختص بصفة معينة) هناك أسماء تتضمن معاني كثيرة، مثل: الحي، والقيوم، والمجيد، فكل صفات الذات ترجع إلى الحي، وكل أفعال الله ترجع إلى القيوم.

✽ قوله: (ومنه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾: صفة للعرش؛ لسعته وعظمته وشرفه) قرئ: (العرش المجيد) بالكسر على الإضافة، فيكون الوصف للعرش أنه مجيد، أي: الواسع الذي لا يعلم سعته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقرئ بالرفع: (ذو العرش المجيد) فيكون (المجيد) صفة لله عَزَّوَجَلَّ^(١).

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٥/ ١٩٥)، والحجة في القراءات لابن خالويه (ص ٣٦٧).

❁ قوله: (وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علمنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لأن الصحابة سألوه، فقالوا: قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُوتُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(١)، فجاء لفظ المجيد في الصلاة الإبراهيمية؛ لأن لفظ المجيد من الألفاظ المتعددة المعاني الواسعة.

❁ قوله: (لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه) وسعة المجيد أنه كثير العطاء.

❁ قوله: (فاتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه؛ كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم) إذا دعوت الله بالأسماء والصفات فإنك تدعوه سبحانه بالاسم المناسب، فتقول: اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم ارحمني برحمتك التي وسعت كل شيء، يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، يا تواب تب علي، فتدعو الله بالاسم المناسب لحاجتك.

ولا تقل: اللهم اغفر لي إنك شديد العقاب!! فهذا غير مناسب، إنما يناسب ذلك حين الدعاء على الكفار، فتقول: اللهم انتقم من الكفار وأعداء الدين فإنك شديد العقاب، إنك عزيز ذو انتقام، هذا المناسب، فتأتي بالأسماء الدالة على الانتقام والبطش والجبروت في مقام الدعاء على أعداء

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله ورسوله، ولا تقل: يا أرحم الراحمين انتقم من أعدائك الكفار الملحددين، وهذا من الفقه في أسماء الله وصفاته أن تستعمل في كل مقام ما يناسبه من الأسماء؛ لأن هذا أقرب إلى الإجابة.

❁ قوله: (السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر) هناك أسماء تكون مقترنة، فلا تقتصر في دعائك على واحد منها، بل تدعو بها مقترنة، مثل: الغفور الودود؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يجمع بين هذين الوصفين المغفرة والود، فهو يغفر للعبد ومع هذا يحبه، بخلاف غير الله، فإنه قد يغفر ويسمح لكنه لا يحب من سامحه، هذا هو السر في الجمع بين هذين الاسمين.

وهناك أسماء متقابلة، فلا تدعو بواحد وتترك الآخر، مثل الخافض الرافع، القابض الباسط، الأول والآخر، الظاهر والباطن، لا تقل: يا قابض فقط، أو يا باسط فقط، بل تأتي بالاثنتين: يا قابض يا باسط، وهكذا في كل الأسماء المتقابلة، لا تأت بالأول فقط أو الآخر فقط، ولا تأت بالظاهر فقط، أو الباطن فقط، بل تأتي بالاثنتين مقترنين.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: إِبْثَاتُ الْأَسْمَاءِ.

الثَّانِيَّةُ: كَوْنُهَا حُسْنَى.

الثَّالِثَةُ: الْأَمْرُ بِدُعَائِهِ بِهَا.

الرَّابِعَةُ: تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ.

الخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ الْإِلْحَادِ فِيهَا.

السَّادِسَةُ: وَعِيدُ مَنْ أَحَدَ.

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله: (الأُولَى: إِبْثَاتُ الْأَسْمَاءِ)؛ لأن قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾

[الأعراف: ١٨٠] فيه إِبْثَاتُ الْأَسْمَاءِ.

❖ قوله: (الثَّانِيَّةُ: كَوْنُهَا حُسْنَى) فهي ليست مجرد أَلْفَاظَ لَيْسَ لَهَا مَعَانٍ،

وإنما هي أَلْفَاظُ لَهَا مَعَانٍ جَلِيلَةٌ وَهِيَ أَنَّهَا حُسْنَى، وَكُلُّ اسْمٍ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى صِفَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: الْأَمْرُ بِدُعَائِهِ بِهَا) حَيْثُ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾،

هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَةِ التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مِظَنَّةَ الْإِجَابَةِ.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ)؛ لِقَوْلِهِ

عَزَّجَلَّ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ﴾ ❖ أَي: اتْرَكُوهُمْ وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ، فَهَذَا يَقْتَضِي مَنَا أَلَا نَلْتَفِتَ لِلْجَهْمِيَّةِ وَالْمَعْتَزَلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ، وَمَنْ سَارَ فِي رِكَابِهِمْ مِنْ

الذين تأولوا أسماء الله وصفاته وألحدوا فيها، فلا نلتفت إلى كلامهم أبداً، ولا نعره أي اهتمام؛ لأنه كلام باطل لا قيمة له، ولا احترام له. والله عَزَّ وَجَلَّ أمرنا بذلك.

وفي هذا رد على من يقول: يجب أن نحترم الآراء ونحترم أقوال الناس.

نقول له: الاحترام إنما يكون للحق، أما الباطل فلا احترام له، بل نرفضه ونتركه، وحرية الرأي لا تعني قبول الباطل، فليس لنا إلا الحق، وليس لأحد حرية في الخروج عن الحق، وليس لنا أن نقبل قوله ما دام باطلاً، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، فمن اشتمل كلامه على ضلال، فإننا نفنده، ونرد عليه، وندحضه، ونحذر منه، هذا هو الواجب، فيكون موقفنا مع أقوال أهل الباطل: الرفض، والرد عليهم، مع عدم احترامها.

﴿قوله: (الْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ الْإِلْحَادِ فِيهَا)؛ كما جاء عن السلف أن بعضهم يقول: يلحدون: يشركون، وبعضهم يقول: يلحدون: يكذبون، والمعاني متقاربة، وذلك اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد؛ لأن كل واحد منهم يأخذ بمعنى من معاني الآية.

﴿قوله: (السَّادِسَةُ: وَعَيْدُ مَنْ أَلْحَدَ)؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيد من الله عَزَّ وَجَلَّ أن الله لا يهملهم، وأنه سيعاقبهم على ما كانوا يعملون.



٥١- بَابٌ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ»^(١).

قوله: [بَابٌ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ...] الحديث. هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم عن ابن مسعود^(٢).

وفي هذا الحديث النهي عن ذلك، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثاً، وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٣)، وفي الحديث أن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢)، وأبو داود (٩٦٨)، والنسائي في الكبرى (٢٥١/١)، وابن ماجه (٨٩٩)، وأحمد في المسند (٤٣١/١).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢)، وأبو داود (٩٦٨)، والنسائي في الكبرى (٢٥١/١)، وابن ماجه (٨٩٩)، وأحمد في المسند (٤٣١/١).

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الآجري في الشريعة (١٠٤٠/٢)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٤٢/٣) من طريق وهب بن منبه عن محمد بن علي بن الحسين مرفوعاً، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٤٨/١٣)، وابن بطة في الإبانة (٧٨/٣) موقوفاً على وهب بن منبه.

قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ» أي: هو تعالى سالم من كل نقص، ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قال في «البدائع»: السلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران:

الأول: أن السلام هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ، ومعنى السلام: نزلت بركته عليكم، ونحو هذا، فاختر في هذا المعنى من أسمائه عَزَّوَجَلَّ: اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعوبه عند التحية، ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي مُنْكَرًا، فيقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسمًا من أسماء الله لم يستعمل كذا. ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرًا أو دعاءً.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وفصل الخطاب أن يُقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما معه بعض الحق والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة، وهي: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يتوسل في كل مطلب، ويسأل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه، فإذا قال: رب اغفر لي وتب عليّ إنك التواب الغفور، فقد سأله بأمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه،

فالمقام لما كان مقام طلب السلامة، التي هي أهم عند الرجل، أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله، وهو السلام الذي تُطلب منه السلامة، وهو مقصود المسلم، فقد تضمن سلام عليكم: اسمًا من أسماء الله تعالى، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة^(١).

وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولك: سلمك الله، ومنه: دعاء المؤمنين على الصراط: «اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ»^(٢).

ومنه: سلم الشيء لفلان، أي: خلص له وحده؛ كما قال عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، أي: خالصًا له وحده، لا يملكه معه غيره.

ومنه: السلم ضد الحرب؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بني فيه على المفاعلة فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه: القلب السليم، وهو النقي من الدغل والعيب، وحقيقته: الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته، وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه، والفوز بكرامته.

ومنه: أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد له، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٦٧ - ٣٧٢).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثليين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (بَابٌ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ)؛ لأن هذا من باب الدعاء، والله عَزَّجَلَّ يُدْعَى ولا يدعى له؛ لأنه غني عن ذلك، فالسلام معناه: الدعاء بالسلامة من الآفات، وهذا لا يليق بالله عَزَّجَلَّ، وإنما يُدْعَى للمخلوقين، فيقال: السلام عليك، أو السلام عليكم.

وكذلك فإن السلام من أسماء الله عَزَّجَلَّ؛ كما جاء في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فهو من أسماء الله، وعلى هذا يكون معنى قول: السلام عليكم، أي: اسم الله عليكم، بمعنى: بركته عليكم، وحفظه وحمايته لكم.

فالله عَزَّجَلَّ هو السلام، وهو أيضًا المسلَّم عباده من الآفات والمحاذير، فهو السلام ويطلب منه السلام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا مناسبة للسلام على الله من عباده.

ولهذا جاء في حديث ابن مسعود رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ: كنا إذا كنا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ». ثم علمهم التشهد كما يعلمهم السورة من القرآن: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ» أي: التعظيمات، فالله

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

عَزَّجَلَّ يُحْيِي بِمَعْنَى يَعْظُم وَلَا يُسَلِّم عَلَيْهِ، وُفَرَقَ بَيْنَ التَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ، التَّحِيَّةُ: هِيَ التَّعْظِيمُ، أَمَّا السَّلَامُ: فَهُوَ الدَّعَاءُ بِالسَّلَامَةِ، وَالتَّعْظِيمُ لَا تُقَالُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ الْعِظَمَةُ، وَأَمَّا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ فَهَذَا لَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الدَّعَاءِ.

هَذَا وَجْهٌ سَيَّاقُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ لِهَذَا الْبَابِ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ، أَنَّ السَّلَامَ عَلَى اللَّهِ فِيهِ إِسَاءَةٌ أَدَبٌ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا مِمَّا يَنْقُصُ التَّوْحِيدَ.

❦ قَوْلُهُ: «لَا تَقُولُوا السَّلَامَ عَلَى اللَّهِ» هَذَا نَهْيٌ، وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ، ثُمَّ بَيْنَ السَّبَبِ لِهَذَا الْمَنْعِ، فَقَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ»، فَلَا يُدْعَى لَهُ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي يُدْعَى وَيَطْلَبُ مِنْهُ السَّلَامُ وَالسَّلَامَةُ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ يَسْتَغْفِرُ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ» وَهَذَا ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «وَمِنْكَ السَّلَامُ»، فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ هُوَ الَّذِي يَهَبُ السَّلَامَ لِعِبَادِهِ، وَيَسْلِمُهُمْ مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ، وَمَنْ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَسْلَمَ.

❦ قَالَ: (وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِرَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) إِذَا سَلِمَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «... فَلَمَّا دُفِعُوا إِلَى الْجِبَارِ تَعَالَى سَفَرُ لُهُمْ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَتَجَلَّى لَهُمْ فِي عَظَمَتِهِ الْعَظِيمَةِ تَحِيَّتُهُمُ السَّلَامُ، قَالُوا: رَبَّنَا أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ وَلَكَ حَقُّ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١)، أَمَّا

تَحِيَّتُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَكَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

❁ قوله: (قال في البدائع) أي: ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: «بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ» (السلام: اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار) الإنشاء: هو الدعاء، وكذلك يُخْبَرُ عَنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِأَنَّهُ هُوَ السَّلَامُ، (فجَهَةُ الْخَبَرِ فِيهِ لَا تَنَاقُضُ الْجَهَةَ الْإِنشَائِيَّةَ) إِذَا قُلْتَ لِأَحَدٍ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، مَعْنَاهُ أَنْكَ تَدْعُو لَهُ بِالسَّلَامِ، أَوْ أَنْكَ تَقُولُ: اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكَ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي نَزُولَ الْبَرَكَةِ عَلَى الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

❁ قال: (وفيه قولان مشهوران: الأول: أن السلام هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ) يعني: أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِكَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَيُّ: نَزَلَتْ بَرَكَةُ السَّلَامِ وَهُوَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ.

❁ قوله: (الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية) كما فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] هَذَا مَصْدَرٌ، وَكَمَا تَقُولُ: سَلِّمْ سَلَامًا، هَذَا اسْمٌ مَصْدَرٌ؛ لِأَنَّ الْمَفْعُولَ الْمَطْلُوقَ إِذَا نَقَصْتَ حُرُوفَهُ عَنْ حُرُوفِ فِعْلِهِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى اسْمًا مَصْدَرًا، أَمَا إِذَا وَافَقَتْ حُرُوفُهُ حُرُوفَ فِعْلِهِ فَهَذَا يُسَمَّى بِالمَصْدَرِ.

❁ قوله: (ومن حجة أصحاب هذا القول أَنَّهُ يَأْتِي مُتَكَرِّرًا، فيقول المسلم: سلام عليكم) أَيُّ: يَدْعُو لَهُمُ بِالسَّلَامَةِ، أَمَا إِذَا أَرِيدَ اسْمُ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُعْرَفُ، فيقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَإِذَا قُلْتَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَمَعْنَاهُ: اسْمُ السَّلَامِ

عليكم، وإذا قلت: سلام عليكم فمعناه أنك تدعو لهم بالسلامة؛ كما في قوله عزَّوَجَلَّ: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، واسم الله لا يأتي مُنْكَرًا.

☀ قوله: (أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنی أن يتوسل في كل مطلب، ويسأل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله) فإذا دعوت بالمغفرة لنفسك أو لغيرك، تقول: اللهم اغفر لي، أو اللهم اغفر له إنك أنت الغفور الرحيم، أو اللهم تب عليه إنك أنت التواب الرحيم، فتأتي بالاسم المناسب لمطلوبك وحاجتك، وكذلك لما كنت تريد له السلامة، فإنك تأتي باسم الله السلام، وتقول: السلام عليك، أي: سلمك الله.

☀ قوله: (وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب) هذا معنى السلام من أسماء الله: أي السالم من الآفات والنقائص والعيوب؛ كما في قوله عزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] يعني: خالصًا ليس فيه اشتراك.

☀ قوله: (ومنه السلم ضد الحرب) السَّلم والسَّلم، وشاهده قوله عزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، وقوله عزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعِلُونَ﴾ [محمد: ٣٥] السَّلم هنا هو الصلح، يُقال: سَلِمَ، ويقال: سَلِمَ.

☀ قوله: (ومنه القلب السليم وهو النقي من الدغل والعيب) هو الخالص من الشرك والحقْد والحسد، السالم من جميع الآفات، وأعظمها الشرك بالله عزَّوَجَلَّ، ومن النيات الباطلة والمقاصد السيئة.



فالمشرك بالله مثل العبد الذي يملكه عدة شركاء، هذا يكون في قلق وهم؛ لأنه لا يدري من يرضي منهم، أما الموحد فهو مخلص لله عَزَّجَلَّ، يعرف رضاه وطاعته، فلا يستوي هذان المملوكان -المشرك والخالص- في تعامل الناس، هذا من باب ضرب المثل، والله المثل الأعلى.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: تَفْسِيرُ السَّلَامِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ تَحِيَّةٌ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلَّهِ.

الرَّابِعَةُ: الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

الخَامِسَةُ: تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ لِلَّهِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأُولَى: تَفْسِيرُ السَّلَامِ) تفسير السلام بالتفسيرين السابقين، أنه اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، ومعناه: السالم من العيوب والنقائص، أو الذي يهب السلامة لعباده، فالمعنيان صحيحان.

❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ تَحِيَّةٌ) أن السلام يستعمل استعمال التحية، والتحية تكون سلامًا: ﴿وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]، وهذا بين العباد، فتحيي أخاك المسلم وتقول: سلامٌ عليكم، أو السلام عليكم.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلَّهِ) السلام على الله لا يصلح، وأما التحية فإنها تصلح لله عَزَّوَجَلَّ، فتقول: التحيات لله، أي: جميع التعظيمات لله عَزَّوَجَلَّ، تعظيم بالقول، أو بالفعل كالانحناء والسجود، هذا لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ) في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ» هذا هو التعليل، فهو سبحانه السلام ويطلب منه السلام، فلا مناسبة للسلام على الله من عباده.

❁ قوله: (الْخَامِسَةُ: تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ لِلَّهِ) لما منعهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول: السلام على الله، قال لهم: «قولوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ» يعني: التعظيمات، فهذا هو البديل الصالح، ففي هذا دليل على أن من نهى عن شيء وله بديل صالح فإنه يذكره ويبيّنه، لكي يُستعمل بدل الممنوع.



٥٢- بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ»^(١).

وَلِئَلَّا يَسْلَمَ: «وَلِيُعْظِمَ الرُّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاضَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»^(٢).

قوله: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ...» الحديث، بخلاف العبد، فإنه قد يُعطي السائل مسأله حاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسأله وهو كاره، فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول مسأله على مشيئة المسؤول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين فإنه يعطي عبده ما أَرادَه بفضله وكرمه وإحسانه، فالأدب مع الله: أن لا يعلق مسأله لربه بشيء لسعة فضله، وإحسانه، وجوده وكرمه.

وفي الحديث: «لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ»، وفي الحديث: «يَمِينُ اللَّهِ مَالَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...»^(٣) الحديث.

قوله: [وَلِئَلَّا يَسْلَمَ: «وَلِيُعْظِمَ الرُّغْبَةَ»] أي: في سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا. «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاضَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ» أي: ليس ما أعطى عبده مما سأله عظيم عنده؛ لكمال فضله وجوده. وقد قال بعض الشعراء في مخلوق يمدحه:

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم [٩ ح (٢٦٧٩)].

(٢) أخرجه مسلم [٨ ح (٢٦٧٩)].

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَائِمُ^(١)
والله تعالى أحق بكل مدحة وثناء.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ) أي: لا يجوز هذا اللفظ في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الذي يدعو الله تعالى يجب أن يعزم الدعاء، ولا يعلقه بالمشيئة.

وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا القول، وقال: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ»، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: أن قوله: (اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ) يدل على أنه غير حريص على طلب المغفرة، وأنه سواء عنده أن يغفر الله له أو لا يغفر له، وهل من أحد يستغني عن مغفرة الله عَزَّجَلَّ؟! وهذا مثلما تقول لشخص: أعطني كذا إن شئت، يعني: أعطني، ولكنني لست بحاجة ماسة إليه، فإنني أستطيع الاستغناء عنه!! وهذا يدل على فتور في الطلب، وأن العبد مستغنٍ، فإن حصلت له المغفرة والرحمة وإلا فهو ليس بحاجة لها.

الأمر الثاني: أن قول: (اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ) يُقال لمن يعطي وهو كاره، فتقول: يا فلان أعطني كذا إن شئت. يعني: إن كان لا يشق عليك هذا الشيء أعطني إياه، وإلا فإنني أستطيع أن أستغني عنه، ذلك لأن المخلوق ضعيف،

(١) هذا البيت لأبي الطيب المتنبي، ضمن أبيات يمدح فيها سيف الدولة. انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب (١/٢٤٣)، والحماسة المغربية (١/٥٣٠).

وقد يشق عليه هذا الشيء، أو يكره أن يبذله، فأنت لا تريد إكراهه، وإنما تخيره بين أن يفعل أو لا يفعل.

والله عَزَّجَلَّ ليس كذلك، الله سبحانه يعطي ولا مكره له، والعبد ينبغي عليه تنزيه الله عَزَّجَلَّ عن الإكراه، وهذا ينتفي بقوله: (اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ). وأيضاً لا أحد من خلق الله يستغني عن عطائه وكرمه، فدل على أن هذا القول فيه تنقص لله عَزَّجَلَّ، وذلك يخل بالتوحيد، ولذلك عقد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد.

❦ قال: (وَلُسْلِمٍ: «وَلْيُعْظَمِ الرُّغْبَةُ»): يعني: تطلب من الله بدون تحديد، ولا تستعظم المسألة مثلاً تستعظمها من المخلوق، فتقول له: أعطني ألف ألف ريال، فتستعظم هذا المبلغ فتقول: إن شئت. لأنك خفت أن يشق عليه هذا المليون. أما الله عَزَّجَلَّ فإنك تطلب منه ما شئت قليلاً أو كثيراً، اطلب الكثير ولا تقتصر على القليل؛ لأنه سبحانه غني حميد، «لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»، ولهذا جاء في الحديث: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(١)، فتطلب من الله أعلى المطالب؛ لأنه سبحانه غني كريم، يعطي بلا حد، ويرزق بغير حساب. فلا تقل: أنا لا أستحق هذا، أنا مقصر، أنا مذنب، لا تقل هذا، واسأل الله من فضله، فليس مثل المخلوق تطلب منه على استحياء وخجل، بل الله عَزَّجَلَّ يفرح بسؤال عبده له ودعائه إياه، أما المخلوق وإن أعطاك فإنه يكره هذا يشق عليه.

ولهذا يقول الشاعر:

الله يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهٖ وَبُنِيَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ^(١)

المخلوق يغضب إذا سأله، وقد يعطيك مجاملة وهو كاره، فإذا كررت عليه ربما يغضب عليك، ولا يعطيك في المرة الثانية، أما الله عَزَّجَلَّ فإنه كلما كررت عليه فإنه يفرح بذلك، ويجب من عباده الملحين في الدعاء والمكثرين من الدعاء.

فمن زعم أن الله عَزَّجَلَّ يشق عليه شيء، أو أن شيئاً يكبر عليه سبحانه ولا يعطيه، فقد تنقص الله عَزَّجَلَّ، وهذا نقص في التوحيد، أما إذا عظمت رغبتك في الله، واعتقدت أن الله عَزَّجَلَّ ينقصه شيء، وأنه جواد كريم، وألححت عليه في الدعاء، وطلبت منه المطالب العالية الرفيعة، فإن ذلك مما يحبه الله عَزَّجَلَّ؛ لكمال سبحانه وغناه وكرمه وإحسانه.

فهناك فرق بين الخالق والمخلوق، فما تستعمله مع المخلوق من الحياء والخجل والتقاصر، لا تستعمله في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى لو كنت مذنبا، ولو كنت عاصيا، فإن الله يغفر الذنوب جميعا، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. فكلما تبت إلى الله تاب عليك، ولو تكررت ذنوبك، ولو عظمت خطاياك، ولهذا جاء في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١١٦/٢).

بَلَغْتَ ذُنُوبَكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لِأَنِّيُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً^(١). فلو بلغت ذنوبك إلى السحاب، ثم استغفرت الله صادقاً، غفرها الله لك، بخلاف المخلوق فإنك إذا أخطأت في حقه ثم تكرر منك الخطأ فإنه لا يغفر لك في المرة الثانية ولا يعفو عنك، والله عَزَّوَجَلَّ لا يقاس بخلقه.

❁ قوله: (وفي الحديث: «يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَخَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، فلا تنقص خزائن الله بالإنفاق أبداً، بخلاف المخلوق إذا أنفق فإنه ينقص ماله وينقص ما عنده، أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يعطي جميع الخلق، ولا ينقص ذلك من خزائنه شيء؛ لأنه سبحانه غني الغنى المطلق، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، فإن أعطى كل سائل مسألته على كثرة السائلين -الإنس، والجن، والأولين، والآخرين- فإن هذا لا ينقص من خزائن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَيْئاً، هذا يدل على غناه وكرمه وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكل المخلوقات تتعيش من رزق الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينقص ما عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (وقد قال بعض الشعراء في مخلوق يمدحه:

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ)

هذا المتنبي يمدح ملكاً من الملوك، فيذكر أن الناس على شكلين: صغير تعظم عنده الصغائر، وعظيم تصغر عنده العظائم، (والله سبحانه أحق بكل

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في الأوسط (٣١٥/٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وأخرجه من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أحمد في مسنده (١٤٨/٥)، والدارمي (٢٧٨٨)، والبزار في مسنده (٤٠٣/٩)، والحاكم في المستدرک (٢٦٩/٤)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

مدحة وثناء) فأخر البيت أليق بالله عَزَّجَلَّ من المخلوق، هو سبحانه الذي تصغر عنده العظام.

ويقول الآخر:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ^(١)

هذا أيضًا مدح للمخلوق، وهو أليق بالله عَزَّجَلَّ؛ لأنه سبحانه كريم لا يغيضه شيء مما عنده. فكل كمال ثبت للمخلوق لا يستلزم نقصًا، فإن الله عَزَّجَلَّ أحق به، والله المثل الأعلى.



(١) هذا البيت من شعر زهير بن أبي سلمى المزني، الشاعر الجاهلي المشهور، والد الصحابي الجليل كعب بن زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: ديوان المعاني (١/٢٩)، ومحاضرات الأدباء (١/٦٨١)، وخزانة الأدب وغاية الأرب (١/٤٢٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: النَّهْيُ عَنِ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ.

الثانية: بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ.

الثالثة: قَوْلُهُ (لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ).

الرابعة: إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ.

الخامسة: التَّعْلِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

✽ قوله: (الأولى: النَّهْيُ عَنِ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ)، النهي عن قول: (إِنْ

شئتُ) في الدعاء، بل يعزم، ويقول: اللهم أعطني كذا، ولا يستثني.

✽ قوله: (الثانية: بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ) وهي أن الله لا مكره له، فإن الله

لا يتعاضمه شيء أعطاه.

✽ قوله: (الثالثة: قَوْلُهُ «لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ» أي: لا يتردد في سؤاله،

ولا يفتر في سؤاله، بل يعزم ويوقن بالإجابة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْعُوا اللَّهَ

وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٍ

لَاهٍ»^(١)، فليدع الإنسان وهو موقن بالإجابة من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يقل: إن

حصل لي هذا الشيء فبها ونعمت، وإن لم يحصل فلا حاجة لي به، بل يعزم

مسأَلَتَهُ، وليوقن بأن الله سيعطيه ما سأل.

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٦٥/١٠)، والطبراني في

الأوسط (٢١١/٥)، والحاكم في المستدرک (٦٧٠/١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ) فتطلب من الله بلا حدود، لكن لا تطلب من الله الأشياء التي لا تليق بك؛ كأن تسأل الله منازل الأنبياء والرسول؛ لأن هذا من الاعتداء في الدعاء، لكن ادع الله أن يعطيك منازل المؤمنين أتباع الرسول عليهم الصلاة والسلام.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: التَّغْلِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ) العلة في النهي عن ذلك: أن الله عَزَّجَلَّ لا يتعاضمه شيء أعطاه، أي: لا يشق عليه شيء ولا يعجزه.



٥٣- بَابُ لَا يَقُولُ : عَبْدِي وَأَمْتِي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ: أَطْعَمَ رَبِّكَ، وَضَى رَبِّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمْتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»^(١).

قوله: [بَابُ لَا يَقُولُ : عَبْدِي وَأَمْتِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ: أَطْعَمَ رَبِّكَ...» الحديث]: هذه الألفاظ المنهي عنها وإن كانت تطلق لغة، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد، وسدّاً لذرائع الشرك؛ لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله هو رب العباد جميعهم، فإذا أُطلق على غيره ما يُطلق عليه تعالى وقع الشبه في اللفظ. فينبغي أن يُجتنب هذا اللفظ في حق المخلوق من ذلك، فأرشدهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما يقوم مقام هذا اللفظ، وهو قوله: «سَيِّدِي وَمَوْلَايَ».

وكذلك قوله: «لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمْتِي»؛ لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ الآية [مريم: ٩٣].

... — الشَّيْخُ — ...

هذه الأبواب يشبه بعضها بعضاً، كلها من باب تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ والتأدب معه، وأنه لا يُقال في حقه ما يُقال في حق المخلوقين، ولذلك ساقها المصنف على نسق واحد؛ لأنها يشبه بعضها بعضاً. فإن قلت: لماذا لم يسقها في

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

باب واحد؟ نقول: فرقها لأجل التسهيل على المتعلم، حتى يقدر على حفظها وإتقانها، أما لو ساقها جميعاً في باب واحد شق حفظها وفهمها، والعلم يؤخذ شيئاً فشيئاً على مر الأيام والليالي، وما أحسن قول الإمام الجليل ابن شهاب الزهري^(١) في ذلك حيث قال: «من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، وإنما يُطلب العلم على مر الأيام والليالي»^(٢). ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «على أهل العلم أن يربوا هذه الأمة؛ كما يُربي الوالد ولده، فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كبارها، وتحميلهم منه ما يطيقون»^(٣).

❁ قوله: (بَابٌ لَا يَقُولُ : عَبْدِي وَأُمَّتِي) هذا أيضاً من احترام أسماء الله وتعظيم أسماء الله، فمن كان يملك عبداً أو أمة فلا يقل: عبدي وأمتي؛ لأن هذا لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، فإن العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

❁ ثم ساق المصنف رَحِمَهُ اللهُ الحديث الذي نهى فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا القول، وكعاداته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى بالبديل لما نهى عنه، فقال: (وَلْيُقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي)، هذا الذي يقوله السيد للعبد والأمة، وهذا كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أحد الأعلام من أئمة الإسلام، تابعي جليل، سمع غير واحد من التابعين وغيرهم، ولد سنة خمسين، وتوفي سنة أربع وعشرين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (١/١٥٧)، وتاريخ دمشق (٣٣/١٩٩)، ووفيات الأعيان (٤/١٧٧)، والوفاء بالوفيات (٥/١٧)، وسير أعلام النبلاء (٥/٣٢٦).

(٢) انظر: الجامع لابن عبد البر (١/٤٣١)، والجامع للخطيب البغدادي (١/٢٣٢)، وفتح المغيث للسخاوي (٢/٣٨١)، وتدريب الراوي (٢/١٥٢).

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (١/٦٦).

أَوْ أَمْضَى حَقْبًا ﴿ [الكهف: ٦٠]، ما قال: عبده، إنما قال: ﴿لِفَتْنِهِ﴾، فيقول للعبد: فتاي، وغلامي، ويقول للأمة: فتاتي، هذا من ناحية المالك والسيد.

أما من ناحية المملوك فإنه لا يقول: ربي، وإنما يقول: سيدي ومولاي؛ لأن المولى يُطلق على المالك، ويُطلق على المعتق الذي له الولاء على العبد، ويطلق على المناصر؛ لأن الموالاتة من معانيها المناصرة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الأنفال: ٤٠].

فالعبد يقول: سيدي، بمعنى: مالكه، ويقول: مولاي، يعني: الذي له الولاء علي، وهو الذي يتولى شؤوني. والزوجة تقول لزوجها: سيدي، أي: مالك عصمتها، والقائم عليها.

فينبغي تجنب الألفاظ الموهمة التي قد يُفهم منها شيء من الشرك، ولو كان المتكلم بها لا يقصد المعنى، ولكنه يتجنبها سدًّا لأبواب الشرك، وإن كان شركًا في اللفظ لا في المعنى والحقيقة.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأُولَى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ عَبْدِي وَأَمْتِي.
 الثَّانِيَةُ: لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَا يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمُ رَبَّكَ.
 الثَّالِثَةُ: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَعُغْلَامِي.
 الرَّابِعَةُ: تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ.
 الْخَامِسَةُ: التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِي الْأَلْفَاظِ.

... — الشَّرْحُ — ...

❖ قوله: (الأُولَى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ عَبْدِي وَأَمْتِي) وهو ما ترجم لأجله المصنف، وورد منصوباً عليه في الحديث: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمْتِي».

❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَا يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمُ رَبَّكَ) لا يقول العبد لسيده: ربي، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقول له أحد يخاطبه: أطعم ربك، وضئ ربك، ادع لي ربك، بمعنى: المالك له من بني آدم؛ لأن هذا الألفاظ تُطلق على الله عَزَّوَجَلَّ.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَعُغْلَامِي) الأول: هو السيد.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ) الثاني: هو المملوك.

❁ قوله: (الْحَامِسَةُ: التَّنْيِيهِ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِي الْأَلْفَاظِ) فَيُنْهَى عَنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ، وَإِنْ كَانَ قَائِلُهَا لَا يَقْصِدُ مَعْنَاهَا بِقَلْبِهِ؛ لِأَجْلِ سَدِّ الذَّرَائِعِ، وَحِمَايَةِ حُمَى التَّوْحِيدِ، حَتَّى الْأَلْفَاظِ الَّتِي فِيهَا إِيْهَامٌ فَإِنَّهَا تَتْرَكُ، وَاللُّغَةُ وَاسِعَةٌ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، يَسْتَعْمَلُ بِدَلْهَا مَا لَيْسَ فِيهِ مُحْظُورٌ، وَمَا لَيْسَ فِيهِ إِيْهَامٌ.



٥٤- بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَّائْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله، ويحتمل أن يكون المراد فيما لا مشقة على المسئول ولا ضرر، فيكون من باب مكارم الأخلاق ومعالي الشيم، وربما كان السائل محتاجاً أو مضطراً، فيجب أن يُعطى ما سأل، ويأثم المسئول في منعه، فيؤخذ من ماله أضعاف ما منع على وجه يكرهه.

فباعتبار هذه الأمور ينبغي لمن أعطاه الله نعمة أن يؤدي حق الله فيها، ويعطي من سأل من فضول نعمة الله عليه، خصوصاً إذا سأل بالله تعالى، فيكون إعطاؤه تعظيماً لمن سأل به، وهو الله عَزَّجَلَّ.

قوله: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ»: تعظيماً لله عَزَّجَلَّ، وتقرباً إليه بذلك.

قوله: «وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ»: هذا من حقوق المسلم على المسلم، ومن أسباب الألفة، وسلامة الصدر، وإكرام الداعي.

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي في الكبرى (٤٣/٢)، وأحمد في المسند (٦٨/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٥)، وابن حبان في صحيحه (١٩٩/٨)، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥)، والحاكم في المستدرک (٧٣/٢) وصححه، والبيهقي في الكبرى (١٩٩/٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ» أي: ينبغي المكافأة على المعروف، وهو من مكارم الأخلاق، وفيه السلامة من البخل وما يُذم به.

قوله: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ» فيه: أن الدعاء يقوم مقام المكافأة في حق من لم يجد ما يكافئ به.

قوله: «حَتَّى تَرَوْا» بضم التاء أي تظنوا.

وفي رواية أبي نهيك^(١) عن ابن عباس: «مَنْ سَأَلَكَ بِوَجْهِ اللَّهِ فَأَعْطُوهُ»^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ) ومناسبة هذا الباب في كتاب التوحيد: أنه يجب احترام أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والسؤال بالله معناه: الإقسام بالله عَزَّجَلَّ، فإذا قال السائل: أسألك بالله، فمعناه: أقسم عليك بالله؛ لأن الباء للقسام، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، فقوله: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ يدل على جواز السؤال بالله عَزَّجَلَّ، وأن من سأل بالله فإنه يُشرع له أن يُعطى ما سأل؛ لأن ذلك تعظيم لله عَزَّجَلَّ، وهذا من كمال التوحيد، وعدم إعطاء السائل بالله هذا نقص في التوحيد؛ لأنه لما جعل الله

(١) هو أبو نهيك الأزدي الفراهيدي البصري، صاحب القراءات، اسمه: عثمان بن نهيك، روى عن عبد الله بن عباس، وأبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري، وروى عنه حسين ابن واقد المروزي، وزيد بن سعد، وغيرهما، انظر: تهذيب الكمال (٣٤/ ٣٥٥)، وتهذيب التهذيب (١٤٢/ ٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٠٨)، وأحمد في المسند (٢٤٩/ ١)، وأبو يعلى في مسنده (٤١٢/ ٤).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سؤَالِهِ وَأَقْسَمَ بِهِ، فَإِنْ إِبْرَارُ الْمُقْسَمِ بِاللَّهِ مِنْ تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقد فصل العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي حُكْمِ إِجَابَةِ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ، فَقَالُوا: تَارَةً يَكُونُ وَاجِبًا، وَتَارَةً يَكُونُ مُسْتَحَبًّا، فَإِذَا كَانَ السَّائِلُ مُضْطَرًّا مُحْتَاجًا، وَالْمَسْئُولُ قَادِرًا عَلَى تَحْقِيقِ طَلْبِهِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ إِعْطَاؤُهُ بِهِذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ، احْتِرَامًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَتَعْظِيمًا لِمَنْ سُئِلَ بِهِ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ السَّائِلُ غَيْرَ مُحْتَاجٍ، أَوْ كَانَ الْمَسْئُولُ يَشُقُّ عَلَيْهِ إِعْطَاءُ السَّائِلِ، فَإِنْ إِجَابَتُهُ لَيْسَتْ وَاجِبَةً، إِنَّمَا هَذَا مِنْ بَابِ الْمُسْتَحَبِّ.

أَمَّا إِذَا سَأَلَ السَّائِلُ شَيْئًا لَهُ فِيهِ حَقٌّ، مِثْلُ أَنْ يَسْأَلَ شَيْئًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنْ كُلُّ مُسْلِمٍ لَهُ حَقٌّ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا سَأَلَ بِاللَّهِ وَجِبَ أَنْ يُعْطَى؛ لِأَنَّهُ يَسْأَلُ حَقًّا لَهُ.

ثُمَّ أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ حَدِيثَ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَرْبَعُ مَسَائِلَ:

المسألة الأولى: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ»، اسْتَعَاذَ: يَعْنِي لَجَأَ إِلَى اللَّهِ، إِذَا لَجَأَ إِلَى اللَّهِ وَعَاذَ بِاللَّهِ فَإِنَّكَ تَعِينُهُ عَلَى مَطْلُوبِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. وَلَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْمَاءَ بِنْتَ النَّعْمَانِ الْجُونِيَّةِ، وَأَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، وَدَنَا مِنْهَا، قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ عُدَّتْ بِعَظِيمٍ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ»^(١). فَأَعَاذَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا اسْتَعَاذَتْ بِاللَّهِ، وَكَانَتْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٢٥٤) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

امرأة جاهلة قد غرر بها، وقيل لها: إذا قلت له هذه الكلمة فإنه سيحبك!!
فقاتلتها لأنها تبغض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لأنها لا تحب الزواج منه،
ولكنها قالتها لأنها ظنت أنها تحبها إليه، لكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احترم هذه
الكلمة؛ لأنه أحق من يعظم ربه عَزَّجَلَّ، فلما عادت بالله أعادها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وطلقها، قال لها: «الْحَقِّي بِأَهْلِكَ».

فدل على مشروعية إعادة استعاذ بالله، ما لم يكن هذا المستعيز عليه
حق واجب ويريد التخلص منه، فإنه لا يجوز أن يُعاذ وهو في هذه الحالة، بل
يؤخذ منه الحق، خصوصاً إذا كان عليه حد من حدود الله، واستعاذ لأجل
أن لا يقام عليه الحد، فلا يجوز أن يُعاذ؛ لأن هذه استعاذة غير جائزة.
أما إذا كان المستعيز ليس عليه حق لأحد، واستعاذ من شيء مكروه،
فإنه يعاذ تعظيماً لله عَزَّجَلَّ.

المسألة الثانية - وهي محل الشاهد للباب - : «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ»،
إذا قال: أسألك بالله كذا وكذا، فإنه يُشرع لك أن تعطيه، والسائل له حق
حتى ولو لم يسأل بالله، ولكن إذا سأل بالله تأكد حقه، تعظيماً لله عَزَّجَلَّ، وهذا
من كمال التوحيد.

المسألة الثالثة: «وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ»، إذا دعاكم لزيارته أو لحضور
مأدبة عنده، فإنه يُشرع إجابته، وأحياناً تجب إجابته خاصة إذا كانت الوليمة
وليمة عرس، أو وليمة زواج، فإنه تجب إجابته إذا لم يكن هناك مانع؛ لقوله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ؛ يُدْعَى لَهَا الْأَغْنِيَاءُ، وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ، وَمَنْ تَرَكَ الدَّعْوَةَ؛ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١).

فتجب تلبية الدعوة إلى وليمة الزواج إلا في حالتين:

الأولى: إذا دعا دعوة عامة ولم يخصص؛ كأن يجيء إلى المجلس أو المسجد، أو يعلن في صحيفة بأن محل الوليمة في كذا وأنا ندعوكم، هذه دعوة عامة، والحضور إليها ليس واجباً، إن شاء حضر، وإن شاء لم يحضر.

الثانية: إذا كان في الوليمة منكر لا يقدر على إزالته وإنكاره، فإنه حينئذ لا يجوز له الحضور والسكوت عن المنكر؛ لقوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسُ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ»^(٢).

أما إذا كانت الوليمة خالية من المنكر، وجاءه الداعي وقال: يا فلان احضر، فإنه يحضر حتى ولو كان صائماً صيام تطوع فإنه يحضر، فإن شاء أكل وأفطر؛ لأن صيام التطوع يجوز نقضه، وإن شاء استمر على صيامه ودعا وانصرف، تطيباً لخاطر الداعي؛ لأنه يجب حضور المدعو، فإذا حضر حصل المقصود، وهذا من حق المسلم على المسلم؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا

(١) أخرجه البخاري (٥١٧٧)، ومسلم (١٤٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠١)، والنسائي في الكبرى (١٧١ / ٤)، وأحمد في المسند (٣٣٩ / ٣)، والطبراني في الأوسط (١٨٦ / ١)، والحاكم في المستدرک (٣٢٠ / ٤)، والبيهقي في شعب الإیمان (١٢ / ٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَأَنْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»^(١).

المسألة الرابعة: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا»، أي: أسدى إليكم معروفًا، وصنع لكم جميلًا، «فَكَافِئُوهُ» يعني: ردوا عليه معروفه، فاصنعوا له معروفًا يماثل ما صنع لكم، مكافأة له؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، حتى الكافر إذا صنع معروفًا للمسلم فإنه يكافئه؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، هذا في الكافر، فكيف بالمسلم إذا صنع لك معروفًا؟!

فالواجب إذا صنع لك المسلم معروفًا أن تكافئه، ولا تجحد معروفه، ولا تنكر فضله أو تتركه بدون مكافأة؛ لأن هذا من اللؤم، ولا يليق هذا بصفات المسلم.

❁ قال: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ» أي: عجزت عن مكافأته، «فادعوا له»، فهناك شيء لا يعجز عنه أحد وهو الدعاء، بأن تدعو له بالخير، والدعاء مقامه عظيم، قد يُستجاب دعاؤك له فيكون أنفع له مما لو كافأته بعرض دنيوي، لكن لا يكفي الدعاء لمن عنده استطاعة، إنما هو عوض عن الاستطاعة. وفي الحديث: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ؛ فَقَالَ لِصَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا؛ فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ»^(٢). المهم أن لا تترك الصنيعة بدون مكافأة،

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٣٥)، والنسائي في الكبرى (٥٣/٦)، وابن حبان في صحيحه =

إما بمثلها أو أحسن منها، وأقل شيء أن تدعو لصانع المعروف، ولا يليق بالمسلم أن يُصنع إليه المعروف ولا يكافئ عليه لا بمثله ولا بدعاء ولا بثناء ولا بشيء؛ لأن هذا ليس من صفات المسلم.

❁ قوله: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ» كذا ورد في الرواية، والأصل: (ما تكافئونه)؛ لأنه فعل مضارع تجرد عن الجازم والناصب فيرفع بثبوت النون، ولكن سقطت النون، ولا يدرى هل هي من الناسخ؟ فيكون هذا من باب اللحن، أو سقطت للتخفيف، على كل حال الأصل: (لا تكافئونه)، وقد جاءت بعض الروايات بثبوت النون على الأصل.

❁ قال: «فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا» ثَرُوا بضم التاء، أي: تظنوا، وبالفتح: تَرُوا، أي: حتى تعلموا «أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». فدل على أن المحسن يكافأ على إحسانه، إما بالقول أو بالفعل.

فهذا الحديث حديث عظيم، فيه هذه الفضائل، وهي من مكارم الأخلاق ومن فضائل الإسلام بين المسلمين وغيرهم، والشاهد منها قوله: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ»، وهذا مطابق لما ترجم به المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: إِعَادَةُ مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ.

الثَّانِيَّةُ: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ.

الثَّالِثَةُ: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.

الرَّابِعَةُ: الْمُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنِيعَةِ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ «حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ».

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأُولَى: إِعَادَةُ مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ) يؤخذ من قوله: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ» مشروعية إعادته، أي: تركه وعدم المساس به فيما يكره، إلا إذا كان عليه حق من حقوق الله عَزَّجَلَّ، أو من حقوق الخلق، فإن الاستعاذة لا تعفيه من حق الله أو من حقوق المخلوقين.

❖ قوله: (الثَّانِيَّةُ: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ)؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ»، على التفصيل بالوجوب أو بالاستحباب.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ) إجابة الدعوة عموماً هذه مستحبة، وفي مناسبة الزواج هذه واجبة بشروطها.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: الْمُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنِيعَةِ) الصنيع يعني المعروف.



❖ قوله: (الْحَامِسَةُ: أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ) هذا فيه فضيلة الدعاء، وأنه يعادل أو يعوض عن المال.

❖ قوله: (السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ «حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ» أَي: أَنَّكَ تَكَافَى مِنْ صَنْعِ إِلَيْكَ مَعْرُوفًا حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّكَ قَدْ كَفَأْتَهُ.



٥٥- بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١).

ذكر فيه حديث جابر - رواه أبو داود - قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ».

وهنا سؤال، وهو: أنه قد ورد في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند منصرفه من الطائف حين كذبه ثقيف، دعا بالدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِنِّيكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَيَّ مَنْ تَكَلَّنِي، إِلَيَّ عَدُوٌّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَيَّ قَرِيبٌ مَلَكَتُهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» (٢).

والحديث المروي في الأذكار: «اللَّهُمَّ أَنْتَ أَحَقُّ مِنْ ذِكْرٍ، وَأَحَقُّ مِنْ عَبْدٍ»، وفي آخره: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» (٣)، ونحوه في الأحاديث المرفوعة.

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧١).

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء (ص ٣١٥)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٧٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٩/ ١٨١) من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٧) وفي الدعاء (ص ١٢٠) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فيحتمل أن هذا فيما يكرهه العبد لا فيما يحبه ويتمناه، ويحتمل غير هذا، والله أعلم.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب مثل الذي قبله فيه احترام جناب الله عَزَّجَلَّ، وتعظيم أسمائه وصفاته؛ لأن ذلك من تحقيق التوحيد.

❦ قوله: (بَابٌ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ)، وجه الله: صفة من صفاته الذاتية، فإن الله عَزَّجَلَّ له صفات ذاتية وصفات فعلية، ومن صفاته الذاتية: الوجه، واليدين، والعينين، ومن صفاته الفعلية: الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والنزول، والاستواء، والعلو، والمجيء، والإتيان يوم القيامة.

ومن الأدلة على إثبات صفة الوجه لله عَزَّجَلَّ: قوله عَزَّجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، أضاف إلى الله إضافة صفة إلى موصوفها، ووصف هذا الوجه بصفتين: الجلال والإكرام، وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وجاءت الأحاديث الصحيحة بإثبات الوجه لله عَزَّجَلَّ، فيجب إثباته لله على ما يليق بجلاله، وليس كوجوه المخلوقين كما يتوهم من يتوهم من أهل الضلال.

بل ثبت لله صفاته الذاتية الواردة في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ، من غير تشبيه ولا تمثيل، فثبت لله وجهًا ليس كوجه المخلوق، ويدًا ليست كيد المخلوق، وأصابع ليست كأصابع المخلوق، فصفات الله تليق بجلاله وعظمته، وإن كان لها نظير في صفات المخلوقين من حيث اللفظ ومن حيث

المعنى، لكن من حيث الكيفية فإنها تختلف عن صفات المخلوقين، قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فلا يُسأل بوجه الله الأمور الحقيرة من حطام الدنيا، كمن يقول: أسألك بوجه الله أن تعطيني القلم، أسألك بوجه الله أن تعطيني مائة ريال، أو ما أشبه ذلك من متاع الدنيا، هذا تحقير لصفات الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما تسأل به أعظم المطالب وهي الجنة، أو ما يوصل إلى الجنة من الأعمال الصالحة، فوجه الله عَزَّوَجَلَّ لا يُسأل به إلا الشيء العظيم؛ لأنه عظيم، وأما السؤال بوجه الله في الأشياء الحقيرة، فهذا فيه تنقص لله عَزَّوَجَلَّ.

وينبغي أن نتنبه أن الصفة لا تُسأل ولا تُدعى، فلا يقال -مثلاً- يقوله الجاهل-: يا وجه الله، يا رحمة الله، يا قدرة الله!! هذا لا يجوز، إنما يُدعى الموصوف، ويُتوسل إليه بالصفة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: توسلوا إليه بها، فتقول: برحمتك أستغيث، ومن عذابك أستجير، ارحمني برحمتك أنت أرحم الراحمين. فالصفة يُدعى بها ولا تُدعى؛ لأنها تابعة للموصوف، فلا يُقال: يا وجه الله، يا قدرة الله... هذا لا يجوز، وهو حرام شديد التحريم، بل من العلماء من يرى أن من فعله يكفر بذلك.

ففرق بين الطلب من الصفة، وبين الطلب بها، الطلب بها معناه: التوسل إلى الله بها، وأما الطلب منها هذا لا يجوز؛ لأن هذا معناه أنها غير الله، وصفات الله ليست غيره، بل هي تابعة لذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم أورد المصنف حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ»، والحديث ضعيف، لا شك في ضعفه، فكيف أوردته المصنف؟

الجواب عن ذلك: أن المصنف أوردته لأنه يدخل تحت أصول، وله شواهد، والضعيف إذا كان له شواهد، ويدخل تحت أصول ثابتة، فإنه يُستدل به، أما إذا لم يكن له شواهد، ولا يدخل تحت أصول ثابتة، فإنه لا يُحتج به، وهذا الحديث له شواهد وله أصول ثابتة يدخل تحتها وهي: تعظيم صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واحترام أسماء الله.

❁ قوله: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي...» إلى آخر الحديث، هذا الدعاء مشهور بدعاء الطائف، فقد خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف بعدما مات عمه أبو طالب، الذي كان يحميه ويرد عنه كيد أعدائه، وماتت زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي كانت تؤازره وتسري عنه ما يصيبه من الهموم والأثقال، فتسلط عليه المشركون بعد موت عمه وزوجته في عام واحد، فخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله، لعلهم يستجيبون له ويجد عندهم مأوى وملاذاً من أذى قريش، لكنهم ردوه ردّاً قبيحاً، وأغروا سفهاءهم وعبيدهم يرمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلما بلغ وادي نخلة راجعاً صلى الفجر، وقرأ القرآن، فسمعتة الجن، فأعجبهم القرآن وآمنوا به، ودعوا قومهم إلى الإسلام، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ أَوْحَى

إِلَى أَنَّهُ أَسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ [الجن: ١]، ودعا ربه بهذا الدعاء العظيم.

الشاهد منه: قوله: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ»، هنا استعاذ بنور وجهه من أذى الكفار، والحديث الذي في الباب: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ»، فكيف يُجمع بين الحديثين؟ والجواب عن هذا: أن سؤاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعصمه الله من أذى الكفار، وأن يمكنه من إظهار هذا الدين، هذا مما يوصل إلى الجنة، فلا بأس أن يُسأل بوجه الله إذا كان الشيء المسؤول مما يوصل إلى الجنة.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأولى: النّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا غَايَةَ الْمَطَالِبِ.
الثّانية: إِبْثَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❖ قوله: (الأولى: النّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا غَايَةَ الْمَطَالِبِ) وهي الجنة، وكل ما عدا الجنة حقير، فلا يُسْأَلَ بوجه الله عَزَّوَجَلَّ.
❖ قوله: (الثّانية: إِبْثَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ) هذا لا شك فيه؛ لتواتر النصوص في الكتاب والسنة على إِبْثَاتِ الوجه لله عَزَّوَجَلَّ.



٥٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي اللُّو

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾

[آل عمران: ١٥٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].

[باب في ما جاء في اللو] أي: من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة؛ كالمصائب إذا جرى بها القدر، ونحوها.

قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾]: قاله بعض المنافقين يوم أحد؛ لخوفهم وجزعهم وخورهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيته مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين اشتد علينا الخوف أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقته في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب ابن قشير ما أسمعُه إلا كالحلم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا.

فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾؛ لقول معتب. رواه ابن أبي حاتم^(١).

وقال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي^(٢). يعني: أنه هو الذي قال ذلك.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٩٥).

(٢) لم أقف عليه من قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرج الطبري في تفسيره (٤/ ١٤٢) عن ابن جريج أنه قال: قيل لعبد الله بن أبي: قُتِلَ بنو الخزرج اليوم، قال: وهل لنا من الأمر من شيء؟

... ————— الشَّجْ ————— ...

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان الستة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل لما أتاه يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١). فيجب على العبد أن يؤمن بأن ما يحدث في هذا الكون من خير أو شر ومن محبوب أو مكروه، أنه كله بقضاء الله وقدره، وأن المصائب والأمراض والفقر وتسلط الأعداء كله بقضاء الله وقدره؛ لحكمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فيؤمن المسلم أن ما أصابه من مكروه إنما كان بقضاء الله وقدره، وأنه لا بد أن يقع، ولا يتحسر ويتلوم، ويقول: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا!! فعند المصائب والمكاره لا يجوز الإتيان بـ (لو)، بل يجب أن يؤمن بالقضاء والقدر، ولا يدري ما الذي فيه الخيرة، لعل الخيرة فيما أصابه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالواجب الرضى بقضاء الله وقدره، و(لو) هذه لا تخلصك من القضاء والقدر ولو فعلت ما فعلت؛ لأن قضاء الله لا يدفعه أفعالك ولا تصرفاتك.

(١) سبق تخريجه (٢/ ٥٧٢).

فدل هذا على أن قول: (لو) في باب اللوم للقضاء والقدر، فيه تنقص للتوحيد، وفيه عدم أو ضعف إيمان بالقضاء والقدر، وذلك مما ينافي التوحيد أو ينقص التوحيد، والواجب التسليم لله عَزَّجَلَّ عند المقادير، وأن يرضى بذلك ويسلم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فالاحتجاج بالقدر عند المصائب هذا مطلوب، أما الاحتجاج بالقدر على المعاصي هذا حرام ولا يجوز؛ لأن المعاصي من فعلك أنت، والواجب أنك تتركها، ولا تقل: هي مقدرة علي!! هي ما قُدرت عليك إلا بسبب فعلك أنت، فالواجب أن تتركها، وتترك أسبابها المؤدية إليها. أما المصائب التي ليس لك فيها اختيار، وليس لك فيها تدبير، فتسندها إلى الله عَزَّجَلَّ، وترضى وتسلم.

هذا هو سبيل المؤمنين، وهذا الباب هو من هذا القبيل: أن الرضا بالقضاء والقدر من مكملات التوحيد، أو من أصول التوحيد وأركان الإيمان.

❖ قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ) يعني: كلمة (لو)، أدخل عليها المصنف أل، وهي لا تدخل على الحروف والأفعال، إنما تدخل على الأسماء فقط، لكن هذا من باب التسامح في التعبير.

و(لو): حرف امتناع لامتناع، فتقول مثلاً: لو جاء زيد لأكرمه، امتنع إكرامه لأنه لم يجرى لامتناع مجيئه، أما لولا: فهي حرف امتناع لوجود، فتقول: لولا الله ما اهتدينا، أي: لولا وجود فضل الله وكرم الله ما حصلت لنا الهداية.

❦ قال: (وقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾) لما أصاب المسلمين في غزوة أحد ما أصابهم، واستشهد منهم سبعون شهيداً، لم يرض المنافقون بقضاء الله وقدره، فقالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾، فهم يلومون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خرج بهم وهم لا يريدون الخروج؛ لأنهم كانوا يريدون أن يقاتلوا في المدينة ولا يخرجوا منها.

قيل: إن الذي قال هذه المقالة هو عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وقيل: هو معتب بن قشير، وهو الذي عليه أكثر المفسرين، وسواء معتب بن قشير أو ابن أبي المهم أنها مقالة المنافقين، لكن الذي يُشكل عليه أن ابن أبي الخبيث ما خرج في أحد، بل رجع من الطريق، ومعتب خرج معهم وشهد أحد، فالظاهر والله أعلم أن هذا من قول المعتب.

❦ قال: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا﴾ فجعل قتلهم بسبب أنهم لم يُستشاروا، وهل هذا صحيح أن الموت والقتل يرجع إلى تصرفات الناس؟ هذا ليس صحيحاً، الموت بيد الله والقتل بيد الله، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فبقاؤكم في المدينة وفي بيوتكم لا ينجيكم من الموت، إذا قدر الله عليكم الموت خرجتم من بيوتكم، والموت يأتيكم حتى في بيوتكم لو ما خرجتم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فحصول القتل والموت ليس بسبب تصرفات الأدميين، وإنما هو بقضاء الله وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن هؤلاء لا يؤمنون بالقدر.

فدلت الآية على أن استخدام (لو) في التسخط وعدم الرضى بأقدار الله إنما يكون من الذين لم يؤمنوا بقضاء الله وقدره، والمسلم يجب عليه الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، ففي الآية نهي عن استخدام (لو) لأن في استخدامها تنقص للتوحيد وتسخط على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ، ففي قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ جعلوا الأمر إليهم هم وليس لله عَزَّوَجَلَّ، ولم يؤمنوا بأن ما حصل في وقعة أحد أمر مقدر من الله عَزَّوَجَلَّ، وجعلوه بسبب مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة لرأيهم وخروجهم إلى القتال.

❁ قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] الذي قال المقالة الأولى على الصحيح هو معتب بن قشير من المنافقين، والذي قال المقالة الثانية هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين.

❁ قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: الذين قتلوا في وقعة أحد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يعني: لو بقوا في المدينة ولم يخرجوا ﴿مَا قُتِلُوا﴾، وهل هذا صحيح أن الذي يبقى في المدينة لا يُقتل ولا يأتيه الموت؟! هذا ليس بصحيح، فالموت لا ينجي منه شيء، والقتل إذا كتبه الله لا ينجي منه شيء أبدًا، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إذا كنتم تستطيعون أن تدرؤوا الموت عن هؤلاء فادرؤوه عن أنفسكم من باب أولى، ولكنكم لا تستطيعون أن تمنعوا الموت عن أنفسكم فكيف تمنعونه عن غيركم؟! هذا رد واضح من القرآن الكريم.

الحاصل: أن هذه مقالات المنافقين، وفيها لوم للقضاء والقدر، وكان الواجب عليهم أن يقولوا: هذا بقضاء الله وقدره، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهنا يرد إشكال في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ والمراد بإخوانهم شهداء أحد من خاصة المؤمنين وخيار المسلمين، فلماذا قال: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ مع أن هؤلاء منافقون، فهل المنافق يكون أخاً للمؤمن؟

الجواب: نعم، يكون أخاً له في الظاهر؛ لأنه يدعي الإسلام، فالمنافقون مسلمون في الظاهر وهم إخوة للمسلمين في الظاهر، وأما في الباطن فليسوا إخوة. وقيل: إخوانهم في النسب؛ لأن القائل من الأنصار، والمقتولون أغلبهم من الأنصار، فهم إخوانهم في النسب، وهذا مثل قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِأَلْحَقَافٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، يعني: هود عَلَيْهِ السَّلَام، قال: ﴿أَخَا عَادٍ﴾ مع أن عاداً كفار، وهود رسول الله، وذلك لأنه أخوهم في النسب، ومثله قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] يعني: في النسب والقبيلة.



فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

قوله: [فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ...» الحديث]: اختصر المصنف هذا الحديث، وتمامه: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ...» إلى آخره.

قوله: «أَخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» أي: في دنياك وأخراك، وخص ما ينفع دون ما ليس كذلك مما فيه ضرر أو عدم نفع، وذلك لا يخرج عن الواجب، والمستحب، والمباح إذا كان نافعاً.

قوله: «وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»؛ لأنه لا يحصل له ذلك إلا إذا كان مستعيناً بالله. قوله: «وَلَا تَعْجِزَنَّ»: نهاه عن العجز؛ لأنه مما يُذم به عقلاً وشرعاً، فما أكثر ذلك في الناس، فكم فوت الإنسان على نفسه من الخير وهو يقدر عليه إذا رغب فيه واستعان بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ»؛ لأن ما قدر يكون، فيجب الإيمان بالقدر والتسليم، وأرشده إلى أن يقول: «قَدَرُ اللَّهِ» أي: هذا قدر الله، والمبتدأ محذوف وتقديره:

هذا قدر الله وما شاء فعل؛ لأن أفعاله عَزَّجَلَّ إنما تصدر عن حكمة وعلم وفضل وعدل، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله: «فَإِنَّ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ» أي: لِمَا فيها من التأسف على ما فات والحزن، فيأثم في ذلك، وذلك من عمل الشيطان.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا حديث عظيم وأصل عظيم ومنهج يسير عليه المسلم.

❁ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول الحديث: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ» أي: القوي في إيمانه، والقوي في بدنه، والقوي في رأيه «خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»؛ لأن نفعه يتعدى للمسلمين، فهو خير من المؤمن الضعيف في بدنه، أو في رأيه، أو في إيمانه، والمؤمن محبوب إلى الله عَزَّجَلَّ على كل حال، حتى ولو كان ضعيفاً، لكن المؤمن القوي أحب إلى الله عَزَّجَلَّ منه.

وفي هذا إثبات المحبة لله عَزَّجَلَّ، وأنه عَزَّجَلَّ يحب المؤمنين، لكنه يحب المؤمن القوي أكثر من محبته للمؤمن الضعيف.

❁ قوله: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» أي: في المؤمن القوي والمؤمن الضعيف، لكن المؤمن القوي خيره يتعدى للإسلام والمسلمين، وأما الضعيف فخيره يكون قاصراً على نفسه، وكل منهما يحبه الله عَزَّجَلَّ.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اٰخِرُ صُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»، هذا فيه مشروعية طلب الرزق وعمل الأسباب النافعة، وألا يكسل الإنسان ويقول: أنا متوكل

على الله وما قسمه الله لي سيأتيني! دون أن يفعل ما عليه، فالواجب أن تحرص على ما ينفعك، وأي شيء ترى أن فيه منفعة وخيراً احرص على تحصيله، وهذا من فعل السبب، فتطلب الرزق، وتتعلم العلم، وتزوج لتنجب الأولاد، وتحرق الأرض لتنبت، هذه كلها جعلها الله أسباباً لحصول النتائج، لكن لا تقتصر عليها، بل تستعين بالله وتتوكل عليه عَزَّوَجَلَّ، فلا تقتصر على الأسباب وتظن أنها تكفي، ولا تكسل عن فعل الأسباب، بل لا بد من الأمرين: فعل الأسباب مع الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ والتوكل عليه. هذا هو دين الإسلام، جاء بفعل الأسباب مع التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستعانة به عَزَّوَجَلَّ.

❁ ثم قال: «وَلَا تَعْجَزَنَّ» هذا فيه النهي عن العجز وهو الكسل والخمول، والنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعاذ بالله عَزَّوَجَلَّ من العجز والكسل، ومن البخل والجبن^(١)؛ لأن هذه صفات مذمومة، أما العجز الذي ليس للإنسان فيه قدرة مثل المرض، فهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكن المراد بالعجز هنا: الكسل والخمول، والميل إلى الراحة والدعة، فهذا لا يجوز؛ لأن فيه تعطيل للأسباب.

❁ قال: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ» يعني: مما تكره، بأن فعلت السبب واستعنت بالله ولم تعجز، لكن لم يحصل المطلوب، «فَلَا تَقُلْ تَوَأْنِي فَعَلْتُ كَذَا» مثل

(١) كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٢٨٩٣) أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان كثيراً ما يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ...»، وأخرجه مسلم (٢٧٠٦) بنحو هذا اللفظ.

قول المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾، وقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، فلو في الآيتين وفي الحديث مذمومة؛ لأن فيها تسخط على القضاء والقدر، وهذا نقص في التوحيد، أو منافع للتوحيد، إذا قالها من لا يؤمن بالقضاء والقدر فهذا كافر، أما إن قالها من يؤمن بالقضاء والقدر لكنه ضعيف الإيمان فهذا ناقص الإيمان. فكلمة (لو) لا يؤتى بها مع المصائب ومع حصول المكاره، وإنما يُسند هذا إلى قضاء الله وقدره، فإذا أصابك ما تكره أو لم يحصل لك المطلوب فلا تُقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، ولكن قل: «قَدَّرَ اللَّهُ»، وفي رواية: «قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، فتد هذا إلى القضاء والقدر، وهذا يريحك من الوسوس. ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» فإذا أرجعت هذا إلى القضاء والقدر، فإن هذا يريحك ويسد على الشيطان باب الوسوس التي يزعجك به.

فهذا حديث عظيم، ومنهج عظيم، يسير عليه المسلم في حياته في أمور دينه وأمر دنياه، وهو من كمال التوحيد، بل هو أعظم أنواع التوحيد.

لكن قد يُشكل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أمر أصحابه الذين لم يسوقوا الهدى في حجة الوداع بعدما طافوا وسعوا، أمرهم أن يقصوا من رؤوسهم وأن يجعلوها عمرة، أي: يحولوا القران والإفراد إلى تمتع، وقال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ، وَلَحَلَلْتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا»^(١). فالذي منعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحل مع الناس أنه ساق الهدى؛ لأن الذي يسوق الهدى

من الحل يبقى على إحرامه حتى يذبح الهدي يوم النحر؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، يعني: يوم النحر، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأسف وقال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ...»، فأتى بكلمة (لو)، وفي حديث الباب ينهى عن قول: (لو)، فما الجواب عن ذلك؟

نقول: هذا ليس من باب الاعتراض على القضاء والقدر، وإنما هذا من باب بيان الأفضل، يقول: لو أي علمت فضل التمتع لما سقت الهدي الذي يمنعني من التمتع؛ لأن أفضل الأنساك التمتع. فهذا من باب بيان الأفضل والتأسف على فوات فعل الخير.

فالإنسان يلوم نفسه إذا فاتته الطاعة، أو فاته الخير، أو فاتته قيام الليل، أو فاتته الجهاد في سبيل الله، يلوم نفسه على ترك الخير، ولا يترك الطاعة والعبادة ويقول: هذا قضاء الله وقدره! بل يلوم نفسه أنها قصرت في جانب الله، وأنها وأنها... هذا محمود من المسلم. ففرق بين التسخط على قضاء الله وقدره، وبين التأسف على فوات فعل الخير.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.

الثانية: النَّهْيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ: لَوْ، إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.

الثالثة: تَعْلِيلُ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.

الرابعة: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ الْحَسَنِ.

الخامسة: الْأَمْرُ بِالْحَرَصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ.

السادسة: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ وَهُوَ الْعَجْزُ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ)، وهما: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، الْآيَتَانِ فِيهِمَا (لو).

❖ قوله: (الثانية: النَّهْيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ: لَوْ، إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ) لمجيء النهي صريحاً في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا».

❖ قوله: (الثالثة: تَعْلِيلُ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) تعليل النهي بأن الإتيان بكلمة (لو) يفتح عليك باب الوسواس والهجوم والأحزان.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: الْإِشَادُ إِلَى الْكَلَامِ الْحَسَنِ) فتقول عند المصيبة: قدر الله وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، وما شابه ذلك من الكلام الحسن، وتترك الكلام القبيح الذي يدل على الجزع والتسخط والتلوم.

❖ قوله: (الْخَامِسَةُ: الْأَمْرُ بِالْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ) بالجمع بين فعل السبب النافع، والتوكل على الله. فلا يكفي أحدهما عن الآخر.

❖ قوله: (السَّادِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ ضِدِّ ذَلِكَ وَهُوَ الْعَجْزُ) أي: النهي عن ضد فعل السبب والتوكل على الله، وهو: العجز والكسل وإيثار الراحة.



٥٧- بَابُ النَّهْيِ عَنِ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: االلَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرْتُ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ (١).

قوله: [بَابُ النَّهْيِ عَنِ سَبِّ الرِّيحِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ...» الحديث]. لأن الرِّيحَ خلق من خلق الله مدبر، وإنما تهب بمشيئة الله وقدرته، فيرجع السب إلى من خلقها وسخرها. وأرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ إِلَى أَنْ يَقُولُوا مَا ذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ سُؤَالُهُ تَعَالَى خَيْرَهَا وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَالِاسْتِعَاذَةُ بِهِ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا. وَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ أَنْ يَسْأَلُوهُ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَسْتَعِينُوا بِهِ مِنْ شَرِّ مَا يَضُرُّهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عِبَادِيَّةً لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَطَاعَةً لَهُ، وَإِيمَانًا بِهِ، وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، خِلَافًا لِحَالِ أَهْلِ الشَّرْكِ وَالْبَدْعِ.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب من جنس الأبواب السابقة التي فيها النَّهْيُ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ إِضَافَةُ الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ خَالِقُهَا وَمُدَبِّرُهَا، فَتُضَافُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَا تُضَافُ إِلَى غَيْرِهِ، لَا إِضَافَةٌ

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٢)، والنسائي في الكبرى (٢٣١ / ٦)، وأحمد في المسند (٧٥ / ٣٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٧ / ٦).

سبّ، ولا إضافة مدح؛ لأنّ في ذلك تنقُصاً لله عَزَّوَجَلَّ، وإسناد الأمور إلى غيره.

❦ قوله: (بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ) والريح من خلق الله، يأمرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدبرها، ويسخرها فتجري حيث يشاء. وهي تُجمع على رياح، والرياح تأتي من جهات مختلفة، وتُسمى بالجهة التي تهب منها، فيقال: ريح الشمال، وريح الجنوب، وريح الصبا وهي الريح الشرقية، وريح الدبور وهي الريح الغربية، فهي تارة تهب من هنا وتارة تهب من هناك، والذي يصرفها هو الله عَزَّوَجَلَّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَيْنَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

والرياح تأتي بالخير وتأتي بالشر بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما هي إلا أسباب، منها ما يثير السحاب ويسوقه، ومنها ما يلقيه، ومنها ما يمزق السحاب ويفرقه، ومنها ما يلقيح الأشجار والثمار، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

ومنها ما يأتي بالعذاب، كما أهلك الله عَزَّوَجَلَّ قوم عاد بالريح العقيم، ومنها ما يأتي بالنصر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»^(١)، يعني: الرياح، والله عَزَّوَجَلَّ أرسل على الأحزاب ريحاً حتى كفأت قدورهم على أفواهها، ونزعت فساطيطهم حتى أظعتهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ءَامِنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴿[الأحزاب: ٩]﴾. فهي خلق من خلق الله مسخرة، ومدبرة مأمورة، وهي من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والواجب إسناد الأمور إلى الخالق الذي خلقها ودبرها، لا إسناد الأمور إلى المخلوقات المأمورة والمنهية والمدبرة، هذا هو التوحيد، أما إسناد الأمور والحوادث إلى المخلوقات، فهذا ينقص التوحيد.

والله عَزَّجَلَّ يجري الخير والشر لحكمة بالغة وغاية محمودة، فلا يجري شيئا عبثا في هذا الكون، فلا يجوز أن يوجه اللوم إلى الريح إذا حصل من آثارها شيء يكرهه الإنسان في نفسه، أو في مواشيه، أو في حرثه، أو غير ذلك، فلا ينسب ذلك إلى الريح ويسبها ويشتمها ويلعنها؛ لأن هذا الذم وهذا السب ينصرف إلى الله إلى الذي خلقها وأمرها ودبرها.

فسب الريح إخلال بالتوحيد، ولذلك ذكر المصنف في هذا الباب، النهي عن سب الريح، أي: ذم الريح وشتمها، وإن كانت الريح قد يحصل منها ضرر، فقد تكون شديدة البرودة، أو شديدة الحرارة، فتؤثر - بإذن الله - على المزارع والثمار، وعلى المراكب في البحر، وما ذلك إلا بأمر الله عَزَّجَلَّ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَئِبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، إذا وقعوا في الشدة وعانوا الهلاك نسوا الأصنام والمعبودات وأخلصوا الدعاء لله عَزَّجَلَّ، ﴿فَلَمَّا أَتَجَّهُمُ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿[يونس: ٢٣]﴾، لما أخرجهم وأنجاهم نكثوا العهد مع الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه طبيعة الإنسان إلا من هدى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الحاصل: أن هذه الريح تجري بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وهي آية من آيات الله لا يجوز سبها؛ لأن سبها ينصرف إلى خالقها ومرسلها، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، فهي لا تفعل شيئاً من اختيارها، إنما هي مدبرة مأمورة، تجري بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يتوجه إليها ذم أو لوم أو سب أو غير ذلك.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ حديثاً في النهي عن سب الريح، عن أبي بن كعب، وهو: أبو المنذر أبي بن كعب الخزرجي الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أقرأ الصحابة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ»، هذا نهى منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سب الريح وذمها؛ لأنها خلق من خلق الله لا يتوجه إليها ذم، فمن ذمها توجه ذمه إلى الذي أرسلها وخلقها، وهذا نقص في التوحيد، وإذا كان يعتقد أن الريح تخلق مع الله وتدبر مع الله فهذا شرك أكبر يخرج من الملة.

فسب الريح فيه محظوران:

أولاً: أنه سب لله عَزَّوَجَلَّ.

ثانياً: إذا اعتقد أنها تتصرف في الكون فقد أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

❁ قال: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ»، يعني: رأيتم شدة الريح وقوتها، وخشيتم أن تضركم في أنفسكم وأموالكم، «فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أَمَرْتَ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ

وَشَرًّا مَا فِيهَا وَشَرًّا مَا أُمِرْتُ بِهِ» أي: توجهوا إلى الله بالدعاء، توجهوا إلى الذي يملكها ويرسلها أن يكفيكم شرها، هذا هو العلاج، أما سب الرياح فلا يجدي شيئاً؛ لأن الله عَزَّجَلَّ هو الذي أرسلها، فاسألوه أن يعطيكم من خيرها ويقيكم شرها؛ لأن الرياح تأتي بالخير: من إثارة السحاب، وسوقها، وتأليفها، وتلقيحها، وتسيير السفن في البحر، وغير ذلك، وتأتي بالشر: من الهلاك، وإتلاف المحاصيل والمزارع، وهدم المباني، وإشعال الحرائق، وغير ذلك.

هكذا شأن المسلم إذا رأى ما يكره يتوجه إلى الله بالدعاء، وهذا هو التوحيد، بل هو أعظم التوحيد.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

الثَّانِيَةُ: الْإِزْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثَّالِثَةُ: الْإِزْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا قَدْ تُوْمِرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُوْمَرُ بِشَرٍّ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ)، وذلك لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ» هذا نهْي، والنهْي يفيد التحريم.

❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: الْإِزْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ)

بدل السب واللعن والكلام السيئ يدعو الإنسان بهذا الدعاء؛ لأنه توحيد، وسب الريح نقص في التوحيد.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: الْإِزْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ) فلا يتوجه الذم إليها؛ لأنها

مطبعة لله مأمورة مدبرة.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا قَدْ تُوْمَرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُوْمَرُ بِشَرٍّ) الحديث يدل على

أنها تأتي بالخير وتأتي بالشر؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشد أصحابه إلى سؤال الله من خيرها، والاستعانة بالله من شرها، فدل على أن الريح تأتي بهذا وهذا حسب أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



٥٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يَظُنُّوكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦٥].

قوله: [باب قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَظُنُّوكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾]، وهذه الآية ذكرها الله عَزَّجَلَّ في سياق قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، يعني: أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عَزَّجَلَّ ينصر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينجز مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف، ﴿يَظُنُّوكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب باب عظيم، فيه وجوب حسن الظن بالله عَزَّجَلْ؛ لأن هذا هو التوحيد، وفيه النهي عن سوء الظن بالله عَزَّجَلْ؛ لأنه مناف للتوحيد. ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب آيتين: الآية الأولى من سورة آل عمران في قصة المنافقين يوم أحد، والآية الثانية من سورة الفتح في موقفهم يوم الحديبية، وفي غزوة خيبر.

وهكذا المنافقون دائماً وأبداً، عند الرخاء يتملقون المسلمين، ويُظهرون أنهم منهم، فإذا جاءت الشدة انكشف نفاقهم وعداوتهم لله ولرسوله وللمسلمين، ففي وقعة أحد لما حصل على المسلمين ما حصل من المصيبة، واستشهد منهم سبعون شهيداً، وجرح منهم من جرح، ظهر أهل النفاق، وتكلموا بالقبائح.

❁ قال عَزَّجَلْ في الآية الأولى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾ أي: بعد النكبة التي أصابتكم ﴿أَمْنَةً﴾ والأمنة: النعاس، وهو شيء من النوم، ولا ينام إلا إنسان آمن، أما الإنسان الخائف فإنه قلق لا يأتيه النوم، فهذا مما فرق الله به بين المؤمنين والمنافقين: المؤمنون أصابهم النوم؛ لأنهم مؤمنون بالله مطمئنون في إيمانهم، لا تزحزحهم الشدائد والكربات.

وقد سبق قول الزبير بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لقد رأيتني مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين اشتد علينا الخوف أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل

إلا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعته إلا كالحلم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا (سمع كلمة هذا المنافق وهو يقول هذا الكلام القبيح، سمعه وهو بين النائم والمستيقظ).

❁ قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ما قال: طائفة منكم كما قال فيمن غشيهم النوم: ﴿يَفْشَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ﴾؛ لأن الذين أصابهم النوم من المؤمنين، أما الذين أهتمهم أنفسهم وطار عنهم النوم فهم ليسوا من المؤمنين، إنما هم من المنافقين، والذي طير عنهم النوم: الخوف؛ لأنهم لا يثقون بوعده الله عَزَّجَلَّ، ولا يرضون بقضائه وقدره، ولا يؤمنون بأن ما أصابهم مقدر ولا بد أن يقع، وأنه لا يُنجي منه الحذر، وأن الله له الحكمة في ذلك.

❁ قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الجاهلية: من الجهل، وهو ما كان قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام زالت الجاهلية العامة والله الحمد، وبقي بعض الجاهلية في بعض الناس، ولا يكون هناك جاهلية عامة أبداً إلى أن تقوم الساعة، لكن يكون هناك جاهلية في بعض الناس، أو في بعض القبائل. وكل ما كان من أمور الجاهلية فهو قبيح مذموم، مثل: تبرج الجاهلية، ظن الجاهلية، حمية الجاهلية.

وقد ظهر ظن الجاهلية على ألسنة المنافقين، فقالوا: ﴿هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾ ما نسبوا ما أصابهم إلى الله، ولم يرضوا بقضاء الله وقدره، وإنما جعلوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه سبباً لما حصل لهم، وظنوا أنهم لو أطاعوهم ما حصل لهم هذا الشيء، وهذا يعني أنهم ينكرون القدر،

وأن ما أصاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ليس قضاءً وقدرًا، وإنما هو بسبب أنهم لم يأخذوا برأي المنافقين.

❖ قوله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، كرروا هذا الظن القبيح، وقالوا: لو كان لنا من الأمر والمشورة شيء ما قتلنا هاهنا، أي: لو أطاعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ما حصل هذا القتل!! كأن القتل راجع إلى آرائهم ومشورتهم، فلا يؤمنون بقضاء الله وقدره، وإن آمنوا بقضاء الله وقدره فهم لا يؤمنون بحكمة الله، وأن الله أجرى هذا لحكمة، وإنما يتسخطون ويقولون: هذا لا يصلح ولا يجوز، وهذا ظلم، لماذا يُقتل المؤمنون والكفار ينتصرون؟ لو كانوا على إيمان صحيح ما قتلوا، لو كان محمدًا رسول الله حقًا لما حصل عليه ما حصل؛ كما قالوا في وقعة بدر: ﴿عَرَّ هَوَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، هذه كلمات المنافقين دائمًا.

❖ قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ كون الإنسان في بيته لا يحميه من الموت، إذا قدر الله أنه يُقتل سيخرج من بيته ويُساق إلى مصرعه، فبقاؤكم في البيوت لا يحميكم من الموت، إما أن يأتىكم الموت وأنتم في بيوتكم، وإما أنكم تخرجون إليه وتبرزون له. قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَتِنَمَاتَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، لو كنتم في بروج مشيدة ومحمية وحصون منيعة ما منعكم هذا من الموت إذا قدره الله عَزَّجَلَّ عليكم، إما أن يدرككم الموت وأنتم في حصونكم، وإما أن

تخرجوا من هذه الحصون وتبرزوا إلى مصارعكم، هذا هو حال المنافقين -والعياذ بالله- يظنون ظن الجاهلية.

أما أهل الإيمان فإنهم يحسنون الظن بالله عَزَّجَلَّ مهما كان الأمر، ويعلمون أن ما أصابهم فإنه لحكمة ولصالحهم، سواء أكان خيراً أم كان شراً، فإن كان خيراً فهو نعمة من الله عَزَّجَلَّ، وإن كان شراً وعقوبة فإنه تمحيص وتطهير للمسلمين، وتنبيه لهم على أخطائهم حتى يستدركوها، ولئلا يعجبوا بأنفسهم، وليتميز المؤمن من المنافق، قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فلو كان الأمر نعمة دائمة ورخاء دائم ونصر دائم ما تميز المنافق من المؤمن، لكن إذا جاءت الشدائد انحاز المنافقون وظهروا وتكلموا بالكلام الخبيث.

وهذا في كل زمان ومكان، وما هو واقع الآن يدل على هذا، فكلام المنافقين وكلام الأشرار كثير في أهل الخير وأهل العلم، وفي ولاية أمور المسلمين، وهذا كله من النفاق.

❁ قال عَزَّجَلَّ في الآية الثانية: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦] قَدَّمَ المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات، مما يدل على أن خطر المنافقين أشد من خطر المشركين، ويدل أيضاً على أن النساء فيهن منافقات والعياذ بالله، كما أن فيهن مؤمنات.

❁ قوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنِّكَ أَلْسَوْءُ﴾ ❁ أي: يسيئون الظن بالله عزَّوجلَّ، وأنه لن ينصر رسوله، ولن يُعلي كلمته، وأن هذا الذي جاء به محمد لا يثبت ولا يبقى وسينكشف في يوم من الأيام، فلذلك تخلفوا عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية وفي غزوة خيبر ولم يخرجوا معه.

هذه حالة المنافقين مع الشدائد في كل زمان ومكان، ينحازون عن المؤمنين ويظهر نفاقهم وشرهم.



قال ابن القيم في الآية الأولى: فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحده ووعد الصادق.

فمن ظن أنه يدلل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله غيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا^(١)

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل. وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره على الدين كله، هذا هو سوء الظن ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦] قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] قال ابن جرير في تفسيره: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءِ﴾ أي: الظالنين بالله أن لن ينصرك وأهل الإيثار بك على أعدائك، وأن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع^(٢).

وقال ابن كثير: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءِ﴾ أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٨-٢٣٥)، وهذا البيت للصحابي الجليل الأسود بن سريع التميمي، المتوفى سنة اثنتين وأربعين، كان يقوله في قصصه، فسرقة الفرزدق، وهو أول من قص في مسجد البصرة. انظر: المعارف (ص ٥٥٧)، وانظر ترجمته في: الطبقات الكبرى (٧/ ٤١)، والإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٧٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٧٣).

وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده، ووعد الصديق.

فمن ظن أنه يدبيل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمنحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشئته مجردة، فذلك ظن الذين كفروا ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» ذكر غزوات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما فيها من الفقه والحكم، ولما جاء على غزوة أحد تكلم عليها بكلام طويل يكتب بهاء الذهب، من حسنه ودقته وفقهه رَحِمَهُ اللَّهُ، من ذلك ما ذكره المصنف هنا، ذكر منه جملة مختصرة، والباقي يرجع إليه من أراد أن يستزيد ليرى العجب العجيب مما برز به هذا الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ.

❖ قوله: (فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيُضْمَحِلُّ) فُسِّرَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُظْهِرُ هَذَا الدِّينَ، وَأَنَّ هَذَا الدِّينَ سَيُضْمَحِلُّ مِثْلَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ وَالْمَبَادِئِ الْهَدَامَةِ، يَظُنُّونَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُتَنَبِّئِينَ الْكَذِبَةِ، أَنَّهُمْ وَإِنْ ظَهَرُوا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَصَارَ لَهُمْ قُوَّةٌ لَكِنْ يَتَلَاشَى أَمْرَهُمْ وَيَذْهَبُ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ شَاعِرٌ مِثْلَ غَيْرِهِ

من الشعراء، يموت ثم يموت شعره معه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٠].

هذا ظنهم بالله عَزَّجَلَّ وبرسوله، وهذا موجود إلى الآن، يوجد من يقول: إن هذا الدين تقاليد بالية، وعادات قديمة، ورجعية، وكذا وكذا، يتكلمون الآن بهذا الكلام في كتبهم وفي صحفهم، وكل قوم لهم وارث.

❁ قوله: (وُفَسِّرَ بَأْنَ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ) فسروه بأن ما جرى ليس بقضاء الله وقدره، وأنه راجع إلى تصرفات الناس، (ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أي: أن ما جرى من المصيبة التي حصلت على المسلمين في وقعة أحد ليس لحكمة إلهية، وإنما هو أمر خال من الحكمة، وكأنه عبث من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتساءلون: كيف تخلى الله عن رسوله وعن عباده المؤمنين، وأعطى الكفار شيئاً من التمكين بزعمهم؟ ثم يزعمون أن هذا ليس لحكمة إلهية!! وهل الحكمة أن ينتصر المؤمنون دائماً ولا يهزمون أبداً، وأن يصير الكفار دائماً مهزومين ومنحطين؟!

لا شك أن هذا ليس هو الحكمة، فلو كان الإسلام منتصراً دائماً ما كفر أحد من أهل الأرض، ولدخلوا جميعاً فيه؛ لأنهم ييغون النصر والعزة، والله سبحانه يجري ما يجري من المكروه لأجل أن لا يثبت إلا أهل الإيمان، الذين ليس عندهم شك، وأما أهل النفاق فإنهم يتراجعون عند أول هزة، وينكشف أمرهم، وهذا من حكمة الله عَزَّجَلَّ يجري على أوليائه

المؤمنين مصائب لا لأنه يبغضهم، أو لأنه يريد أن يهلكهم، ولكن لينبهم على أخطائهم حتى يتداركوها، ولأجل أن يميز المؤمن من المنافق، ويميز الخبيث من الطيب، وأيضاً لأجل أن يمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين، فما يجري على المؤمنين تمحيص، وما يجري على الكفار محق وإزالة، فالله عَزَّجَلَّ له حكمة بالغة فيما يجري من الخير والشر، وليست الأمور تجري بدون حكمة، أو تجري على العادة والمألوف فقط، إنما هي لحكمة إلهية عظيمة.

ومما يدل على هذا: أن هذا الدين منذ أن جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقوم الساعة، رغم أن أهل الأرض كلهم ضد هذا الدين، وكلهم يريدون القضاء عليه مع ما عندهم من القوة والإمكانات، ومع هذا فإن هذا الدين ثابت ثبات الجبال لا يتزعزع، ولم يتغير منه شيء؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»^(١)، فأهل السلاح وأهل القوة ما قدروا على هذا الدين بقوتهم، وأهل الكذب والتدجيل الذين كذبوا على الإسلام، وكتبوا عن الإسلام وأرادوا أن يشوهوا الإسلام ما حصلوا شيئاً، والدين ثابت والله الحمد، والذين كذبوا على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختلقوا أحاديث الكذب ونسبوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما دخلت في سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل سخر لها الله عَزَّجَلَّ من أهل العلم من يعزلها عزلاً تاماً، وأصبحت سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محفوظة محروسة، والذين كرهوا القرآن وزعموا أنه أساطير الأولين، ما استطاعوا أن يغيروا

حرفاً من القرآن، ولن يغيروا إلى أن تقوم الساعة؛ لقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

❖ قوله: (وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح) فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بعدما حصل عليهم ما حصل في وقعة أحد، بعد سنوات يسيرة يغزو أهل مكة، بعدما غزوه في الأحزاب، وغزوه في أحد، غزاهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عقر دارهم، واستولى عليهم، وخلص مكة من أيديهم.

ثم ظن من ظن منهم أنه إذا مات الرسول سينتهي الإسلام، ولكن الإسلام قوي بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقام بعده أبو بكر الصديق، وعمر الفارق، وعثمان ذو النورين، وعلي بن أبي طالب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما انتهى عصر الخلفاء الراشدين ظنوا أن الإسلام سيضمحل، ولكن الله عَزَّجَلَّ قيد للإسلام دولاً قامت به، وفتحوا المشارق والمغارب، وظهر دين الله كما وعد الله بذلك: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، ظهر دين الله على يدي أتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يؤد في زوال هذا الدين أو نهايته كما ظن المنافقون؛ لأن هذا الدين حق، والحق لا يموت بموت صاحبه، إنما الباطل هو الذي يموت بموت صاحبه.

❖ قوله: (فمن ظن أنه يدلل الباطل مع الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق) هذا عود على ما سبق، أجمل رَحِمَهُ اللَّهُ ثم أراد أن يفصل، فمن ظن

أن الله يدل الباطل على الحق، أي: يظهر الباطل على الحق (إدالة مستمرة)،
يعني: دائمة، أما أنه يديله بعض الأحيان فهذا قد يقع؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ
يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، لكنه عَزَّجَلَّ لا يدل الباطل على الحق إدالة مستمرة
(يضمحل معها الحق) يعني: ينقطع ويفنى، بل هي إدالة مؤقتة، ثم تكون
الغلبة للحق.

❁ قوله: (أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره) أو أن ما جرى
ليس من قضاء الله وقدره وإنما هو من فعل العباد، وأن تصرفات العباد دون
قضاء من الله وقدر، فمن فعل ذلك فقد ظن بالله ظن السوء، وزعم أن الله
عاجز، وأنكر ركنًا من أركان الإيمان، وهو: الإيمان بالقضاء والقدر.

❁ قوله: (أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة) أو أقر بأنه أنه قدره،
لكنه حكمة الله في هذا التقدير، وزعم أنه لو كان عند الله حكمة ما انتصر
الكفار على المسلمين، واستدل بهزيمة المسلمين على نفي الحكمة عن الله،
تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

فأهل الإيمان أثبتوا القضاء والقدر والحكمة لله عَزَّجَلَّ، أما أهل الكفر
والنفاق: فمنهم من أثبت القضاء والقدر ونفى الحكمة، ومنهم من أثبت
الحكمة ونفى القضاء والقدر.

ولكن لا يستوي إيمان العبد إلا بالجمع بين الأمور الثلاثة: إثبات
القضاء، والقدر، والحكمة لله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: (وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم) يقول: إن هذا الظن ليس في أناس مضوا وانقضوا في وقعة أحد أو في صلح الحديبية، بل هو مستمر في الناس إلى اليوم، فإذا وقع على أحدهم شيء مما يكره ظن بالله ظن السوء، وسخط ولم يرض بقضاء الله وقدره، واتهم الله عَزَّجَلَّ بالظلم والجور، ولا يتهم نفسه بالإساءة والذنب، وكان الأولى به أن يحاسب نفسه، ويتوب إلى الله عَزَّجَلَّ مما اقترفه من ذنوب ومعاصي، لعل الله أن يتوب عليه.

❁ قوله: (ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمله) لا يعرف هذا الأصل العظيم، وهو: الإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان بالحكمة البالغة لله عَزَّجَلَّ، إلا من عرف الله بأسمائه وصفاته، فعرف أن الله غفور تواب رحيم، وعرف أنه شديد العقاب، جبار، عزيز ذو انتقام، فمن عرف أسماء الله وصفاته فإنه حيثئذ لا يشكل عليه هذا الأمر؛ لأن هذا هو مقتضى أسماء الله وصفاته.

❁ قوله: (فليعتن اللبيب والناصح لنفسه بهذا) الإنسان لا يركي نفسه، ولا يقول: إن هذا الكلام في ناس مضوا وانقضوا!! وهذا ليس بصحيح، بل هو موجود ومطرّد في الخلق إلى أن تقوم الساعة، فليفتش كلُّ منا في نفسه، وليراقب أفعاله وأقواله؛ لئلا يكون عنده سوء ظن بالله، (وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء) ومن تاب تاب الله عليه.

❁ قوله: (ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له) هذا باق في الناس، منهم من يلوم القدر ويتعنت عليه، ويتهم الله عَزَّوَجَلَّ في أحكامه بالجور والظلم وعدم الحكمة، (وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا) فيستدرك على الله في أفعاله، ويزعم أن منها ما هو غير مناسب، وأن المناسب إنما هو كذا وكذا، يقترح على الله ويعترض عليه عَزَّوَجَلَّ. ومنهم من يأخذه سوء ظن بالله عَزَّوَجَلَّ، مثل ما أخذ المنافقين والمشركين، ومنهم من يكون عنده إيمان ولكن يعتريه شيء من سوء الظن بالله ولو كان يسيراً.

❁ قوله: (وفتش نفسك هل أنت سالم؟) يعني: هل أنت سالم من سوء الظن بالله؟ حاسب نفسك عند القضاء والقدر وما يجري في هذا الكون، هل أنت ممن يرضون عن الله وعن قضائه وقدره، ويؤمنون بحكمته، أو أن عندك شيء من سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ؟ فإن كان عندك شيء من سوء الظن فتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا إنما يحصل فيمن تفقه في دين الله، ودرس كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته، ودرس التاريخ، حتى يعلم الحكمة في أفعال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ونظر فيما جرى على الناس من المداولات، والمغالبات، ونظر هل الباطل مع ظهوره بعض الأحيان يستمر أو لا يستمر؟ وهل الحق مع إصابته وامتحانه زال أو بقي؟ ينظر في دين الإسلام على مدار التاريخ، هل تغير؟ هل نقص؟ هل استطاعت قوى الشر مهما أوتيت من قوة أن تقلع الإسلام من الأرض؟ ليرى ويعلم من حكمة الله البالغة.

وعلى الجانب الآخر يقف على ما حصل للكفار الذين أعطوا قوة والهيبة، هل بقيت دولتهم واستمرت؟ وليسأل نفسه: أين أبو جهل وأبو لهب؟ أين قصور كسرا وقيصر؟ فمن تأمل في الأحداث وما يجري في هذا الكون دله ذلك على قوة الإيمان وصحة اليقين، بشرط أن يفسر الأحداث تفسيراً صحيحاً ولا يتبع الهوى. فقراءة التاريخ هي لأجل هذا وليست لأجل التسلية أو لأجل تقطيع الوقت، وإنما للاعتبار والاتعاظ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فهل الذين يذهبون لمشاهدة الآثار، يذهبون إليها من أجل الاعتبار والاتعاظ؟ أغلبهم يذهب إليها للإعجاب بأهل الحضارات وأهل العصور الأولى، وأنهم أهل حضارة وأهل قوة فقط، ولا يعتبر بما جرى لهم، وما آل أمرهم إليه، وهذه آثارهم لم تغن عنهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فمن شاهد آثارهم واعتبر بها استفاد، وظهر أثر ذلك على تصرفاته وأفعاله، وعلم أن دولة الظلم لا تدوم مهما بلغت من قوة، أما أن يذهب للإعجاب بها والثناء على أهلها بالحضارة والقوة، فهذا لا يزيده إلا شراً.

فِيُستفاد من هاتين الآيتين وتفسيرهما:

أولاً: أن حسن الظن بالله عزَّ وجلَّ واجبٌ من واجبات التَّوحيد.

ثانياً: أن سوء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينافي أصل التوحيد إذا زاد وكثر واستمرَّ، أو ينافي كماله إذا كان شيئاً عارضاً، أو خاطراً في النفس فقط ولا يتكلَّم به بلسانه، أمّا إن تكلم به بلسانه فإنه يكون منافياً للتَّوحيد.

ثالثاً: وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ما يجري من المصائب والمحابِّ والمكروهات والملاذ كُلُّه بقضاء الله وقدره.

رابعاً: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من الأمر شيء، فلا يُتعلق به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يُتعلق بالله؛ لأنَّ الأمر كُلُّه لله عزَّ وجلَّ، لا للرسول ولا لغيره، ولما دعا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أقوام من أهل مكة عاتبه الله عزَّ وجلَّ وقال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقد تاب الله عليهم وأسلموا، وحسُن إسلامهم، وصاروا من قُود الجهاد في الإسلام.

ذلك أن الأمر كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يُتعلق إلا بالله عزَّ وجلَّ، أمّا الرِّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو مبلَّغٌ عن الله تعالى رسالاته، وليس له من الأمر شيء.

خامساً: في الآيتين إثبات الحكمة في أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله لا يفعل شيئاً عبثاً.

سادساً: فيها أنّ وعد الله عزّ وجلّ لا بدّ أن يتحقّق، ولا يتخلف أبداً، وقد وعد سبحانه بأنّ هذا الدين سيظهر، فماذا كان الواقع؟ أليس الدين ظهر في المشارق والمغارب؟ ألم يبلغ هذا الدين مبلغ الليل والنّهار؟، ألم تدخل فيه دول الأرض الكبرى: فارس والروم، وبلاد الشّرق والغرب؟ هل بقي في الأرض مكان لم يصل إليه هذا الدين؟ هذا وعد الله عزّ وجلّ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] ولم ينته أمر هذا الدين بوقعة أحد كما ظن ذلك المنافقون.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْفَتْحِ.

الثالثة: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لَا تُحْصَرُ.

الرابعة: أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ
نَفْسَهُ.



٥٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدْرِ

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدْرِ] أي: من الوعيد.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدْرِ) أي: من الوعيد الشديد وبيان حكمهم.

والقدر: هو ما قدره الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في الأزل، وكتبه في اللوح المحفوظ، مما يجري في هذا الكون، من أول الخليقة إلى آخرها. فلا يجري شيء إلا وقد قدره الله عَزَّوَجَلَّ، وكتبه في اللوح المحفوظ، وشاءه، وخلقه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

والإيمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قصة مجيء جبريل إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسؤاله وأصحابه حاضرون، كما سيأتي. فهو أحد أركان الإيمان الستة، من لم يؤمن به فقد جحد ركنًا من أركان الإيمان، ومن جحد ركنًا من أركان الإيمان لم يكن مؤمنًا.

والقضاء والقدر من أفعال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وتدابيراته، وقد ذكر العلماء أن الإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب:

المرتبة الأولى: أن الله علم كل شيء في الأزل قبل أن يخلق السماوات والأرض، علم ما كان وما يكون سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

المرتبة الثانية: أنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ، فما من شيء يقع إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: أن الله شاء حدوث هذه الأشياء، فحدثت ووقعت بمشيئته وإرادته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

المرتبة الرابعة: أن كل هذه الأشياء التي تقع كلها خلق الله عَزَّجَلَّ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩].

فمن جحد واحدة من هذه المراتب الأربع لم يكن مؤمناً بالقضاء والقدر.

ولم يكن لدى الصحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلاف في أمور القضاء والقدر، لم يحدث عندهم إشكال في هذا الأمر ولم يبحثوا فيه؛ لقوة إيمانهم، واعتمادهم على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتركهم للبحث فيما لا فائدة لهم فيه. ولكن في أواخر عصر الصحابة نبتت نابتة في العراق أنكرت القضاء والقدر، ومن أولهم معبد الجهني^(١)،

(١) هو معبد بن عبد الله بن عويمر، ويُقال: معبد بن خالد، ويُقال: معبد بن عبد الله بن عكيم، وهو أول من تكلم في القدر، ويقال: إنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يُقال له: سوسن، وأخذ غيلان القدر من معبد، وقد كانت لمعبد عبادة وفيه زهادة، قال الحسن البصري: «إياكم ومعبدًا فإنه ضال مضل»، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله، وقال سعيد بن عفير: «بل صلبه عبد الملك ابن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم قتله». انظر: تاريخ دمشق (٣١٢/٥٩)، وتاريخ بغداد (٣/١٠)، والبداية والنهاية (٣٤/٩).

وعمر بن عبيد^(١)، وغيرهم من أقطاب القدرية، وورث المعتزلة عنهم هذا المذهب الخبيث، ثم نَمَى وترعرع وتبناء من تبناء من الأشقياء، وبأؤوا بالخسران المبين والعياذ بالله، ولم يتوصلوا إلى شيء، وليس لهم من حجة يعتمدون عليها لا من الكتاب ولا من السنة، بل الحجج ضد مذهبهم الخبيث.

ومن حججهم الواهية: يقولون: كيف يقدر الله الكفر والمعاصي ثم يعذب عليها؟ ويزعمون أنه لو كان من تقدير الله لكان الله عَزَّجَلَّ ظالماً، فأرادوا نفي الظلم عن الله فنفوا القدر!! ذلك لأنهم لم يفهموا أسرار الله عَزَّجَلَّ في خلقه.

وهؤلاء وأمثالهم نقول لهم: إن الله لا يعذب على القضاء والقدر، وإنما يعذب العباد على أفعالهم التي فعلوها باختيارهم وإرادتهم، فهم فعلوا الكفر بقدرتهم وإرادتهم، وفعلوا المعاصي والسيئات بإرادتهم واختيارهم ومشيتهم، لا أحد أجبرهم عليها، وهم يقدرون على تركها، ويقدرون على فعل الطاعات، فالله لا يعذبهم على القدر وإنما يعذبهم على أفعالهم، فيجازي المحسنين بإحسانهم، ويجازي المسيئين بإساءتهم، ولا يعذب أحداً على غير فعله، ولا يعذب أحداً على فعل فعله بغير اختياره، فالمكره لا يعذب، وكذلك

(١) هو عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان، سكن البصرة وجالس الحسن البصري وحفظ عنه واشتهر بصحبته، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة، فقال بالقدر، ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن، توفي سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع وأربعين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٧/٢٧٣)، وتاريخ بغداد (١٢/١٦٦)، ووفيات الأعيان (٣/٤٦٠).

المجنون والصغير والذي ليس عنده عقل ولا إرادة ولا اختيار هذا أيضًا لا يعذب، إنما يُعذب من فعل المعاصي باختياره وإرادته ومشئته وهو يقدر على تركها لو أراد، فهذا كمال العدل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَعَذِّبَهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ.

ولكنه قدرها عليهم لحكمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي بقضاء الله وقدره، وهي أفعالهم وإرادتهم، فهم من هذه الناحية يعذبون على أفعالهم وعلى إراداتهم، وأما القضاء والقدر فهذا من شأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولو كان القضاء والقدر حجة لأحد لكان حجة لإبليس، فإن إبليس احتج بالقضاء والقدر ولم ينفعه ذلك: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] هذا ليس حجة، وإنما لو تاب إلى الله ورجع تاب الله عنه، لكنه لم يتب، بل احتج بالقضاء والقدر. وآدم وزوجه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لما وقعا في المعصية ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، لم يحتج بالقضاء والقدر، بل أرجع اللوم إلى نفسه واعترف بذنبه، فغفر الله له.

فهذا هو واجب العبد أن يعمل الطاعات والحسنات، ويترك السيئات، وإذا وقع في شيء من الذنوب والمعاصي يرجع إلى نفسه باللوم، ويتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يحتج بالقضاء والقدر، إنما هذه طريقة إبليس ولم تنفعه، بل زادته من الله بعدًا ولعنة، وهذا لا يجديه شيئًا، بل الذي يجديه أنه يعترف بذنبه ويتوب إلى ربه، والله يتوب على من تاب، وباب التوبة مفتوح لمن أراد التوبة،

بل الله تعالى أمره بالتوبة ووعدته بأن يتوب عليه وأن يمحو عنه الذنوب، فإذا أذنب واحتج بالقضاء والقدر أضاف ذنباً إلى ذنب، وإذا أذنب وتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه.

هذا هو واجب العبد في هذه القضية العظيمة، ولا يشغل نفسه بالسؤال عن القضاء والقدر؛ لأنه لن يصل إلى نتيجة، ولن يستقيم إيمانه حتى يؤمن بالقضاء والقدر، وقد قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمن نازعه في القدر: «القدر سر الله فلا تفشه»^(١)، فلينتبه العبد لذلك ولا يخاصم ربه عَزَّجَلَّ ويدخل في جدال لا فائدة من ورائه، ويرجع إلى العمل الصالح والتوبة من الذنوب.



(١) انظر: تاريخ دمشق (٤٢/٥١٣)، وفيض القدير (١/٣٤٨)، وتحفة الأحوزي (٦/٢٧٩).

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ؛ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ؛ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قوله: [قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ ...]: حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه^(١)، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجُهَنِيِّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمِيرِيُّ حَاجِبِينَ، أَوْ مُعْتَمِرِينَ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوَقَّعَ اللَّهُ لَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ دَاخِلًا فِي الْمَسْجِدِ، فَاسْتَفْتَانَا وَأَنَا وَصَاحِبِي فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِيلَانَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَالْأَمْرُ أُنْفُ، فَقَالَ: إِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا نَعْرِفُهُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي

(١) أخرجه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي في الكبرى (٤٤٦/٣)، وابن ماجه (٦٣).

عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا أَسْأَلُ عَنْهَا، بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى النُّحْطَةَ الْغُرَاةَ الْعَالَةَ، رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُمَرُ، هَلْ تَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

... — الشَّيْخُ — ...

هذا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما بلغه ظهور القدرية الذي ينكرون القدر، حلف بالله فقال: (وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ؛ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ) أي: الذين ينكرون القضاء والقدر، (مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا) لو كان لأحدهم مثل هذا الجبل العظيم ذهبًا، والذهب أنفس الأموال، (ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أنفقه في طاعة الله، وفي الجهاد في سبيل الله، وهو أعظم المصارف، ثم جحد القضاء والقدر، (مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ؛ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ) هذا دليل على كفر منكر القضاء والقدر، وأن ذلك يربط أعماله، ولو كانت من أعظم الأموال الجهاد والصدقة.

❁ قوله: (ثم استدل بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»)، لم يأت ابن عمر بهذا القول من عنده، إنما استدل بحديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي عد فيه الإيمان بالقدر خيره وشره من أركان الإيمان الستة، فمن جحد القضاء والقدر فهو كالذي يجحد اليوم الآخر، ويجحد بعثة الرسل، ويجحد إنزال الكتب، بل هو كمن كفر بالله عَزَّجَلَّ ولم يؤمن به. إذا ماذا بقي له؟ ما بقي له إيمان، وهذا هو وجه الشاهد من قول ابن عمر واستدلاله بهذا الحديث، أن من أنكر القضاء والقدر حبط عمله، وأنه منكر لركن من أركان الإيمان.

❁ ثم أورد الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بطوله، وفيه: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بَيَاضَ الثِّيَابِ شَدِيدٌ سَوَادَ الشَّعْرِ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ) وهذا من العجيب أنه شديد بياض الثياب، وشديد سواد الشعر، وليس عليه علامات السفر، ومع هذا لا يعرفه أحد من أهل البلد، وهذا دليل على أنه قادم من بعيد، لكن لم يظهر عليه أثر السفر، فتعجبوا من ذلك.

❁ قال: (حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ) هذا فيه بيان آداب طالب العلم أمام المعلم، وأنه يجلس بأدب، ويسأل المعلم بأدب، فهذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جلس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلس المتعلم؛ ليعلم أصحابه كيف يطلبون العلم، ثم سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإسلام فذكر له أركان الإسلام الخمسة، وهي الأعمال

الظاهرة. فقال: (صَدَقْتَ)، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ) هذا عجب ثانٍ أيضًا من هذا الرجل، جاء يسأل ثم يقول: (صَدَقْتَ)، فهذا دليل على أنه عالم؛ لأنه لو لم يكن عالمًا لم يقل للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صَدَقْتَ).

❖ ثم سأله عن الإيمان، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، هذه أركان الإيمان الستة، وآخرها: الإيمان بالقدر خيره وشره، ولا بد من اجتماع أركان الإيمان وأركان الإسلام، فلا يكون الإنسان مسلمًا حتى يكون مؤمنًا، ولا يكون مؤمنًا حتى يكون مسلمًا، لا بد من اجتماع الأركان الظاهرة مع الأركان الباطنة.

ومن ثَمَّ قال العلماء: إن الإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعًا افترقا في المعنى، فيُفسر الإسلام بكذا، ويُفسر الإيمان بكذا، وإذا ذكر أحدهما فقط دخل فيه الآخر^(١).

❖ ثم سأله عن الإحسان، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» الإحسان هو المرتبة العليا، فأول ما يبدأ العبد بالإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان وهو أعلاها، وهو درجة المقربين، فتعبد الله على اليقين التام، كأنك تراه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن لم تكن تراه فاعلم أنه يراك، فتخافه وتخشاه.

(١) انظر: كتاب الإيمان الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية من مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٩)، وفتح الباري (١/ ١١٥)، وعمدة القاري (١/ ١٩٦).

❁ ثم سأل عن وقت قيام الساعة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَسْئَلُ عَنْهَا» وهو الرسول «بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» وهو جبريل، أي: أنا وأنت سواء، كلنا لا نعلم متى قيام الساعة، فإذا كان جبريل وهو سيد الملائكة، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد ولد آدم لا يعلمان متى تقوم الساعة، فكيف يأتي من يدعي هذا؟! فهذا فيه أن علم أو توقيت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قال: (فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا) أي: العلامات التي إذا وقعت دلت على قربها، وهذه يعلمها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعلمها أهل العلم كما بينها لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، يعني: علاماتها.

ثم ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض علامات الساعة، ومنها: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَمَةُ رَيْبَتَهَا» أي: تلد المملوكة مالكتها وسيدتها، كيف يكون ذلك؟ ذكر أهل العلم لذلك معنيين^(١):

(١) اختلف أهل العلم في تفسير هذه الجملة على سبعة أقوال، لخصها الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٢٢/١، ١٣٣) في أربعة، وارتضى منها واحداً، فقال: «أَنْ يَكْثُرَ الْعُقُوقُ فِي الْأَوْلَادِ فَيَعَامِلُ الْوَلَدُ أُمَّهُ مَعَامَلَةَ السَّيِّدِ أُمَّتَهُ مِنَ الْإِهَانَةِ بِالسَّبِّ، وَالضَّرْبِ وَالِاسْتِخْدَامِ فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ رَيْبًا مَجَازًا لِذَلِكَ أَوْ الْمُرَادُ بِالرَّبِّ الْمُرِّي فَيَكُونُ حَقِيقَةً وَهَذَا أَوْجَهُ الْأَوْجِهِ عِنْدِي لِعُمُومِهِ وَلِأَنَّ الْمَقَامَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ حَالَةً تَكُونُ مَعَ كَوْنِهَا تَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْأَحْوَالِ مُسْتَعْرَبَةً وَمُحْصَلُهُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ السَّاعَةَ يَقْرُبُ قِيَامُهَا عِنْدَ انْعِكَاسِ الْأُمُورِ بِحَيْثُ يَصِيرُ الْمُرِّي مُرِّيًّا وَالسَّافِلُ عَالِيًّا وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ فِي الْعَلَامَةِ الْأُخْرَى أَنْ تَصِيرَ الْحَفَاةُ مُلُوكَ الْأَرْضِ».

المعنى الأول: أن معناه أنه يكثر التسري بالإماء في آخر الزمان، ولا شك أن بنت الأمة تكون حرة تبعًا لأبيها، أما أمها فلا تزال أمة، فتكون البنت سيدة لأمها.

المعنى الثاني: أنه يكثر العقوق في آخر الزمان، حتى تكون البنت كأنها سيدة لأمها، فتتكبر عليها وتعقها وتعصيها.

فعلى المعنى الأول يكون قوله: «تَلِدُ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا» على ظاهره، فتكون البنت حرة والأم أمة، وعلى المعنى الثاني يكون هذا من تأويل الحديث عن ظاهره، فيُفسر بعقوق البنت وتكبرها على أمها.

❦ قال: «وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْغُرَاةَ الْعَالَةَ، رِعَاءَ النَّشَاءِ» يعني البادية، هذه صفات البادية، حفاة أقدامهم، عراة أجسامهم بمعنى أنهم يلبسون ثيابًا تكون متواضعة أو ثيابًا لا تستر جميع أبدانهم بسبب الفقر، أو عدم العناية بالملابس؛ كما هو ظاهر على الأعراب، ليس معناه التعري، ولكن معناه أنهم لا يلبسون ثيابًا محتشمة، وثيابًا فاخرة، إنما يلبسون ثيابًا متبذلة، أو ثيابًا قصيرة، أو على غير الثياب المعروفة التي تجمل الإنسان، «رِعَاءَ النَّشَاءِ» هذا عملهم أنهم رعاة يرعون الشاة والإبل، وهذه طبيعة البادية يعيشون على تربية المواشي هذه تجارتهم ومعيشتهم، ويعيشون في البراري، في آخر الزمان يتحضرون، يسكنون الحاضرة ويبنون، هم كانوا بالأول يسكنون في الخيام وفي بيوت الشعر، في آخر الزمان يتطاولون في المباني، يبنون ويتفاخرون في المباني، وربما يبنون الطوابق الكثيرة العالية وينمقها ويزينها ويحسنها، وهو كان في الأصل

يسكن في بيت شعر أو خيمة أو صندوق أو ما أشبه ذلك فتحول حالهم، هذا من علامات الساعة «يَتَطَاوُنُونَ فِي الْبُنْيَانِ»؛ كما هو واقع الآن مصداقاً لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أهل البادية سكنوا المدن وصاروا يتباهون في المباني، كل واحد يريد أن يكون أحسن من الآخر في بنيته، ومظهرها، وارتفاعها، فهذا من علامات أو من معجزات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث أخبر عن شيء وقع كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قال: «ثُمَّ انْطَلَقَ» قام السائل وخرج، فخرج بعض الصحابة في أثره فلم يجده، وهذه عجيبة؛ لأنه كان بينهم ويسأل ويتكلم، وفي لحظة اختفى عنهم.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عُمَرُ، هَلْ تَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، هذا فيه دليل على أن الملك لا يأتي في صورته الملكية؛ لأن الناس لا يطيقون رؤيته على صورته الملكية، وإنما يأتي في صورة إنسان؛ حتى لا ينفر الناس منه، وغالبًا ما يأتي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل وعنده أصحابه^(١)؛ كسائر السائلين والطلاب لا يتميز عنهم؛ لأجل أن لا ينفروا.

(١) جاء في بعض الروايات أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة دحية الكلبي، أخرج هذه الرواية النسائي في الكبرى (٥٢٨/٦)، وفي المجتبى (١٠١/٨، ١٠٢)، وابن راهويه في مسنده (٢٠٩/١، ٢١٠) من حديث أبي هريرة وأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وورد في الحديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَأَكْثَرُ مَا كُنْتُ أَرَاهُ عَلَى صُورَةِ دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ». ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٤٦/٧).

وفي هذا دليل على أن الملائكة تتشكل بأشكال حسب المصلحة، وقد أعطاهم الله القدرة على ذلك؛ لأجل مصلحة البشر. والناس لا يرون الملائكة إلا عند العذاب - والعياذ بالله - وكذلك عند الموت تظهر الملائكة ويراهم بنو آدم، قال عزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، أما قبل ذلك فالناس يرونهم في صور لا تختلف عن صور الناس.

لكن لماذا جاء؟ ولماذا جلس؟ ولماذا..؟ جاء الجواب على لسان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، فهو لا يسأل ليتعلم، وإنما يسأل ليتعلم، فهذا فيه دليل على أن السؤال والجواب من طرق التعليم، بل من أبلغ طرق التعليم أن يكون عن طريق السؤال والجواب، وهي طريقة تربوية جيدة معروفة.

❖ قوله: «يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» فيه دليل على أن الدين يتكون من ثلاث مراتب، بعضها أفضل من بعض:

المرتبة الأولى: الإسلام وأركانه خمسة.

المرتبة الثانية: الإيمان وأركانه ستة.

المرتبة الثالثة - وهي أعلاها - : الإحسان وهو ركن واحد: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وفي هذا الحث على تعلم الدين، وأن المسلم يجب عليه أن يتعلم دينه، ولا يكفي ويقول: أنا مسلم! بل لابد أن يتعلم ما هو الإسلام؛ لأجل أن يؤديه على الوجه المطلوب، فلا يكفي أن ينتسب الإنسان إلى الإسلام وهو

.....

لا يعرف عنه شيئاً، ولو سُئِلَ عن الإسلام قال: أنا مسلم ولكن لا أدري ما هو الإسلام. وهذا من العجائب، كيف يكون مسلماً وهو لا يدري ما هو الإسلام؟ هذه مشكلة، فقد يقع في شيء يخالف الإسلام وهو لا يدري، أو يترك شيئاً يخل بالإسلام وهو لا يدري، أو يفعل شيئاً يتنافى مع الإسلام وهو لا يدري؛ لأنه لم يتعلم الإسلام.

فهذا فيه دليل على وجوب تعلم الدين بمراتبه: الإسلام والإيمان والإحسان.



وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَخْرَقَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالنَّارِ»^(٣).

قوله: [عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ]: حديثه هذا رواه أبو داود، ورواه الإمام أحمد بكماله، قال: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ سَوَّارٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ مُعَاوِيَةَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ زِيَادٍ، حَدَّثَنِي عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ، وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَحَايِلُ فِيهِ الْمَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي. فَقَالَ: أَجْلِسُونِي. فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَاكَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧/٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن وهب في القدر (ص ١٢١).

لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يَا بُنَيَّ إِنَّ مِثَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ»^(١).

رواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح^(٢).

وفي هذا الحديث ونحوه بيان شمول علم الله - تعالى -، وإحاطته بما كان ويكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمَنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الآية [الطلاق: ١٢]، والآيات في إثبات القدر كثيرة. وقد استدل العلماء على إثبات القدر بشمول القدرة والعلم، كما في الآية. قال الإمام أحمد: القدر قدرة الرحمن^(٣). وقال بعض الأئمة في نفاة القدر: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا^(٤).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، جاءه ابنه وهو في سياق الموت، فقال: (يا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي) فأوصاه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٧/٣٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٥٥).

(٣) انظر: الإبانة لابن بطة (١/١٤١).

(٤) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٣٠٢)، وجامع العلوم والحكم (ص ٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٩)، وطريق الهجرتين (٢٤٣).

الوصية العظيمة، وذكر فيها أن من لا يؤمن بالقضاء والقدر لا يجد طعم الإيمان، فدل على نفي الإيمان عمن لم يؤمن بالقضاء والقدر، وطعم الإيمان: هو الراحة القلبية والطمأنينة النفسية التي يجدها المؤمن عندما يصيبه شيء، حيث يعلم أن هذا قضاء وقدر، فيرضى بذلك ويسلم.

هذه فائدة الإيمان بالقضاء والقدر أن من آمن به وجد الراحة النفسية، واطمأن قلبه، وقرت عينه، فإن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، ذلك لقوة إيمانه، فلا يبطر عند النعمة، ولا يكفر عند النقمة.

ومفهوم ذلك أن من لم يؤمن بالقضاء والقدر فإنه يفقد هذا الطعم وهذه الطمأنينة، بل يصبح في قلق وفي هم وغم وحزن، لا يشكر عند نعمة، ولا يصبر عند نقمة؛ لأنه مضطرب الاعتقاد مضطرب القلب.

ثم استدل عبادة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ بحديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه طريقة الصحابة والراسخين في العلم أنهم يذكرون الدليل على ما يقولون، ولا يأتون بشيء من عند أنفسهم.

❦ قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»)، والقلم مخلوق من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، خلقه الله ليكتب بأمره «قَالَ لَهُ اكْتُبْ فَقَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي هذا دليل على أن كل شيء يحدث في هذا الكون من أوله إلى آخره مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ لا بد من وقوعه، شئنا أم أبينا،

ولو اتخذنا جميع الاحتياطات لمنع ما قدرنا، فإذا آمنت بذلك اطمأنت نفسك، وارتاح ضميرك، وزاد يقينك بالله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا فيه أن القلم مخلوق، وأنه كتب بأمر الله، ولكن ما معنى قوله: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»؟ هل القلم أول المخلوقات؟ اختلف أهل العلم في ذلك على قولين^(١):

القول الأول: منهم من أخذ بظاهر الحديث، إذا روي: «أَوَّلُ ما خلق الله القلم» فيكون (أَوَّلُ) مبتدأ، و(القلم) خبر، وفسر الحديث بأن القلم هو أول المخلوقات.

القول الثاني: ومنهم من قرأ بالفتح: «أَوَّلُ ما خلق الله القلم» وقال: إن المراد الإخبار بأن الله أمر القلم بالكتابة أول ما خلقه، وليس هو أول المخلوقات، ويكون الكلام جملة واحدة: «أَوَّلُ ما خلق الله القلم قال له: اكتب»، أما على الرواية الأولى: «أَوَّلُ ما خلق الله القلم» هذه جملة مستقلة، والجملة الثانية: «قال له: اكتب».

وعلى هذا القول يكون معنى الحديث: أن الكتابة زامنت خلق القلم، وليس معناه الإخبار أن القلم أول المخلوقات، بل أول المخلوقات هو العرش؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

(١) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٢٩٥، ٢٩٦)، ومنهاج السنة النبوية (١٦/٨)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص ١٥٩، ١٦٠)، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص ٦٢٩).

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ ﴿[هود: ٦-٧]﴾، فدل على أن العرش سابق لخلق السماوات والأرض، وسابق لخلق القلم، فأول ما خلق الله العرش، قبل السماوات والأرض، وقبل الكتابة، وكان عرشه على الماء، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ؛ وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١)، فدل على أن خلق العرش قبل خلق السماوات والأرض، وأن خلق السماوات والأرض قبل خلق القلم، هذا ما تدل عليه الأدلة.

ولهذا يقول العلامة ابن القيم في النونية^(٢):

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي	كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدِّيَانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ	قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْغَلَا لِهَذَا نِي
وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لِأَنَّهُ	قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ
وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ	إِجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَضْلِ زَمَانِ

هذا هو الصحيح أن القلم مخلوق بعد العرش والعرش قبل ذلك، وتكون الكتابة مقارنة لوجود القلم، حينما خلقه الله عَزَّجَلَّ قال له: «اكتب».

ثم قال عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي») وهذا مثل قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أول الباب: (إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي)،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١ / ٣٧٣-٣٧٧).

فدل على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبرأ ممن لم يؤمن بالقضاء والقدر، ومن تبرأ منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر، مع قوله فيما سبق: (لَا يَجِدُ طَعَمَ الْإِيمَانِ).

❁ قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ لَابْنِ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالنَّارِ») هذا نوع آخر من أنواع الوعيد على من أنكر القضاء والقدر أن الله يحرقه بالنار.



وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أَبِي بَنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: لَهُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، وَزَيْدَ ابْنِ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ^(١).

قوله: [وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ]: هو أبو بسر بالسين المهملة والباء المضمومة، ويقال أبو بشر بالشين المعجمة وكسر الباء، وبعضهم صحح الأول، واسمه عبد الله بن أبي فيروز.

ولفظ أبي داود قال: (لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَآوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذْبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ)، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ. وأخرجه ابن ماجه^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد في المسند (٤٦٥/٣٥)، (٥١١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٤/١٠)، والحاكم في المستدرک بنحوه (٦٢٤/٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

وهذه الأحاديث وما في معناها حجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم تخليد أهل المعاصي في النار، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع، وكثير منهم وافقوا الجهمية في نفى صفات الرب تعالى وتقدس.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: (وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ) هو: عبد الله بن فيروز الديلمي، نسبة إلى الديلم جبل بالشرق، وكان فارسياً، هاجر أبوه فيروز إلى اليمن، ولما بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمَنَ به وأسلم، فلما ظهر الأسود العنسي الذي يدعى النبوة في اليمن قتله فيروز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❦ قال: (أَتَيْتُ أَبِي بَنَ كَعْبٍ) هو: من سادات الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أقرأ الصحابة لكتاب الله.

❦ قوله: (فَقُلْتُ: لَهُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي) يعني: يحس في نفسه شيء إشكال في شأن القضاء والقدر ولم يتكلم به، هذا شأن أهل العلم وأهل الإيمان أنهم إذا أحسوا في أنفسهم بشيء من ذلك لا يتكلمون به، بل يسألون أهل العلم، ويلتمسون الشفاء من الهواجس والشكوك من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يتكلمون في المجالس ويخوضون على غير بصيرة كما يفعله بعض المغرورين، الذين يتحدثون بكل ما هجس في نفوسهم، ويقولون: هذا من حرية الرأي وحرية الكلمة! ويخوضون في شرع الله وفي دين الله بغير علم.

❁ قال: (فَقَالَ: وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ) هذا مطابق لكلام ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أول الباب، في أن من لم يؤمن بالقضاء والقدر يحبط عمله، ولو أنفق مثل أحد ذهبًا، وهل يملك أحد أن ينفق مثل أحد ذهبًا؟! لكن هذا من باب ضرب المثال على المال الكثير النفس، وأن صاحبه لو أنفقه في سبيل الله وهو لا يؤمن بالقضاء والقدر، ما نفعه إنفاق هذا المال النفس، وحبط عمله.

❁ قال: (وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ) إذا قلت: ما معنى الإيثار بالقضاء والقدر؟ هذا هو، هذا تفسيره، جاء في هذا الحديث والذي قبله، وهذا ما قاله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس في وصيته له، حيث قال: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» إلى أن قال: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

هذه وصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عمه عبد الله بن عباس، وهذا هو معنى الإيثار بالقضاء والقدر، أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنه لا بد أن يصيبك ما دام الله قدره عليك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو فعلت كل الأسباب لتحصل عليه ما لم يقدره الله عليك، فلا تتأسف على ما فاتك من حطام الدنيا، واعلم أنه ليس مقدرًا لك.

ولكن قد يتأسف العبد على فوات الطاعات ومواسم العبادات؛ كما تأسف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنه لم يتمتع في الحج، وقال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، لَمَّا سُقْتُ الْهَدْيَ، وَلَحَلَّتْ مَعَ الَّذِينَ أَحَلُّوا مِنَ الْعُمْرَةِ»^(١)، وليس من باب الاعتراض على القضاء والقدر، وإنما هذا من باب بيان الأفضل؛ لأن أفضل الأنساك التمتع.

فالإنسان يتأسف إذا فاتته الطاعة، أو فاتته الخير، أو فاتته قيام الليل، أو فاتته الجهاد في سبيل الله، ويلوم نفسه أنها قصرت في جانب الله، ولا يترك الطاعة والعبادة ويقول: هذا قضاء الله وقدره! ففرق بين التسخط على قضاء الله وقدره، وبين التأسف على فوات فعل الخير.

❁ قوله: (وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ) هذا من الأدلة على كفر منكر القضاء والقدر، وأن من مات على إنكار القضاء والقدر صار من أهل النار، فالألفاظ تضافرت في هذه الأحاديث تدل على أن كفر من أنكر القضاء والقدر: «لَا يُؤْمِنُ»، «لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ»، «أَخْرَقَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالنَّارِ»، «فَلَيْسَ مِنِّي».

❁ قوله: (ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مِثْلَ ذَلِكَ) هؤلاء أربعة من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كلهم تطابقت أقوالهم وفتياهم: أبي بن كعب، عبد الله بن مسعود، زيد بن ثابت، حذيفة بن اليمان، كلهم توافقوا على هذه الفتوى، وقبلهم ابن عمر وعبادة بن الصامت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تطابقت أقوالهم وهم من كبار صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا الحديث دليل على مسألة عظيمة وهي: أن من أشكل عليه شيء يجب عليه الرجوع إلى أهل العلم، ولا يرجع إلى المتعلمين والجهال وأهل الضلال ويسألهم، بل يسأل أهل العلم الراسخين الأتقياء، فهؤلاء ذهبوا إلى صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلم وأتقى أهل زمانهم.

فالأولان ذهبوا إلى ابن عمر جاء إليه من العراق يسألانه وهو في مكة، وهذا عبد الله بن فيروز يسأل هؤلاء الصحابة الأجلاء، فدل على أن أصول الإيمان وأصول العلم وأصول الدين أمر مهم، يُرجع فيه إلى الأكابر من أهل العلم، والراسخين في العلم، ولا يُرجع فيه إلى الجهلة، أو المتعلمين، أو علماء الزيف والضلال.

والآن نجد أن طائفة من المتعلمين صاروا يجترون مسائل الإيمان ويناقشونها، ويؤلفون فيها مؤلفات، مثل: مسألة هل العمل من الإيمان أو خارج الإيمان؟ وهذا من الضلال ومن مبادئ الشر، والواجب الرجوع إلى كتب أهل العلم الراسخين في العلم في هذه المسائل، وأن لا تُجعل مسائل العقيدة ومسائل الإيمان علوكة في السنة الناس يتلاوكونها في المجالس، مثل:

هل الأعمال من الإيمان أو خارج الإيمان؟ هل الأعمال شرط في الإيمان؟ هل الإيمان هو التصديق؟ كل هذه أمور لا يجوز الخوض فيها؛ لأنها أمور مفروغ منها ومدروسة، ومسجلة في كتب أهل العلم، فلا يجوز لنا الآن أن نجعلها مجالاً للتساؤلات والتشكيكات، ونسأل فيها من هب ودب.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: بَيَانُ فَرَضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

الثانية: بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ.

الثالثة: إِخْبَاطُ عَمَلٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

الرابعة: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ.

الخامسة: ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ.

السادسة: أَنَّهُ جَرَى بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

السابعة: بَرَاءَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

الثامنة: عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ.

التاسعة: أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ الشُّبْهَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ

إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَطْ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأولى: بَيَانُ فَرَضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ) أي: وجوب الإيمان

بالقضاء والقدر، فمن جحدده فهو كالذي لا يؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ، ويحجد وجود

الملائكة، ويحجد إنزال الكتب، وبعثة الرسل، ولا يؤمن باليوم الآخر.

❁ قوله: (الثانية: بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ) أن تعلم أن ما أصابك لم يكن

ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، هذه كيفية أو معنى الإيمان بالقضاء

والقدر، وثمرته أنك تجد حلاوة الإيمان.

✽ قوله: (الثَّالِثَةُ: إِحْبَاطُ عَمَلٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ) لو أنفق مثل أحد ذهباً ما تقبله الله منه، فدل ذلك على حبوط أعمال نفاة القدر.

✽ قوله: (الرَّابِعَةُ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ) أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان - وهو الطمأنينة والراحة النفسية والرضى عن الله - إلا إذا آمن بالقضاء والقدر، أما إذا لم يؤمن بالقضاء والقدر فإنه سيكون في قلق وخوف، وفي هم واضطراب في هذه الحياة.

✽ قوله: (الخَامِسَةُ: ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ) هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين كما سبق، ولا يفيدنا شيء إذا كان القلم هو أول المخلوقات أو العرش، ولكن هذا من باب العلم والجمع بين الروايات فقط، ولكن إذا لم نعلم ما أول المخلوقات ما ضرنا شيئاً.

✽ قوله: (السَّادِسَةُ: أَنَّهُ جَرَى بِالمُقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ) أن القلم في تلك الساعة التي أمره الله كتب كل شيء، وهذا من عجاب قدرة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ في ساعة واحدة كتب كل ما يجري، والساعة ليس المراد بها المعروفة الآن ستين دقيقة، إنما يراد بها الجزء والقطعة من الزمن.

✽ قوله: (السَّابِعَةُ: بَرَاءَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ) وهذا دليل على كفره، أو على أنه مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب.

✽ قوله: (الثَّامِنَةُ: عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ) هذه العادة العظيمة أن الإنسان إذا أشكل عليه شيء - خصوصاً في المطالب

الكبار والمسائل العلمية العظيمة - فإنه لا يذهب المتعالين وإلى كل من هب ودب، وإنما يذهب إلى الراسخين في العلم ويسألهم عما أشكل عليه.

❦ قوله: (التَّاسِعَةُ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ الشُّبْهَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَطُّ) هذا هو الشفاء أن العلماء لا يفتنون من عند أنفسهم، وإنما يرجعون إلى سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن المؤمن إذا بلغته سنة الرسول فإنه يتقيد بها، إذا كان في قلبه إيمان.



٦٠- بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ] أي: من الوعيد، وقد ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلة، وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله عَزَّجَلَّ له الخلق والأمر، فلا يجوز أن يُشَبَّه بشيء من خلقه سبحانه؛ لما فيه من المضاهاة بخلق الله.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ) يعني: من الوعيد الشديد. والتصوير: هو إيجاد الصورة، وصورة الشيء شكله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الذي صور المخلوقات، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ومن أسمائه سبحانه: المصور، فالتصوير من أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي يصور الصور يريد بذلك محاكاة ومشابهة الصورة التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو بفعله هذا يحاول مشابهة الله ومضاهاة الله في خلقه وفعله، وهذا إساءة الأدب مع الله عَزَّجَلَّ، وهو نقص في التوحيد.

ومن ناحية أخرى فإن التصوير وإيجاد الصور وسيلة إلى الشرك، كما حدث في الأمم السابقة، فإن قوم نوح إنما حدث فيهم الشرك بسبب الصور التي نصبوها لما مات رجال من الصالحين: ود، وسواع، ويعوق، ويغوث، ونسر؛ كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في صحيح البخاري، قال: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَةٍ الْجُنْدَلِ، وَأَمَّا سُوعٌ كَانَتْ لِهَذِيلٍ، وَأَمَّا يَغُوثٌ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لَبَنِي غُطَيْفٍ

بِالْجُوفِ، عِنْدَ سَبِيٍّ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لَهُمْدَانُ، وَأَمَّا نَسْرُ فَكَانَتْ لِحَمِيرَ لَالٍ
ذِي الْكَالَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى
قَوْمِهِمْ، أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ،
فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَخَ الْعِلْمُ عُيِدَتْ»^(١).

جاءهم الشيطان وقال لهم: صوروا صورهم وانصبوها على مجالسهم،
حتى إذا رأيتموها تتذكرون مجالسهم، وتذكرون أحوالهم، فينشطكم ذلك
على العبادة، ففعلوا ذلك وصوروا هذه الصور، ونصبوها ذكريات لهؤلاء
الصالحين. ومضى الجيل الأول ولم تعبد هذه الصور، نظرًا لوجود العلماء
الذين ينكرون الشرك، فلم يجرؤ الشيطان مع وجود العلماء على إغراء الناس
بالشرك؛ لأنهم يبتلون كيده، فلما مات العلماء ونسخ العلم أو نُسي، وجاء
جيل من الجهال، جاءهم الشيطان وقال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور
إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فعبدوها من دون الله، فحدث الشرك
في الأرض من ذلك التاريخ، وهو أول شرك حدث في الأرض منذ هبوط
آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فبعث الله نبيه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ينهاهم عن الشرك، ويأمرهم بعبادة الله
وحده، ولكنهم أبوا؛ لأن الشرك تمكن من قلوبهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَا
نُذِرُّكَ إِلَهَتَكُمْ وَلَا نَذِرُّكَ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقُ وَشَرًّا﴾ [نوح: ٢٣].

هذه صور الصالحين صارت أصناماً تعبد من دون الله، فصار التصوير وسيلة من وسائل الشرك، يستخدمها الشيطان للوصول إلى ذلك، لاسيما صور المعظمين من العلماء والرؤساء والملوك، فإنها الفتنة بها أشد إذا نصبت وعُلقت، وهذا هو الذي هلك به قوم نوح.

وكذلك في عهد إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا يعبدون التماثيل، وهي الصور المنحوتة على أشكال ذوات الأرواح، ولهذا قال لهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، كانوا يعكفون على صور منحوتة على أشكال الآدميين أو غيرهم من ذوات الأرواح ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، ليس عندهم حجة إلا أنهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك ففعلوا مثلهم، وهذا هو التقليد الأعمى.

وكذلك في بني إسرائيل لما أضلهم السامري، فجمع الذهب الذي كان معهم من حليهم، وصاغه على شكل عجل ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ﴾ يدخل الهواء من جانبه ويخرج من جانبه فيصير له صوت كخوار العجل ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، وكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد ذهب إلى موعد ربه الذي وعده إياه على رأس أربعين ليلة أن يكلمه، وأوصى أخاه هارون واستخلفه عليهم، فحدث ذلك في غيبة موسى، ونهاهم هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذلك، وقال لهم: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، والخبيث يقول لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي: نسي موسى ربه، وذهب يبحث عنه وهو

موجود معكم!! فلما نهاهم هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمتثلوا، وقالوا: ﴿لَنْ تَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، ثم رجع موسى وحصل ما حصل من غضبه عليهم، وإنكاره عليهم، ثم أحرق هذا العجل وذراه في اليم: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (١٧) **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴿طه: ٩٧-٩٨﴾.

الشاهد من هذا: أن الشرك حدث في بني إسرائيل بسبب تصويرهم الذهب على صورة العجل، فافتتنوا به، مما يدل على أن الفتنة في الصور شديدة أهلكت الأمم السابقة، فكيف نتساهل نحن في أمر الصور والتصوير، ونجعله من جملة الفنون الدراسية؟! هذا من الجهل والغرور ومن كيد الشيطان.

فالواجب أن يُحارب التصوير، وأن يقضى عليه ويُمْنَع، ولا فرق فيه بين الصورة المنحوتة التي لها ظل، والصورة المرسومة باليد التي ليس لها ظل، والصورة الملتقطة بآلات التصوير، كلها يجب أن يُحذر منها؛ لأنها مضاهاة لخلق الله، فلا يجوز عملها، وبيعها، وشراؤها، ونصبها على المجالس، أو على الميادين. ولا يُقال: الناس على وعي وعلى معرفة، وليسوا من السذاجة أن يعبدوها!! فهذا قول فاسد؛ لأنه سيأتي جيل من الجهال بعدهم فيعبدونها من دون الله، مثلما حصل في قوم نوح، فإذا أقر المبدأ وأقر الشيء في أول الأمر يتطور، وإذا مُنِع من الأصل استراح الناس منه.

ولذلك حرم العلماء التصوير، واعتبروه من كبائر الذنوب للوعيد الشديد عليه، وحرّموا صناعة الصور وبيعها، وحرّموا اقتناءها للذكريات أو للفن، أو الاحتفاظ بها على أي شكل كانت.

فلهذا السبب عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لأن هذا الكتاب في بيان التوحيد، وبيان الشرك ووسائله، ومن أعظم وسائله وأسبابه: نصب الصور واقتنائها على أي شكل كانت.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه عَزَّجَلَّ، قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى» وهذا فيه إثبات الكلام لله عَزَّجَلَّ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ردًّا على الجهمية ومن أخذ بقولهم من المعتزلة وغيرهم. لكنه ليس ككلام المخلوق، وإنما هو كلام يليق بجلاله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❖ قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» هذا استفهام إنكار بمعنى النفي، أي: لا أحد أشدَّ ظلمًا من المصور، مثل قوله عَزَّجَلَّ: ❖ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ❖ [الأنعام: ٢١]، وقوله: ❖ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ❖ [الصف: ٧]، أي: لا أحد أظلم من هذا، فهو أظلم الظالمين.

❖ قوله: «يَخْلُقُ كَخَلْقِي» يعني بذلك المصور؛ لأنَّ المصور يحاول أن يوجد صورة تشبه الصورة التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله سبحانه تفرّد بالخلق، وتفرّد بالتصوير، قال عَزَّجَلَّ: ❖ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ❖ [الحشر: ٢٤]، وقال عَزَّجَلَّ: ❖ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

الطَّبَبَتِ ﴿[غافر: ٦٤]، فالله عَزَّجَلَّ هو المصوِّر، فالذي يحاول أن يضع شكلاً يشبه الصورة التي خلقها الله عَزَّجَلَّ فقد جعل نفسه شريكاً لله في التصوير، ولهذا يجعل الصورة على شكل المصوِّر من إنسان أو حيوان، فيجعل لها رأساً ووجهاً وأنفاً وعينين وشفَتين وأذنين ويدين ورجلين، ثم يلوِّثُها بالتلوينات إذا كانت رسماً، وإن كانت بناءً فإنه يبني تمثالاً مكوّناً من أعضاء وتقاطع يحاوُلُ بها مشابهة خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومشاركة الله عَزَّجَلَّ فيما اختصَّ به وتفرَّد به، فإنَّ الله عَزَّجَلَّ هو الخالق وحده، لا أحد يخلُق غيره، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

فهو يستطيع أن يرسم شكلاً أو يبني تمثالاً، ولكنه لا يستطيع أن يجعله حياً متحرِّكاً عاقلاً مفكِّراً، يأكل ويشرب ويعمل كما يعمل خلقُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّجَلَّ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

❁ وقوله: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً» هذا أمر تعجيز وتحدٍّ، وهو تحدٍّ قائم إلى يوم القيامة. «أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً» حَبَّة من النَّبات، مثل: حَبَّة بُرٍّ أو دخن أو غير ذلك من الحبوب. «أَوْ شَعِيرَةً» أي: حَبَّة شعير، هم يستطيعون أن يعملوا صورة حَبَّة، وصورة شعيرة، وصورة ذرَّة، لكن لا يستطيعون أن يجعلوا فيها الخواصَّ التي يجعلها الله في هذا المخلوق، وإنَّما هي مجرَّد أشكال ورسوم

وتمثيل فقط. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، فالله وحده هو الذي يخلق الحبة وفيها خصائصها من الحياة والنمو والطعم، فإذا بُذِرَتْ نَبَتَتْ، وهذه الحياة التي في الحبة تسمى حياة نمو، أما حياة الحيوان فإنها تسمى حياة حركة.

فلو أن هذا الإنسان الذي يسمونه الفنان صرف جهده لأشياء نافعة، مثل الصناعات والاختراعات المفيدة، التي ينتفع الناس بها، ويتنفع هو بها، لكان هذا عملاً جيداً، ومع النية والإيمان يكون عبادة يؤجر عليها. أما أن يصرف جهده ووقته وتعلمه في رسم الصور ونحتها، فهذا عبثٌ فارغ وعملٌ محرم، وهو ملعون على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أشد الناس عذاباً يوم القيامة، كما سيأتي في الحديث الذي بعده، فبئسما اختار لنفسه من هذا الفن الممقوت.

فهذا الحديث فيه تحريم التصوير لأمرين:

الأمر الأول: أنه أظلم الظلم.

الأمر الثاني: أن المصورين يضاهون بذلك خلق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والله

عَزَّجَلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].



وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

وهذا الحديث أيضًا من الأحاديث التي تدل على تحريم التصوير، وشدة إثمه، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب، وأن المصور هو أشد الناس عذابًا يوم القيامة من ناحية أنه يُكلف شيئًا لا يستطيعه ولا يطيقه، كما سيأتي تفصيل ذلك في الحديث الذي بعده. وإلا فإن الكفار والمشركين لا شك أنهم أشد الناس عذابًا من ناحية الكفر والشرك، لكن هذا أشد من ناحية التصوير.

فلو أن المصورين تصوروا هذا الوعيد، واستحضروه؛ لكفوا عن أمرهم، لكنهم غافلون عن هذا، أو أنهم لا يؤمنون به، فإن كانوا لا يؤمنون به فالأمر أشد لأنه كفر، وإن كانوا غافلين عنه فهذا لا شك أنه ضياع وضلال.



(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوْرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ» هذا عموم في كل المصورين، سواء صور بالنحت أو بالرسم أو بالالتقاط بالآلة، فمن أراد أن يخص شيئاً من التصوير بأنه جائز فعليه بالدليل الذي يُخرج من هذا العموم. فإذا جاء من ويقول: إن التصوير الضوئي أو الفوتوغرافي حلال، وأنه لا إثم فيه! قلنا له: هات الدليل، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ» وأنت تقول: ليس كل مصور في النار، فالذي يصور بالآلة مصور، والذي يجمع الصور ويركبها مصور، فما الذي يخرج من هذا العموم؟! هذا في الحقيقة لا يجوز، وهو من التحايل على كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا الذي يستثني بعض المصورين مثل الذي يستثني من قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ»^(٢)، ويقول: بل هناك بدعة حسنة!! فيستدرك على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون أن يكون معه دليل من كتاب أو سنة^(٣)، وهذا الفلسفات والتشذقات التي لا قيمة لها. والواجب على المسلم -وخصوصاً طالب العلم- أن يتقي الله، ويحترم كلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٥) بلفظ مختلف، وأخرجه مسلم (٢١١٠) بنحو هذا اللفظ.

(٢) سبق تخريجه (٣٤٠ / ٢).

(٣) قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الاعتصام» (١ / ١٨٨ - ١٩٣): «وَمَا يُورَدُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَسَمُوا الْبَدْعَ بِأَقْسَامِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْخَمْسَةِ، وَلَمْ يَعْذُوهَا قِسْمًا وَاحِدًا مَذْمُومًا، =

❁ فقله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ» هذا نوع من الوعيد الشديد، والنوع الثاني أشد: «يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوْرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»، فلينظر كم صورة صورها في الدنيا؟ يمكن آلاف الصور، ويمكن طول حياته مهنته كلها التصوير، ومعايشه على التصوير، أو بيع الصور، فيُجعل له بكل صورة صورها في الدنيا نفس يُعذب بها في جهنم، وهذا من تغليظ العذاب عليه والعياذ بالله.



=فَجَعَلُوا مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ وَمَنْدُوبٌ وَمُبَاحٌ وَمَكْرُوهٌ وَمُحَرَّمٌ، وَبَسَطَ ذَلِكَ الْقَرَأِيُّ بَسْطًا شَافِيًا وَأَصْلُ مَا أَتَى بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْخُهُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ، وَهَذَا أَنَا آتِي بِهِ عَلَى نَصِّهِ، فَقَالَ: «... هَذَا التَّقْسِيمُ أَمْرٌ مُحْتَرَجٌ، لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ مُتَدَافِعٌ؛ لِأَنَّ مِنْ حَقِيقَةِ الْبِدْعَةِ أَنْ لَا يَدُلَّ عَلَيْهَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ؛ لَا مِنْ نُصُوصِ الشَّرْعِ، وَلَا مِنْ قَوَاعِيدِهِ، إِذْ لَوْ كَانَ هُنَالِكَ مَا يَدُلُّ مِنَ الشَّرْعِ عَلَى وَجُوبٍ أَوْ نَذْبٍ أَوْ إِباحَةٍ؛ لَمَا كَانَ ثُمَّ بِدْعَةً، وَلَكَانَ الْعَمَلُ دَاخِلًا فِي عُمُومِ الْأَعْمَالِ الْمَأْمُورِ بِهَا أَوْ الْمُخَيَّرِ فِيهَا، فَالْجَمْعُ بَيْنَ كَوْنِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ بِدْعًا، وَبَيْنَ كَوْنِ الْأَدِلَّةِ تَدُلُّ عَلَى وَجُوبِهَا أَوْ نَذْبِهَا أَوْ إِباحَتِهَا جَمْعٌ بَيْنَ مُتَنَافِيَيْنِ. أَمَّا الْمَكْرُوهُ مِنْهَا وَالْمُحَرَّمُ؛ فَمُسَلَّمٌ مِنْ جِهَةٍ كَوْنِهَا بِدْعًا لَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِذْ لَوْ دَلَّ دَلِيلٌ عَلَى مَنَعِ أَمْرٍ أَوْ كَرَاهِيَةٍ؛ لَمْ يُثَبِّتْ بِذَلِكَ كَوْنُهُ بِدْعَةً؛ لِإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً؛ كَالْقَتْلِ وَالسَّرْقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَنَحْوِهَا، فَلَا بِدْعَةَ يُتَصَوَّرُ فِيهَا ذَلِكَ التَّقْسِيمُ الْآبِتَّةُ، إِلَّا الْكَرَاهِيَةُ وَالتَّحْرِيمُ حَسْبَمَا يُذَكِّرُنِي بِآبِهِ ... فَمَا ذَكَرَهُ الْقَرَأِيُّ عَنِ الْأَصْحَابِ مِنَ الْإِتْفَاقِ عَلَى إِنْكَارِ الْبِدْعِ صَحِيحٌ، وَمَا قَسَّمَهُ فِيهَا غَيْرُ صَحِيحٍ» اهـ. بتصرف.

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُفِّ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله: «كُفِّ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» هل أحد يستطيع أن ينفخ الروح إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؟ الروح لا يستطيع إيجادها في المخلوق إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فيجعلها فيه بواسطة الملك حيث يؤمر بنفخ الروح فيه، ثم يقبضها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بالوفاة، ثم تعاد إليه في القبر والمحشر.

فالروح من أمر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يدري أحد ما حقيقتها، لا من الأولين ولا من الآخرين، أعجزت البشرية هذه الروح، لا يدرون ما هي، ولا حقيقتها، ولا كيف اتصالها بالبدن، ولا خروجها من البدن، فهي من عجائب خلق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

✽ فقلوه: «كُفِّ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ» هذا من باب التعجيز والتعذيب له يوم القيامة، نسأل الله العافية، ويحسبون أن الأمر هيّن، ولا يدرون أن أعمالهم تُحصى عليهم، وسيُحضرون يوم القيامة ويكلفون أن ينفخوا الروح في هذه الصور، فلا يستطيعون. فعلى المسلم أن يتوب إلى ربه ويستحضر هذا الموقف الرهيب يوم القيامة الذي لا مفر منه.

فهذه أربعة أنواع من الوعيد:

أولاً: أن المصور أشد الناس ظلماً.

ثانياً: أنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠).

ثالثًا: أنه يُجعل له بكل صورة صورها نفس يُعذب بها في النار يوم القيامة.

رابعًا: أنه يُكلف بنفخ الروح في كل الصور التي صورها، من باب التعجيز له، والتكليف بها لا يطيقه تعذيبًا له، وفضيحة له يوم القيامة.

وعلمنا من هذه الأحاديث أن التصوير يحرم لعلتين أو أكثر:
العلة الأولى: أن فيه مضاهاة لخلق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

العلة الثانية: أنه وسيلة إلى الشرك، كما حصل لقوم نوح.

العلة الثالثة: إذا كان تصويرًا للنساء وإظهارًا لمحاسن النساء فإن فيه أيضًا نشر للفساد، ودعاية للإباحية، فالذين ينشرون صور النساء الجميلات على مجلاتهم أو على بضائعهم فليعلموا أن فعلهم هذا دعاية للإباحية، ودعاية للفساد عن طريق التصوير.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: «قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:
أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا تَدْعَ صُورَةً
إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»^(١).

قوله: [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ]، أبو الهياج: هو الأسدي حيان بن حصين.
(علي) هو: أمير المؤمنين.

قوله: (أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ
لَا تَدْعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ): فهذا ما صح عن النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إنكار هذه الأمور وإزالتها، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ
الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، فأكثروا التصوير واستعملوه، وأكثروا البناء
على القبور، وزخرفوها وجعلوها أوثانًا، وزعموه دينًا، وهو أعظم المنكرات،
وأكبر السيئات، تعظيمًا للأموات وغُلُوًّا، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي
هي حق الله على عباده.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ومن جمع بين سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
في القبور وما نهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم،
رأى أحدهم مضادًا للآخر مناقضًا له، بحيث لا يجتمعان أبدًا^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ روى في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي،
وهو تابعي جليل كان كاتبًا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ، قال:

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٩٥).

(قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ؟) أي: أرسلتك وأفوضك (عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتُهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ) هذه هي المهمة التي بعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها ابن عمه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قوله: (أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً) أي: لا تترك أي صورة؛ لأن كلمة (صورة) أتت هنا نكرة، فلا يترك صورة أي صورة سواء أكانت تمثالا أم رسما باليد، أم صورة استخدم في تصويرها آلات التصوير.

❁ قوله: (إِلَّا طَمَسْتُهَا) الطمس معناه: إزالة الرأس، أو إخفاء ملامحه بالخبر، أو يُلطخ بأي شيء بحيث تُخفى معالمه نهائياً. فإذا طمس وجه الصورة أو قُطع رأسها وأزيل فقد زال المحذور؛ لأنه إذا زال الوجه صارت الصورة ليس لها قيمة.

هذا هو الواجب على المسلمين أن يطمسوا الصور التي في بيوتهم، أو الصور التي يقدرّون على طمسها في أي مكان، إذا كان عندهم القدرة، وإذا لم يكن عندهم القدرة فليسيئوا للناس تحريمها ووجوب إزالتها؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ» وهذا لأصحاب السلطة «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ» وهذا لأهل العلم الذين ليس لهم سلطة، لكن عندهم علم، فيبينوا للناس بالموعظة والنصح والإرشاد والفتوى، «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»^(١) هذا إذا لم يكن عنده سلطة ولا علم ولا يقدر أن

يتكلم، فإنه ينكر المنكر بقلبه، فيصير مبغضاً له، ومبتعداً عنه، وهذا أقصى ما يستطيع.

وكل إنسان يستطيع أن يطمس ما في بيته من الصور؛ لأنه له سلطة على بيته، وأما الصور التي خارج البيت فإذا كان من أهل السلطة ولا يُحاسب إذا طمسها وأزالتها من قَبْل ولي الأمر فإنه يطمسها أو يزيلها، وإن لم يكن له سلطة فإنه ينكرها بلسانه، وإن لم يكن له إمكانية إنكارها باللسان فإنه ينكرها بقلبه ويبغضها ويبتعد عنها.

❁ قوله: (وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا) جمع هنا بين الصورة والقبر لأن كلاً منهما من وسائل الشرك، والقبر المشرف: هو المرتفع، فإذا تميز القبر عن غيره ببناء، أو رفع بالتراب والتحجير عليه بحيث يصبح مرتفعاً، أو بالكتابة عليه، أو بتجسيصه، فهذه كلها وسائل من وسائل الشرك ومن الغلو في القبور.

والواجب في القبور أنها تُدفن بترابها، وأن تُرفع عن الأرض قدر شبر؛ لكي تُعرف أنها قبور ولا تمتهن، ولا يُزاد عن الشبر، كما كان قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما كانت قبور أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانت قبورهم مرفوعة عن الأرض قدر شبر، حتى يُعرف أنها قبور ولا تمتهن ولا تداس، ولا يُزاد على ذلك حتى لا تكون وسيلة من وسائل الشرك. فإن تميز القبر بالرفع أو بغيره يؤدي فيما بعد إلى الغلو في الميت بأن يُذبح له ويُنذر له، ويُدعى من دون الله؛ كما حصل عند الأضرحة المبنية والقبور المميزة عن غيرها بين المقابر في كثير من بلاد المسلمين، حيث صارت أوثاناً تُعبد من دون الله. والشارع

جاء بسد الطرق المفضية إلى الشرك، فأمر هنا بطمس الصورة وتسوية القبر المشرف؛ لأن كلا منهما من الوسائل المؤدية إلى الشرك.

والعجيب أن هذه السنة جاءت من طريق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي يغلو فيه الشعية ويعظمونه ويعبدونه من دون الله، وهو يروي هذا الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي يسد الطرق المفضية إلى الغلو في الصالحين، سواء أكانوا أهل البيت أم كانوا غيرهم، والمسلمون كلهم على حد سواء، كلهم عباد لله يرجون رحمته ويخافون عذابه، فلا أحد يُدعى ويُعبد من دون الله، أو يُعتقد فيه أنه ينفع أو يضر، كل الخلق - الأنبياء والصالحون وغيرهم - ليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعبادة حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والذين يبنون على القبور هم شرار الخلق؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكرت له أم سلمة وأم حبيبة ما رأتا في بلاد الحبشة من الكنائس التي فيها الصور، فقال: «أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وقال في الحديث الآخر: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»^(٢)، فهؤلاء هم شرار الخلق؛ لأنهم دعاة إلى الشرك وعبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) سبق تخريجه (١/ ٤٧٢).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٩٠).

فلا يجوز الغلو في القبور، ومن مظاهر الغلو فيها: البناء عليها، واتخاذها مساجد يصلى عندها؛ كما سبق بيان ذلك في (باب ما جاء أن الغلو في قبور الأولياء والصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله) وسبق أيضًا في (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!).

❦ فالشاهد من هذا الحديث للباب قوله: (لَا تَدْعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا) فدل على النهي عن تعليق الصور واقتنائها لأي سبب، فإذا كانت في بيوتنا أتلفناها وأخرجناها منها، وجعلنا بيوتنا خالية من الصور، إلا ما دعت الضرورة إلى الاحتفاظ به، ويكون مخفيًا غير ظاهر، مثل الصور الخاصة بالمعاملات التي أصبحت لا يُحصل عليها إلا بصورة، وأما فيما عدا ذلك فلا يجوز الاحتفاظ بالصور، بل تُتلف وتُطمس، بشرط أن يكون لمن يفعل ذلك سلطة عليها، أما إذا كانت في مكان ليس له فيه سلطة، فإنه يبين حكمها، وينصح الناس ويرشدهم إلى عدم جواز اقتنائها وتعليقها على هذا النحو، مستدلًا بالأحاديث والآثار المروية في ذلك، حتى يقيم الحجة عليهم.

❦ قوله: (فهذا ما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إنكار هذه الأمور وإزالتها، فبدل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم، فأكثرُوا التصوير واستعملوه، وأكثرُوا البناء على القبور، وزخرفوها) ارتكبوا المحذورين: أولاً: أكثرُوا من التصوير، وتسابقوا فيه، وجعلوه حرفة ومهنة يتعيشون من ورائها، أو يأخذون الجوائز عليها، أو يبيعونها ويأكلون ثمنها، غير مباليين بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطمسها وإتلافها.

ثانيًا: بنوا على القبور، وما أكثره اليوم في كثير من الأمصار، وكان في هذه البلاد أيضًا، ولكن الله من عليها بدعوة الشيخ الإمام مصنف هذا الكتاب، فأزال ما فيها من المباني التي على القبور، وبقيت - والله الحمد - هذه البلاد سليمة من هذه الجريمة النكراء، وبقيت القبور على السنة التي بعث بها رسول الله ﷺ، والله الحمد والمنة، أما ما عدا هذه البلاد فالمساجد التي ليس فيها قبور ليس لها قيمة عند كثير من الناس، إنما يقصدون ويذهبون إلى المساجد التي فيها قبور، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❁ قوله: (وجعلوها أوثانًا وزعموه دينًا) يقولون: هذا هو الدين، والذي ينكره يصفونه بأنه خارج عن الدين، وأنه يبغض الرسول ويبغض الأولياء والصالحين؛ لأن حب الرسول وحب الصالحين عندهم هو فعل ما نهى عنه الرسول ﷺ وهو البناء على القبور!! هل هذا حب الرسول وحب الصالحين؟! لا شك أن حب الرسول وحب الصالحين يكون باتباعهم والإقتداء بهم، وبأن تكون محبتهم في القلب أكثر من محبة غيرهم، لا بالغلو فيهم، والبناء على القبور.

وأول من أحدث البناء على القبور - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية^(١) - هم الشيعة الفاطميون في مصر وفي غيرها، لما استولوا على المغرب

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى (٢٧ / ١٦٧): «لَمْ يَكُنْ فِي الْعُصُورِ الْمُفْضَلَةِ «مَشَاهِدُ» عَلَى الْقُبُورِ وَإِنَّمَا ظَهَرَ ذَلِكَ وَكَثُرَ فِي دَوْلَةِ بَنِي بُوَيْهٍ؛ لَمَّا ظَهَرَتْ الْقَرَامِطَةُ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ كَانَ بِهَا زَنَادِقَةٌ كُفَّارٌ مَقْصُودُهُمْ تَبْدِيلُ دِينِ الْإِسْلَامِ وَكَانَ فِي بَنِي بُوَيْهٍ مِنَ الْمَوَافِقَةِ لَهُمْ عَلَى بَعْضِ ذَلِكَ وَمِنْ بَدْعِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَرِلَةِ وَالرَّافِضَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ =

وعلى مصر بنوا القباب على القبور، ثم قلدهم الصوفية والخرافيون من غير الشيعة، فصاروا يبنون على القبور، والمسجد الذي لا يوجد فيه قبر ليس له قيمة عندهم، فلا يذهبون إلى المساجد الخالية من القبور.

وهذه فتنة والعياذ بالله، فأول من أظهر هذا هم أعداء الله الشيعة الذين اندسوا في الإسلام لإفساده، وهم صنعة من صنائع اليهود، أو من صنائع المجوس؛ لأن الشيعة على قسمين:

* شيعة من صنائع المجوس.

* وشيعة من صنائع اليهود.

يتعاونون فيما بينهم بدعوى حب أهل البيت على تفريق المسلمين، وأعانهم على ذلك الصوفية من المنتسبين للسنة، الذين ليسوا شيعة في الأصل لكن يحبون القبور ويحنون إليها، فتعاونوا مع هؤلاء الشيعة وقاموا ببناء هذه القباب على القبور، ويحثون عليها ويحنون إليها كأنهم عطشى ممنوعين من الماء البارد، ويدعون إليها بحجة إحياء الآثار، ويقولون: هذه آثار الصالحين لماذا تُطمس؟

= لِأَهْلِ الْعِلْمِ فَبَنَوْا الْمَشَاهِدَ الْمَكْذُوبَةَ «كَمَشْهَدٍ عَلَيَّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمْثَالِهِ. وَصَنَّفَ أَهْلُ الْفِرْيَةِ الْأَحَادِيثَ فِي زِيَارَةِ الْمَشَاهِدِ وَالصَّلَاةِ عِنْدَهَا وَالِدُعَاءِ عِنْدَهَا وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ. فَصَارَ هَؤُلَاءِ الزَّادِقَةُ وَأَهْلُ الْبِدْعِ الْمُتَّبِعُونَ هُمْ يُعْظَمُونَ الْمَشَاهِدَ وَيُهَيِّنُونَ الْمَسَاجِدَ وَذَلِكَ: ضِدُّ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْتَرُونَ بِالتَّشْيِيعِ.

وما هي إلا وسيلة إلى الشرك، فهي أولاً تُسمى آثاراً، ثم يُقال: إن فيها بركة، ثم في النهاية تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مكر وحيلة وإرادة شر بالمسلمين، ويجب التنبه لهذه الأمور وعدم التساهل فيها.

فقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لماذا عبدوا الأصنام؟ الجواب: لأنهم عظموا الموتى؛ عظموا الصالحين - وذاً وسواهاً ويغوث ويعوق ونسراً - عظموهم وغلوا في حقهم حتى عبدوهم من دون الله.

وهذا هو الواقع اليوم وهو الغلو في الصالحين، يقولون: فلان ولي من أولياء الله، فإذا مات بنوا على قبره قبة، ووضعوا عليه الزخارف والأستار والمباخر، وجعلوا عليه سدة وصناديق للصدقات والتبرعات، فصارت القبور أصناماً مثل اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وقوم نوح إنما أشركوا بسبب الغلو في الصالحين، فالخطئة واحدة وهي شيطانية من قديم الزمان وحديثه.

فالواجب على المسلمين أن يصمدوا وأن ينهوا عن الغلو وعن إحياء آثار الصالحين والمعظمين؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، لكن الشيطان يقول لهم الآن: هذه آثار تاريخية ترون فيها حضارة الأولين. ثم بعد ذلك يقول لهم: هذه ليست مجرد آثار تاريخية، هذه أصحابها ينفعون ويضرون ويقضون الحاجات. ثم يبنون عليها فتصير أصناماً تُعبد من دون الله.

فيجب التنبه لمثل هذه الأمور ولكيد شياطين الإنس والجن، وسد الذرائع المفضية إلى الشرك والكفر، والشرك والكفر إنما يأتيان شيئاً فشيئاً،

فإذا فُتحت الذرائع ووسائل الشرك جاء الشرك ولو متأخراً، وانطفأ نور التوحيد، وزال الدين - والعياذ بالله - وحينئذٍ لن تجد شيئاً يعوضه.

وما أحسن قول القائل:

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبُرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ^(١)

إذا زال الدين ماذا يبقى؟ لو تُعطى الدنيا كلها فإنها لا تنفعك، أما إذا بقي معك الدين ولو زالت الدنيا كلها ما ضرك شيء بإذن الله.



(١) هذا البيت من شعر أبي الفتح علي بن محمد الحسين البستي، الشاعر النائر، والأديب الأريب، والمحدث الفاضل، والفقيه الشافعي، وُلد في مدينة بست من بلاد أفغانستان الآن في حدود سنة ثلاثين وثلاثمائة. انظر: قصيدة عنوان الحكم (ص ٧، ٤٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمُصَوِّرِينَ.

الثَّانِيَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى الْعِلَّةِ، وَهُوَ تَرْكُ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ لِقَوْلِهِ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي».

الثَّالِثَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ، لِقَوْلِهِ: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

الرَّابِعَةُ: التَّضَرُّيخُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

الخَامِسَةُ: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بِعَدَدِ كُلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذِّبُ بِهَا الْمُصَوِّرُ فِي جَهَنَّمَ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يُكَلِّفُ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ.

السَّابِعَةُ: الْأَمْرُ بِطَمَسِهَا إِذَا وُجِدَتْ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأولى: التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمُصَوِّرِينَ)، وذلك من أربعة وجوه:

أولاً: أنهم أظلم الناس.

الثاني: أنهم يحاولون مشابهة الله في خلقه.

الثالث: أنهم أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

الرابع: أنهم يكلفون ما لا يطيقون، فيقال: لهم أحيوا ما خلقتهم.

الخامس: أنه يُجعل للمصور بكل صورة صورها نفس يُعذب بها في جهنم.

❁ قوله: (الثَّانِيَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى الْعِلَّةِ، وَهُوَ تَرَكُ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ لِقَوْلِهِ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي») أرادوا مضاهاة خلق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من إساءة الأدب مع الله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ، لِقَوْلِهِ: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً») هذا هو الفرق بين الخالق والمخلوق: أن الله يخلق المخلوقات كبيرها وصغيرها، وهؤلاء يعجزون عن أصغر شيء وهو الذرة أو الحبة أو الشعيرة. قد يقول قائل: هم لا يعجزون أن يصوروا مثل صورة الحبة أو صورة الذرة!! نقول له: الكلام عن الخلق وليس عن التصوير، فهل يقدرُونَ أن ينفخوا فيما صورهِ الروح؟ هل يقدرُونَ أن يجعلوا في الحبة التي صوروها حياة نمو، وأن يجعلوا فيها طعامًا وغذاء وقوتًا كما جعله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؟ لا أحد يتجرأ ويقول إنه يقدر على هذا.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا) وهذا دليل على أن التصوير الذي تساهل فيه كثير من الناس الآن كبيرة عظيمة من كبائر الذنوب.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بِعَدَدِ كُلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذَّبُ بِهَا الْمَصَوِّرُ فِي جَهَنَّمَ) فهذا المسكين الذي كان يتساهل بهذه الصور، يُعذب يوم القيامة بعدة أنفس بعدد الصور التي صورها.

❖ قوله: (السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ) ولا أحد يستطيع نفخ الروح إلا الله عَزَّوَجَلَّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

❖ قوله: (السَّابِعَةُ: الْأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ) لا يكفي النهي عن اقتناء الصور، بل لابد إذا وجدت من طمسها لمن له قدرة على طمسها، ومن لم يقدر على طمسها فإنه يبين حكمها ويحذر منها.



٦١- بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلْفِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلْفِ] أي: من النهي عنه والوعيد.
قوله: [وقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾]: قال ابن جرير: أي لا تتركوها بغير تكفير^(١). وذكر غيره عن ابن عباس: يريد لا تحلفوا. وقال آخرون: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾ عن الحنث، فلا تحنثوا^(٢). والمعنى يعم القولين.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلْفِ) أي: ما جاء في ذلك من الوعيد؛ لأن كثرة الحلف تدل على التساهل باليمين، وهذا نقص في التوحيد. فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أن التساهل في الحلف نقص في التوحيد؛ لأن كثرة الحلف تدل على عدم المبالاة، فلو كان يعظم اليمين ويخاف من الله لما كرر اليمين وأكثر منها.

وكثرة الحلف معناها: الإكثار من الأيمان في كل مناسبة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تُطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، والحلاف: كثير الحلف، وقد يكون في غير داع لليمين، إلا التغرير بالناس وخداع الناس؛ كحالة المنافقين الذين قال

(١) انظر: تفسير الطبري (٣١/٧)، وتفسير ابن كثير (٩٢/٢).

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٩٥/٤)، وتفسير البغوي (٦٢/٢)، والدر المنثور (٧١٣/٢).

الله عَزَّجَلْ فِيهِمْ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقال عَزَّجَلْ: ﴿وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وقال عَزَّجَلْ: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢] يعني: اتخذوا أيمانهم سُتْرَةً يستترون بها أمام الناس ليصدّقوهم، وكلّما قل الإيمان أو عدم الإيمان في القلب حصل التهاؤن باليمين والحلف.

❁ قوله: (وقول الله عَزَّجَلْ: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾) لما ذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَفَّارَةَ الأَيِّمَانِ فِي سورة المائدة فِي قوله عَزَّجَلْ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩] جعل فِي اليمين الكفّارة إِذَا حَنَثَ فِيهَا وَخَالَفَهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهَا؛ لِأَنَّ الكفّارة لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ فِيهِ الْإِنْسَانُ، فَتَقْضِ الْيَمِينَ يَحْتَاجُ إِلَى كَفّارَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الْيَمِينِ.

ثم قال: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فسرّها العلماء عَلَى قولين:
الأول: أَنَّ هَذَا نَهْيٌ عَنِ الْحَلْفِ، فَلَا يَخْلِفُ الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا دَعَتْ إِلَى ذَلِكَ حَاجَةٌ، وَيَكُونُ صَادِقًا فِي يَمِينِهِ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرِضْ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ»^(١).
فَفِي قوله عَزَّجَلْ: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أَمْرٌ بِحِفْظِهَا يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنِ

الحلف إلا إذا دعت إلى ذلك حاجة، كأن يطلب منه القاضي اليمين لخصمه، فإذا كان باراً وصادقاً فليحلف على نفي ما ادّعاه عليه خصمه، أو دعت حاجة إلى اليمين ليُزيل شكوكاً حصلت لأخيه فيه، فيريد أن يبرئ نفسه وأن يُزيل ما في نفس أخيه بأن يحلف له وهو بارٌّ في يمينه، فهذا الحاجة، أمّا في غير ذلك فإنه يحفظ يمينه كما يحفظ دينه، ولا يتعمد اليمين الكاذبة.

الثاني: أن هذا نهى عن ترك الإيمان بغير تكفير، فإذا حلفت ثم حشمت في أيما نكاح فلا تتركوها دون تكفير.

والمعنى يشمل النهي عن كثرة الحلف، ويشمل النهي عن ترك اليمين إذا نُقضت بغير تكفير.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ مُمَحِقَةٌ لِلْبَرَكََةِ». أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ مُمَحِقَةٌ لِلْبَرَكََةِ». أَخْرَجَاهُ] أي: البخاري ومسلم، وأخرجه أبو داود والنسائي^(٢).

والمعنى: أنه قد يحلف على ثمن السلعة بزيادة على ما اشترت به أو سميت به، فيأخذها المشتري لظنه أنه صدق. وهذا وإن كان فيه زيادة فهو يمحى البركة، كما جاء في الحديث، والواقع يشهد بصحته، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، وإن تزخرت الدنيا للعاصي، فعاقبتها اضمحلال وذهاب.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث صحيح متفق على صحته، قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ مُمَحِقَةٌ لِلْبَرَكََةِ»، وهذا من باب الذم على كثرة الحلف.

❁ قوله: «الْحَلِفُ» يعني: اليمين، «مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ» النفاق: معناه الخروج، فالحلف يُخرج السلعة من يد صاحبها قبل أن تبور؛ لأنه حين يحلف يثق به المشتري ويأخذ سلعته ثقة بالحلف، فهو يتخذ اليمين وسيلة لنفاق السلع من عنده. وهذا يدل على تهاونه باليمين.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦)، وأبو داود (٣٣٣٥)، والنسائي (٦/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦)، وأبو داود (٣٣٣٥)، والنسائي (٦/٤).

❁ قوله: «مُمَحِّقَةٌ لِلْبَرَكَه» أي: إذا كان الحلف أدى إلى نفاذ السلعة من عنده، وحصوله على مطلوبه من عدم فساد السلع، إلا أنه لا تحصل له بركة في ذلك الكسب، فيكون كسبه لا بركة فيه. وماذا يستفيد إذا لم يكن هناك بركة؟! فمهما زاد بيعه وكثر فإنه لن يستفيد شيئاً إن لم يكن في بيعه بركة، وهذه عقوبة عاجلة من الله عَزَّجَلَّ، حيث عاقبه الله بعكس ما يريد، فقد كان يريد كثرة الكسب ولكن الله عاقبه بأن نزع البركة من كسبه، فصار لا فائدة فيه.

وهذا هو محل الشاهد من الحديث أن الله يمحى البركة من الكسب الذي نتج عن كثرة الحلف، وهذا وعيد يدل على تحريم كثرة الحلف.



وَعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أَشِيمُطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ بِضَاعَةً، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِبَيْمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِبَيْمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

قوله: [وَعَنْ سَلْمَانَ]، وسلمان: لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله، أسلم مقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي، وشرحيل بن السمط، وغيرهما. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ»^(٢)، «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنْ أَصْحَابِي أَرْبَعَةً: إِنَّ عَلِيًّا مِنْهُمْ، وَأَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ، وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ». أخرجه الترمذي^(٣). توفي سلمان في خلافة عثمان.

ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي.

قوله: «لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ»: هذا وعيد شديد في حقهم؛ لأنه قد تواتر أنه يكلم أهل الإيمان ويكلمونه في عرصات القيامة، والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة الكلام.

قوله: «وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»: هذا من تمام العقوبة عليهم، وفي هذا الوعيد الشديد ما يزجر من له عقل عن هذه الأعمال السيئة ونحوها.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٦/٦) رقم (٦١١١)، وفي الصغير (٨٢/٢) رقم (٨٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٧/٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٣/٢١)، والطبراني في الكبير (٦٠٤٠)، والحاكم في المستدرک (٦٩١/٣) من حديث عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧١٨).

قوله: «أُشِيطَ زَانٍ»: صغره تحقيرًا له، وذلك لأن داعي المعصية ضعف حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا محبته المعصية والفجور، وعدم خشيته لله. وكذلك: «عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» ليس له ما يحمله على الكبر، فدل على أنه خُلِقَ له، فعظمت العقوبة في حقه؛ لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميمة الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: «وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ بِضَاعَةً»: بنصب الاسم الشريف، يعني: اليمين بالله عَزَّجَلَّ، جعله بضاعة له لكثرة استعماله.

... — الشَّيْخُ — ...

قوله: (عَنْ سَلْمَانَ) الظاهر أنه سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ») هذه ثلاث عقوبات متتالية.

العقوبة الأولى: «لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ»؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ إِكْرَامًا لَهُمْ، يَكَلِّمُهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، وَيَكَلِّمُهُمْ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْجَنَّةِ. لَكِنْ هُنَاكَ مَنْ يُحْرَمُ هَذَا الْفَضْلَ الْعَظِيمَ، وَهَذِهِ النِّعْمَةُ الْجَلِيلَةُ، فَلَا يَكَلِّمُهُ اللَّهُ، وَمِنْهُمْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ.

وهذا فيه إثبات الكلام لله عَزَّجَلَّ، وأنه يتكلم إذا شاء كيف شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالكلام صفة من صفاته الفعلية الثابتة له، وفيه رد على الجهمية والمعتزلة الذين ينفون صفة الكلام عن الله عَزَّجَلَّ.

فالجهمية ومن أخذ برأيهم من المعتزلة يقولون: إن الله خلق الكلام في غيره، فكلام غيره كلام له!! تعالى الله عما يقولون، وعلى هذا يكون الكلام القبيح والكلام الفاحش كلاماً لله عَزَّوَجَلَّ، وكل ما يتكلم به الناس عند الجهمية فهو كلام الله؛ لأن الله هو الذي خلقه، والمعتزلة كذلك أخذوا برأي الجهمية، أما الأشاعرة فإنهم يثبتون الكلام النفسي، وأما الكلام الذي هو القرآن، يقولون: إنه حكاية عن كلام الله، حكاها جبريل أو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمعناه من الله وأما لفظه فإنه من جبريل أو من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!

وهذا كله كلام باطل، بل القرآن كلام الله، لفظه ومعناه من الله عَزَّوَجَلَّ، وكلامه سبحانه قديم النوع حادث الآحاد، بمعنى: أن نوع كلامه سبحانه قديم بقدمه جَلَّ جَلَالُهُ، ليس له بداية كسائر أفعاله، وحادث الآحاد بمعنى: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، ومن كلامه: القرآن الكريم.

العقوبة الثانية: «وَلَا يُزَكِّيهِمْ» التزكية معناها التطهير، أي: لا يطهرهم من الآثام والذنوب عقوبة لهم.

العقوبة الثالثة: «لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: عذاب موجه ومؤلم. فهذه عقوبات ثلاث على هؤلاء الثلاثة، مما يدل على خطورة أمرهم، فما سبب هذه العقوبات وهذا الوعيد الشديد؟ ومن هم هؤلاء الثلاثة؟
الأول: «أُسَيِّمُطُ زَانٍ» أسيمط: تصغير أشمط، وهو الذي بدأه الشيب، صغره تحقيراً له؛ لأن التصغير يأتي لأغراض منها التحقير، وهو المراد هنا، ويأتي أحياناً للتعظيم، أو التقليل^(١).

(١) قال أبو البقاء العكبري في اللباب (٢/١٥٨): «التصغير: التحقير، ويقع في الكلام على ثلاثة أضرب:

والزاني: هو الذي يفعل الزنى والعياذ بالله، والزنى جريمة كبيرة من كبائر الذنوب توعد الله عليه أشد الوعيد، وله آثار سيئة في المجتمع منها: ضياع الأنساب، وضياع الأخلاق، وانتشار الأمراض، ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. الفاحشة: ما تنهى قبحه وعظم خطره.

فالله عَزَّجَلَّ جعل الشهوة في بني آدم لمصلحة النسل، ولكنه سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى لم يتركها بدون تنظيم يضمن السلامة من آفاتهما، فهي شهوة عارمة لو تُرِكَت لصار لها آثار سيئة وقيحة، فشرع الله عَزَّجَلَّ الزواج بنكاح شرعي تنظيمًا لهذه الشهوة، حيث خلق للرجال أزواجًا من أنفسهم وأمرهم بالنكاح حماية لأعراضهم وأعراض النساء، وطلبًا للذرية التي فيها بقاء النسل.

فإذا أُهدرت هذه الطاقة، وصرفت في سبيل قبيح، لزم عليها أضرار كثيرة والعياذ بالله، منها: كثرة أولاد الزنى، وضياع الأنساب، وفي هذا جناية على المواليد حيث لا يُعرف نسبهم، فيعيشون عيشة الهوان لأنهم ليس لهم نسب، ومن أضرار الزنى أيضًا أنه يورث الأمراض الفتاكة الخبيثة مثل مرض الإيدز، الذي ينتشر غالبًا بين أناس يتعاطون الزنى، ويستمتعون بشهوة النكاح الاستمتاع غير المباح، والآن هذا المرض يهدد عددًا كبيرًا من المجتمعات التي

= ١- تحقير ما يتوهم عظيمًا، كقولك: رجيل.

٢- وتقليل ما يتوهم كثيرًا كدريهمات.

٣- وتقريب ما يتوهم بعيدًا، كقولك: قبيل العصر، وبعيد الفجر.

وقال الكوفيون في كلامهم: تحقير التعظيم كقول الشاعر من الطويل:

وَكُلُّ أَنْاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوبِيهَةً تَصْفُرُ مِنْهَا الْأَنَامِلُ

انتشرت فيها الفاحشة، وقد استعصى على الأطباء علاجه حتى الآن، عقوبة من الله عَزَّجَلَّ، ولهذا وصف الله عَزَّجَلَّ الزنى بقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ولما نهى عنه قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ﴾ ولم يقل: لا تنزوا، فنهى عن الأسباب الموصلة إلى الزنى، فكيف بالزنى نفسه؟! وقطع الأسباب الموصلة إليه لقبحه، فأمر بالحجاب ونهى عن السفور، ونهى عن خلوة الرجل بالمرأة التي لا تحل له، ونهى عن سفر المرأة بدون محرم، ونهى عن الاختلاط بين الرجال والنساء؛ لأن كل ذلك وسيلة إلى الزنا، فسد الطرق التي تفضي إلى الزنى.

ثم رتب الله عَزَّجَلَّ الحد على الزنى إذا ثبت بالبينة أو بإقرار الزاني، فإن كان بكرًا لم يسبق له الزواج، أو وطئ زوجة بنكاح غير صحيح، فهذا يُجلد مائة جلدة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، فأمر بجلده مائة جلدة، وأن يكون هذا علانية يراه الناس، فضيحة له، وردعًا له ولغيره، ونهى عن التساهل في إقامة الحد بقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

أما إن كان الزاني ثيبًا، وهو من سبق أن وطئ زوجة بنكاح صحيح، فهذا يُرجم بالسنة المتواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولًا وفعلًا، وبالقرآن الذي نُسخ لفظه وبقي حكمه^(١).

(١) أخرج البخاري (٦٨٢٩، ٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، قَرَأَهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، =

كل هذا يدل على شناعة هذه الجريمة القبيحة، فالزنى جريمة قبيحة متناهية في القبح، سماه الله فاحشة من كل أحد، ولكن إذا كان الزنى ممن شاب وظهر عليه الشيب فهو أقبح؛ لأن ظهور الشيب عليه يدل على ضعف شهوته، وكونه يزنى في هذه السن فهذا دليل على أن الزنى غريزة وطبيعة فيه، لا من أجل غلبة الشهوة، فزناه أقبح من زنى الشاب؛ لأن الشاب قد تغلبه الشهوة لكن هذا ليس عنده داعي للزنى لأنه كبير السن، ولذلك صار عليه هذا الوعيد: «لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

الثاني: «عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، الكبر: حرام وكبيرة من كبائر الذنوب، والله لا يحب المستكبرين، والكبر: هو التعاضم على الناس، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكِبْرُ بَطْرٌ أَحَقُّ» يعني: دفع الحق ورده «وَعَمَطُ النَّاسِ»^(١) يعني: تنقص الناس.

= فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبْلُ، أَوْ الْإِعْتِرَافُ.

وأخرج النسائي في الكبرى (٢٧١/٤)، وأحمد في المسند (١٣٢/٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣٦٥/٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٧٣/١٠)، والطبراني في الأوسط (٣٣٢/٤)، والحاكم في المستدرک (٤٥٠/٢)، والبيهقي في الكبرى (٢١١/٨) عن أبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ سُورَةُ الْأَحْزَابِ تُوَاظِي سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَكَانَ فِيهَا الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُوهُمَا الْبَتَّةَ».

وانظر أقوال أهل العلم في حكم «الشيب الزاني»، في: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨٩/١١)، وتفسير ابن كثير (٤٦٣/١)، وفتح الباري (١٢٠/١٢)، وعمدة القاري (٢٩١/٢٣)، وفيض القدير (٤٣٤/٣)، وسبل السلام (٥/٤)، ونيل الأوطار (٢٥٥، ٢٥٤/٧).

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالذي يدفع الحق ويرده ولا يحبه، والذي يترفع على الناس ولا يخالطهم، ولا يخرج معهم، هذا فيه كبر؛ لأنه يرى نفسه عظيمًا كبيرًا فوق الحق وفوق الناس.

والواجب عليه أن يتواضع لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا بلغه الحق من كتاب الله أو سنة رسوله قبله على الرأس والعين؛ لأنه عبد مأمور ومنهي، كما يجب عليه أن يتواضع لإخوانه المسلمين، ويلين لهم، ويعاملهم بما يجب أن يعاملوه به. فالكبر مذموم، ولو كان صاحبه ذا مكانة وحسب ونسب بين قومه، فإذا كان ممن ليس عنده سبب للكبر كان أشد إثمًا، ولذلك رُتِبَ عليه هذا الوعيد الشديد، ومن هؤلاء الذين ليس عندهم سبب للكبر: «العائل» أي: الفقير، فهذا ليس عنده شيء يحمله على الكبر، فدل على أن الكبر غريزة وسجية فيه ليس له سبب، فهذا تكبره أشد من تكبر الغني؛ لأن تكبر بدون سبب، أما الغني فتكبره بسبب وهو كثرة المال عنده وإن كان الكبر محرماً في حق الاثنين، لكن تحريمه في حق الفقير أشد.

الثالث - وهو محل الشاهد للباب -: «رَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ بَضَاعَةً» أي: جعل الحلف بالله بضاعته، «لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ»، وهذا عام للرجال والنساء، ولكن ذكر الرجال من باب التغليب، فالذي يستعمل اليمين في بيعه وشرائه ويكثر منها هذا دليل على تهاونه بها، وهذا نقص في توحيده، فكان جزاؤه هذه العقوبات الثلاث: «لَا يَكْلِمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزْكِيهِ، وَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

.....

فيجب على المسلم أن يصدق في معاملاته مع الناس في بيعه وشرائه، وأن يقلل من الأيمان تعظيماً لها، ولا يحمله حب ترويج سلعته على أن يكثر من الحلف للزبائن؛ لأن هذا دليل على عدم احترامه لليمين بالله عزَّ وجلَّ، وأنه أثر الدنيا على الآخرة. وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب.



وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ فَلَا أَدْرِي: أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ».

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ بِمِينَةٍ، وَبِمِينَةٍ شَهَادَتُهُ»^(١).

قوله: [وَفِي الصَّحِيحِ] أي: صحيح مسلم، وأخرجه أبو داود، والترمذي، ورواه البخاري بلفظ: «خَيْرُكُمْ»^(٢).

قوله: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي»: لكثرة الخير فيهم وقلة الشر، وشدة الإنكار على من خالف الحق وابتدع؛ كالخوارج، والقدرية، والجهمية، ونحوهم.

«ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»: فَضَّلُوا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ؛ لظهور الإسلام فيهم، وكثرة العلم والعلماء، وأما القرن الثالث فظهرت فيهم البدع، لكن أنكرها العلماء، وتصدى كثير منهم لإنكارها والرد على من قالها، وهم كثيرون.

قوله: (فَلَا أَدْرِي: أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟): هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥)، وأبو داود (٤٦٥٧)، والترمذي (٢٢٢١).

ثم ذكر ما وقع بعد الثلاثة من الجفاء في الدين، وكثرة الأهواء، فقال: «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ»؛ لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحريمهم الصدق، وكذلك لقلّة دينهم، وضعف إسلامهم.

قوله: «وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ»: يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم.

«وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَنْفُونَ» أي: لا يؤدون ما وجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم، وعدم إيمانهم.

قوله: «وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ»؛ لرغبتهم في الدنيا وشهواتها، وقلة الإيمان باليوم الآخر، وفي حديث أنس: «لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ»، قال أنس: سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

فما زال الشر يزداد في الأمة، حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم، حتى فيمن انتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف، فحدث التفرق والاختلاف في الدين، وحدث الغلو في أهل البيت من بني بويه في المشرق لما كان لهم دولة، وبنوا المساجد على القبور، وغلوا في أربابها، وظهرت دولة القرامطة، وظهر فيهم الكفر والإلحاد في شرائع الدين، ومذهبهم معروف، وظهر فيهم من البدع ما يطول عدّه، وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين، وما زال أهل السنة على الحق، ولكن كثرت البدع والأهواء، حتى عاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

قوله: [وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوتُهُمْ» الحديث. في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة من غير شك. قوله: «ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ...» إلخ: وذلك لضعف الإيمان، والرغبة في الدنيا، وأخذها بالقلوب، وكثرة المعاصي والذنوب.

... — الشَّيْخُ — ...

هذان الحديثان: حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أطلعه الله عليه من الغيب المستقبل - وهذا من علامات نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي» أي: خير هذه الأمة القرن الذي فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم الصحابة. والقرن: يُراد به الجماعة أو الأمة من الناس الجيل، ويُراد به الجيل من الناس، ويطلق القرن - أيضًا - على الزمان، فيقال: قرن من الزمان، يعني: مائة سنة من الزمان، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي» أي: الصحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا دليل على فضل الصحابة، وأنهم أفضل القرون، ولا أحد يلحق بهم في الفضل مهما عمل من الأعمال؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَتَفَقَّ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١)، وذلك لسابقتهم في الإسلام، وصحبتهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجهادهم معه، ففضائلهم لا يناها أحد بعدهم. وهم الذين تلقوا القرآن، وتلقوا السنة،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتلقوا هذا الدين عن رسول الله ﷺ، ثم بلغوه لمن بعدهم بأمانة وإخلاص، وهم الذين حملوا الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها بعد وفاة الرسول ﷺ، وجاهدوا في سبيل الله وفتحوا الفتوح والأمصار، فلا يجبههم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا كافر أو منافق.

قال عز وجل: ﴿ثُمَّ حَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّ عَلَى الْكَافِرِ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ طَرَبُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكَافِرَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ يُغْفَرُ لَهُمْ أَسْءَلُوا وَعَمِلُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَوَسِّلُونَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] هذا في المهاجرين، ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهم يتفاضلون فيما بينهم ﷺ، لكن هم بالجملة لا أحد يساويهم في الفضل.

وهذا فيه دليل على فضل الصحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل من صحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله هذا الفضل، وله هذه الخيرية، وأنه خير ممن جاء بعده، ولكن هم يتفاضلون فيما بينهم لا شك، فالمهاجرون أفضل من الأنصار، وأهل بدر أفضل من غيرهم، وأهل بيعة الرضوان، وأهل فتح مكة، والخلفاء الأربعة أفضل من غيرهم، وبقية العشرة الذين شهد لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدخول الجنة أفضل من غيرهم، أما بالنسبة لغيرهم فلن يلحقهم أحد من الأمة، مهما بلغ من العمل والصلاح.

❁ قوله: «ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ» وهم قرن التابعين الذين أدركوا أصحاب رسول الله وتعلموا عليهم، فالتابعون يأتون بعد الصحابة في الفضيلة «ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ» وهم أتباع التابعين؛ لأنهم أدركوا التابعين وأخذوا عنهم، ولأن هذه القرون لم تظهر فيها البدع والمحدثات، بل كانت السنة ظاهرة، وإذا حدث بدعة أنكروها، وكانت البدع خفية في زمانهم مقهورة، والسنة ظاهرة في عهدهم، وإنما انتشرت البدع والشرور بعد القرون المفضلة.

❁ قال عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَلَا أُدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟) يعني: شك عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هل تكون القرون ثلاثة - الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين - أم هي أربعة قرون؟ المتيقن منه أنها ثلاثة القرون، لكن هل هناك قرن رابع؟ الله أعلم، هذا لم يثبت.

وحديث ابن مسعود أيضًا مثل حديث سلمان في الثناء على القرون المفضلة: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ» هذا يؤكد

أن القرون ثلاثة، فهذان الحديثان يدلان على فضل القرون الثلاثة: قرن الصحابة، ثم يليه قرن التابعين، ثم يليه قرن أتباع التابعين، فهو لاء هم القدوة للأمة وهم السلف الصالح، ومن جاء بعدهم وسار على نهجهم فإنه لاحق بهم، ومن خالفهم فإنه يكون متخلفاً عنهم.

فهذا فيه فضل السلف على الخلف في العلم والعمل والاتباع، ففيه رد على المتكلمين وأهل الأهواء الذين يقولون: إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم!!^(١) وهذا غلط، فالسلف أعلم قرون هذه الأمة وأحكمها، وهم أسلمها؛ لأن السلامة لا تكون إلا مع العلم، وهذا الذي يقول هذه المقالة يناقض نفسه؛ لأن السلامة لا تحصل إلا مع العلم، فالسلف أسلم وأعلم وأحكم ممن جاء بعدهم، لثناء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم، وشهادته لهم بالخيرية المطلقة، فالذي يقول: إن الخلف أعلم من السلف، هذا كذاب ومخالف لقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد صنف الحافظ ابن رجب رسالة مستقلة سماها «فضل علم السلف على علم الخلف»، وهي رسالة جيدة في الموضوع.

❦ قال: «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ» بعد مضي القرون المفضلة يأتي أناس تتغير أحوالهم عن حالة السلف؛ لأن بعد القرون المفضلة ظهرت البدع وظهر الأشرار والنفاق، وإن كانت القرون كلها لا تخلو

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/١٥٧)، والصواعق المرسلة (٣/١١٣٣).

من الخير؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»^(١). فالخير موجود - والله الحمد - في الأمة وإن كثر الشر بعد القرون المفضلة.

❁ قوله: «يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ» وفي حديث ابن مسعود: «تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ» هذا من التساهل في الأيمان والشهادات، وهذا دليل على نقص توحيده، وكونه يشهد قبل تُطلب منه الشهادة فهذا دليل على جرأته على الشهادة؛ إذ لو كان متحفظاً وخائفاً لم يبادر بالشهادة حتى تُطلب منه، فإذا طُلبت منه فإنه يجب عليه أداء الشهادة؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، هذا إذا طُلبت منه، وعنده شهادة يعلمها وصحيحة، أما إذا لم تُطلب منه فلا يبادر بها؛ لأنه إذا بادر بها من غير الطلب، كان ذلك دليلاً على تساهله بها.

❁ قوله: «وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ» أي: تظهر فيهم الخيانة وهي عدم الأمانة، فالأمانة في السلف في صدر الأمة متوفرة، ولكن بعدهم تقل الأمانة وتفسو الخيانة: الخيانة في المعاملة، والخيانة في العهود، والخيانة في حفظ الأسرار، وغير ذلك، والخيانة كبيرة من كبائر الذنوب، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال عَزَّجَلَّ في صفة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

والأمانة: كل ما استحفظ عليه الإنسان من مال أو سر أو استشارة أو غير ذلك، فالودائع التي تودع عند الإنسان هذه أمانة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. هذه الآية نزلت في الولايات، يأمر الله عَزَّجَلَّ ولاة الأمر أن ينيطوا المسؤوليات بالمتأهلين لها الذين يقومون بها، وهي عامة في جميع الأمانات، حتى الودائع تدخل في هذا. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(١).

فهؤلاء الذين يأتون بعد القرون المفضلة تقل فيهم الأمانة، وتكثر فيهم الخيانة، حيث يتساهلون في الأمانات، ويتخذون الأمانة مغنماً ولا يعظمون شأن الأمانات؛ كما في حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: متى الساعة؟ فقال: «ذَلِكَ عِنْدَ حَيْفِ الْأَثَمَةِ، وَتَصْدِيقِ الْبَلْجُومِ، وَتَكْذِيبِ بِالْقَدَرِ، وَحِينَ تُتَّخَذُ الْإِمَامَةُ مَغْنَمًا، وَالصَّدَقَةُ مَغْرَمًا وَالْفَاحِشَةُ زِيَادَةً»^(٢)، وهذا شيء ظاهر في الناس، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ الْأَمَانَةَ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْهُ الصَّلَاةُ»^(٣)، وهذا من علامات الساعة تغلب الأهواء والشهوات على الأمانة.

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، والدارمي في سننه (٣٤٣/٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٦٠/٤)، والطبراني في الأوسط (٥٥/٤)، والحاكم في المستدرک (٥٣/٢)، والدارقطني في سننه (٣٥/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٧١/١٠) وشعب الإيمان (٣١٩/٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البزار في مسنده (١٤٥/٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٦٣/٣)، وابن أبي شيبه في مصنفه (٢٥٦/٧)، والطبراني في الكبير (٨٦٩٩، ٨٧٠٠)، والحاكم في المستدرک (٥٤٩/٤)، والبيهقي في الكبرى (٢٨٩/٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والخيانة في الأمانة من صفات المنافقين؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا افْتُمِنَ خَانَ»^(١)، فالخيانة في الأمانة سواء أكانت هذه الأمانة مالا أم كانت سرا من الأسرار أم كانت عملا من الأعمال، كالموظف الذي يوكل إليه أن يقوم بعمل فيخون فيه، والمقاول الذي تعهد بإقامة عمل أو مشروع من المشاريع فخان فيه وغش فيه، فالخيانة قد تكون في الأموال وقد تكون في الأسرار التي يؤتمن عليها، إما من الأفراد وإما من ولاة الأمور، وكذلك تكون الأمانة في الأعمال والعهد التي يتعهد بها، فيجب عليه أن يفي بما التزم به وما عهد إليه القيام به، سواء أكان عملا وظيفيا أم كان عملا مهنيا، أم غير ذلك، فيجب على العبد أن يكون أميناً فيما أوتمن عليه، فإن خان فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَعَّدُ الخائنين، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] إلى غير ذلك من الآيات التي تعظم من شأن الأمانة، وتأمر بحفظها وأدائها كما تحمّلها الإنسان.

فأمر الأمانة أمرٌ عظيم، وصدرُ هذه الأمانة كانوا أمناء، لكن يجيء بعدهم قومٌ يخونون في أماناتهم، وهذا من علامات الساعة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❖ قوله: «وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ» أي: يندرون الطاعات والعبادات ولا يوفون بها، بل يستثقلونها ويتهاونون بالنذر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ، فَلْيُطِعهُ»^(١)، وقال عَزَّجَلَّ يمدح المؤمنين: ﴿يُؤْفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]. فإذا نذر الإنسان طاعة فإنه يجب عليه الوفاء بالنذر، فإن كان يندر ولا يوفي بنذره فهذا من هذا الصنف الذي وصفهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم يندرون ولا يوفون، وقد قال الله عَزَّجَلَّ في صفات المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٧٥ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦]، فدل على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة، وإن كان نذر معصية فلا يجوز الوفاء به، بل يجب تركه؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ، فَلَا يَعْصِهِ»^(٢)، فإن كان نذرًا مباحًا فهذا يُخير بين فعله والكفارة: إما أن يفعل المباح وإما أن يكفر عن يمينه.

❖ قوله: «يُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ» مع هذه الصفات الذميمة يظهر فيهم السمن؛ لأنهم يكون عندهم رغبة في الدنيا والأكل والشرب والرفاهية، وينسون الآخرة، ولا يتعبون أنفسهم بالجهاد والصيام والصلاة والتهجد

(١) سبق تخريجه (١/ ٥٥٤).

(٢) سبق تخريجه (١/ ٥٥٤).

بالليل، ولا يكون عندهم نصب في العبادة وتعب في الطاعة كما كان عند الصالحين، فلذلك يظهر فيهم السمن، فالسمن صفة ذم إذا كان سببه الرفاهية والتكاسل عن العبادات.

الشاهد من الحديث: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ»، وقوله: «يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ» فهذا دليل على تساهلهم في اليمين والشهادة، وهذا نقص في التوحيد، ولذلك أورده المصنف في هذا الباب.



وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «وَكَاثُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ، وَنَحْنُ صِغَارٌ»^(١).

قوله: [وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «وَكَاثُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ، وَنَحْنُ صِغَارٌ»]: هكذا حال السلف الصالح، محافظة منهم على الدين الذي أكرمهم الله به، فلا يتركون شيئاً مما يكره إلا أنكره. وفيه تمرين الصغار على دينهم بالتعليم.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال إبراهيم النخعي من كبار التابعين، ومن تلاميذ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأحد رواة حديث ابن مسعود الذي سبق: (كَاثُوا يَضْرِبُونَنَا) أي: كان السلف الصالح يضربون الصبيان الصغار (عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ) إذا شهد الصبي ضربه من أجل أن يتجنب الشهادة، وإذا حلف ضربه من أجل أن يتجنب اليمين ويعظمها، ويعرف أن اليمين لها حرمة، والشهادة لها حرمة، فلا يتساهل فيهما، وهذا من أجل تربية النشء.

ففي هذا الأثر دليل على مشروعية الضرب لأجل التربية والتأديب، فإذا حصل من الصغير مخالفة فإن وليه له أن يضربه إذا رأى أن النهي بالقول فقط لا يكفي؛ لأنه قد لا يدرك معنى النهي، فإذا ضربه أدرك معنى الألم وعرف أنه أخطأ فلا يعود ثانية إلى هذا الشيء ويكرهه، فيغرس الكراهة في قلبه للأشياء المخالفة، فدل هذا على أن الضرب وسيلة من وسائل التربية، لا كما يزعم الأوربيون ومن تتلمذ عليهم من أن الضرب لا يجوز، وأنه قسوة

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣) موصولاً بإسناد حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأنه .. وأنه .. إلى آخره، بل الضرب وسيلة قوية لتربية الأولاد، لكنه يكون ضرباً يتناسب مع الأولاد، لا يكون ضرباً مبرحاً.

والله عَزَّجَلَّ جعل للزوج أن يضرب زوجته إذا نشزت: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ﴾ [النساء: ٣٤]، هذا أيضاً من التربية، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا بَعَثَ»^(١)، فجعل الضرب على ترك الولد للصلاة في سن العاشرة؛ لأنه قارب البلوغ، فالضرب في الإسلام مشروع لأجل التربية والتأديب، وليس هو من الوسائل الوحشية، بل هو من وسائل الرحمة للطفل.

ويقول الشاعر في ذلك:

اضْرِبْ وَلِيدَكَ تَأْدِيبًا عَلَى رَشْدٍ وَلَا تَقْلُ هُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلَمٍ
فَرَّبْ شَقَّ بَرَأْسٍ جَرَّ مَنْفَعَةً وَقَسْ عَلَى شِقِّ رَأْسِ السَّهْمِ وَالْقَلَمِ^(٢)

فالوالد يرحم ولده، لكن يضربه عند المخالفة ولا يتنافى هذا مع رحمته، بل هذا من رحمته؛ لأنه يؤدبه ويجنبه ما يضره.



(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد في المسند (١٨٠ / ٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٤ / ١)، والحاكم في المستدرک (٣١١ / ١)، والبيهقي في الكبرى (٢٢٨ / ٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) هذه الأبيات للشاعر المشهور أبي العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، توفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة، قال عنه الذهبي: «صاحب التصانيف المشهورة، والزندقة الماثورة، والذكاء المفرط، والزهد الفلسفي، جُدر وهو ابن ثلاث سنين فذهب بصره، ولعله مات على الإسلام وتاب من كفرياته وزال عنه الشك». انظر: العبر (٢٢٠ / ٣)، والوافي بالوفيات (٧١ / ٧)، ومعاينة التنصيص (١٤٢ / ١).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: الوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الْإِيْمَانِ.

الثَّانِيَةُ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الْحَلْفَ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ، مَحَقَّةٌ لِلْبَرَكَةِ.

الثَّالِثَةُ: الْوَعْدُ الشَّدِيدُ فِي مَنْ لَا يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِإِمِينِهِ.

الرَّابِعَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قَلَّةِ الدَّاعِي.

الخَامِسَةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَخْلِفُونَ وَلَا يُسْتَحْلِفُونَ.

السَّادِسَةُ: ثَنَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ، أَوِ الْأَرْبَعَةِ، وَذِكْرُ

مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

السَّابِعَةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ.

الثَّامِنَةُ: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصَّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (الأولى: الوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الْإِيْمَانِ)؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَحْفَظُوا

أَيْمَانَكُمْ﴾ هذه وصية من الله بحفظ الأيمان وعدم الإكثار من الحلف، وعدم ترك الحلف بدون كفارة.

❁ قوله: (الثَّانِيَةُ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الْحَلْفَ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ، مَحَقَّةٌ لِلْبَرَكَةِ)؛

لأن العبرة بالبركة لا بكثرة المال، فربما كان المال قليلاً وفيه بركة، وربما كان كثيراً وليس فيه بركة، ولا ينتفع منه صاحبه، وهذا شيء مشاهد.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِي مَنْ لَا يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ) النهي أو التحذير من يستعمل اليمين لترويج السلع، يحلف عليها ليغر الزبائن، والتاجر الصدوق يعرفه الناس فلا يحتاج أن يحلف، ولا يحلف غالباً إلا الذي يريد أن يستعيد مكانته عند الناس.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي) مثل: «أُشْمِطُ زَانٍ» هذا ما عنده داع للزنى، لكن إقدامه على الزنى يدل على رغبته فيه، كذلك «العائل المستكبر»، وهو الفقير الذي ليس عنده شيء يحمله على الكبر، لكن هذا يدل على أن الكبر متأصل في نفسه بلا سبب.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَخْلِفُونَ وَلَا يُسْتَحْلَفُونَ) يعني: يحلفون قبل أن يُطلب منهم اليمين، ولو كان يخاف الله لا امتنع من اليمين حتى تُطلب منه.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: ثَنَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ، أَوِ الْأَرْبَعَةِ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ) ثناؤه على القرون المفضلة لما فيها من الخير، وذكر ما يحدث بعدها من باب التحذير للناس، حتى إذا ظهرت الفتن ثبتوا على دينهم.

❁ قوله: (السَّابِعَةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ) يعني: يشهدون قبل أن يُطلب منهم الشهادة، هؤلاء مذمومون؛ لأن شهادتهم قبل الطلب دليل على تساهلهم في الشهادة.

❖ قوله: (الثَّامِنَةُ: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ)
أنهم يستعملون الضرب للتأديب، وفيه أنهم يعظمون الشهادة والعهد حتى
إنهم يضربون الأطفال عليها تعظيماً للشهادة واليمين.



٦٢- بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية]: قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر الله عَزَّجَلَّ به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع.
قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]: تهديد ووعيد.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ) الذمة: هي العهد، قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] الإل: يعني القرابة، والذمة: العهد، (ذِمَّةُ اللَّهِ): عهد الله، (وذمةُ رسوله): عهد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ وقوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ) أي: من المنع من إعطاء ذمة الله وذمة رسوله، وهذا الباب مثل الأبواب السابقة في الأيمان؛ لأن العهد من الأيمان، لكنه يمين خاص، ولذلك أفرد المصنف في هذا الباب؛

لأن الاستهانة بذمة الله وذمة رسوله نقص في التوحيد، والوفاء بذمة الله وذمة رسوله إكمال للتوحيد.

❦ قوله: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾) الآية أي: ومعنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، هذا أمر من الله عَزَّوَجَلَّ للوفاء بعهد الله، فإذا عاهد المسلم عهداً فإنه يجب عليه الوفاء بعهد؛ لأن الوفاء بالعهد من احترام حق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ونقض العهد من تنقص حق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى. ومن صفات المؤمنين الوفاء بالعهد، ومن صفات المنافقين الغدر بالعهد، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ»^(١)، وجاء الوعيد الشديد على الغدر في العهود؛ كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِيَوَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فَلَانٍ بِنِ فَلَانٍ»^(٢). تشهيراً به.

فالواجب على المسلمين الوفاء بالعهود والأيمان والعقود؛ لأن الإسلام دين وفاء وليس دين غدر وخيانة، فإذا عاهد الإنسان ربه وجب عليه الوفاء، أو عاهد إماماً من أئمة المسلمين فإنه يجب عليه الوفاء بالعهد مع الإمام، وليس بلازم عقد العهد للإمام أن كل واحد يعاهد، بل إذا عاهد أهل الحل والعقد لزم البقية الوفاء؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُوا دِمَائِهِمْ، وَهُمْ

(١) سبق تخريجه (٤٢٣/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٨، ٦١٧٧، ٦١٧٨)، ومسلم (١٧٣٥).

يَدَّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ»^(١)، فإذا تمت البيعة للإمام من أئمة المسلمين وجب على الرعية جميعاً الوفاء بهذا العهد؛ لأنهم أمة واحدة. وكذلك العهد الذي يكون بين المسلمين والكفار يجب الوفاء به، ولا يجوز نقضه قبل تمامه إلا إذا هم نقضوه أو أخلوا بشروطه، فحينئذ يكون المسلمون في حلٍّ من عهدهم، أما إذا وفوا بعهدهم ولم ينقضوه وجب على المسلمين الوفاء لهم بالعهد حتى تنتهي مدته. وهذا في حق الإمام وفي حق الرعية.

وكذلك العهود التي بين الناس بعضهم مع بعض يجب الوفاء بها، ولا يجوز التهاون في العهود والمواثيق والعقود؛ لأن قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ هذا عام في جميع العهود، سواء كان عهدكم مع إمام، أو كان عهدكم مع الكفار، أو كان عهدكم فيما بينكم، فيجب الوفاء بالعهد.

﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ المراد بالأيمان هنا: العهود؛ لأن الأيمان التي هي الحلف سبق أن فصلنا القول فيها، وبيننا أنه إذا كان الأفضل نقضها فإنها تُنقض، فإذا حلف العبد على ترك شيء، وظهر له أن فعله خير، فإنه يفعل ويكفر عن يمينه، وإذا حلف على فعل شيء، وظهر له أن فعله شر، فإنه يتركه ويكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير. أما الأيمان هنا فإن المراد بها العهود، وليس المراد بها الحلف.

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد إبرامها وتتمامها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الواو للحال، أي: والحال أنكم إذا عاهدتم فقد

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (٢٠٨/٥)، وأحمد في المسند (١/١١٩)، والحاكم في المستدرک (٢/١٥٣) وصححه، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جعلتم الله عليكم كفيلاً، فلا تخونوا العهد، فإن الله هو الكفيل به سيتولى عقوبة من نقضه؛ لأن الناس إنما وثقوا بكم لأنكم عاهدتم بالله عزَّوجلَّ، فإذا ختم العهد فقد تنقصتم حق الله سبحانه وتعالى.

والشاهد من الآية: قوله عزَّوجلَّ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾؛ لأنه دل على عدم جواز نقض العقود والمواثيق من غير مسوغ شرعي.



وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا...».

قوله: [عَنْ بُرَيْدَةَ]: هو ابن الحصيب الأسلمي، وهذا الحديث من رواية ابنه سلمان عنه.

قوله: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ): فيه من الفقه تأمير الأمراء ووصيتهم. قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها، والجيش: ما كان أكثر من ذلك^(١). وتقوى الله: التحرز من عقوبته بطاعته.

قوله: (وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا) أي: ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيرًا، من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاضم عليهم.

... — الشَّيْخُ — ...

قوله: (عَنْ بُرَيْدَةَ): ابن الحُصَيْبِ الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صحابي جليل، قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعني: كانت سيرته (إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ) لقتال الكفار (أَوْ سَرِيَّةٍ) والسرية: هي القطعة من الجيش. هذا دليل على أن الجهاد من صلاحيات إمام المسلمين، هو الذي يأمر به، وهو الذي يجند الجنود من أجله، ويختارهم ويؤمر عليهم أُميرًا، ولا يتركهم يذهبون بدون أمير يرجعون إليه في حل مشكلاتهم، فالإمام هو الولي العام، والأمر على الجيش أو السرية هو ولي خاص، فتجب على الجيش وعلى السرية طاعة

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٣٧/١٢).

أميرهم؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيَتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِدَلِّكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٢)، وهذا فيه عموم. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ»^(٣)، سواء إمارة عامة أو إمارة خاصة يجب السمع والطاعة.

فهذا فيه أن تنظيم الجهاد من صلاحيات ولي الأمر، وأنه هو الذي ينظم الجيوش والسرايا، وفيه دليل على تأمير الأمراء على الجيوش، بل إن المسافرين إذا سافروا فإنه يُشَرع لهم أن يأمرُوا أميرًا ينهي نزاعاتهم وخلافاتهم.

❁ قوله: (أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا) هذا فيه أن ولي الأمر إذا أمر الأمير على الجيش أو السرية فإنه يوصيه بتقوى الله، وهي فعل أوامر الله وترك نواهيه؛ لأن الأمير قدوة، فيكون قدوة حسنة، فيرفق بمن معه من المسلمين، وينظر في مصالحهم، ويدفع الضرر عنهم، ولا يعتنهم أو يشق عليهم. هذه مهمات الأمير مع الجيش.



(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥، ١٨٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٢٦/٤)،

والدارمي (٩٥) من حديث العرابض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا...».

قوله: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ» أي: اشرعوا في الغزو مستعينين بالله مخلصين له، فتكون الباء في «بسم الله» للاستعانة بالله والتوكل عليه هنا.

قوله: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ»: هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين من أهل الكتاب وغيرهم، واستثنى منهم من له عهد، وكذلك الذراري والأولاد والنساء والرهبان، فلا يُقتلون.

قوله: «وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا»: الغلول: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها. قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]. والغدر: نقض العهد. والتمثيل هنا: التشويه بالقتل، كقطع أنفه وأذنه، والعبث به.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «اغْزُوا» الغزو هو: قصد العدو والذهاب إليهم، «بِاسْمِ اللَّهِ» أي: مستعينين بالله، وهذا فيه: بداءة الأمور المهمة باسم الله، وأن الإنسان إذا بدأ بشيء فإنه يبدأ باسم الله، فإذا شرع في السفر، أو شرع في الغزو، أو شرع في الأكل أو الشرب، أو الدخول في البيت أو المسجد، وحتى الدخول في محل قضاء الحاجة يقول: (بِاسْمِ اللَّهِ) قبل الدخول؛ لأن هذا الاسم يعصمه من الشيطان، وتنزل عليه وعلى عمله وعلى فعله الرحمة والبركة، كما يذكر اسم الله على الذبائح عند التذكية، بل جاء في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ

فيه باسم الله فهو أبتر»^(١) أي: ناقصُ البركة. فتبدأ الرسائل والمؤلفات باسم الله، وتبدأ به الدروس والنصائح، وتبدأ به سورة القرآن الكريم - ما عدا سورة براءة - فدل على أنها كلمة عظيمة، يُبدأ بها مهام الأمور.

❁ قوله: «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» يعني: أن الغزو لا يكون لطلب الملك، أو لطلب المال، أو للتسلط على الناس، هذا شأن أهل الجاهلية، إنما يكون الغزو لمصالح الناس، وليس للانتقام منهم إذا لم يصرُّوا على الكفر، وإنما هي لمصالحهم، لأجل إنقاذهم من الكفر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فالقصد من الغزو: إعلاء كلمة الله سُبحَّانَهُ وَتَعَالَى، والمصلحة في هذا عادة إلى المغزوين، وإلى الغازين أيضًا، فالغازون يكون لهم أجر الجهاد في سبيل الله، وأجر الشهادة والغنيمة، والمغزوون يكون لهم إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإسلام.

❁ قوله: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ» القصد من الغزو هو: قتال الكفار، لكفرهم؛ لأن الله خلق الناس لعبادته سُبحَّانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والمصلحة في العبادة راجعة إليهم؛ لأنهم إذا عبدوا الله أكرمهم الله سُبحَّانَهُ وَتَعَالَى في الدنيا والآخرة، أما إذا عبدوا غير الله فقد ضرُّوا أنفسهم.

فالمقصود من الغزو في الإسلام هو: إزالة الكفر، وإحلال التوحيد محلَّه، وليس المقصود من الغزو الاستيلاء على البلاد، أو أخذ الأموال، أو

توسيع الملك، أو ما أشبه ذلك، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وهذا فيه دليل على أنّ الجهاد يكون بالغزو والهجوم على الكفار في ديارهم بعد دعوتهم إلى الإسلام، وليس المقصود منه الدفاع عن ديار الإسلام - كما يقول بعض الكتّاب العصريين - إنّما المقصود من الجهاد: إزالة الكفر والشرك من الأرض. أمّا الدفاع الذي يزعمونه فمعناه: أنّنا نبقى في ديارنا، فإن جاؤونا دافعناهم، وإن تركونا تركناهم. وهذا باطل لم يأت به الإسلام، إنّما كان ذلك موجوداً في أوّل الإسلام حين كان المسلمون قلة، ولم يكن لهم دولة عندما كانوا في مكّة، كانوا منهيين عن القتال؛ لأنّ المفسدة فيه أعظم من المصلحة، لكن لما قوي المسلمون ووجدت دولة المسلمين في المدينة أمر الله المسلمين بالجهاد والغزو وقتال الكفار، فنقذ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغزاهم في ديارهم وفي بلادهم لنشر الإسلام، فما تُوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا والإسلام منتشر في معظم جزيرة العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقبل وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاتب ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وكان ذلك مقدّمة لجهادهم.

وجاء من بعده الخلفاء الراشدون، فواصلوا الجهاد الذي بدأه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى انتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ودخلت دولة الفرس ودولة الروم تحت حكم الإسلام، منهم من أسلم، ومنهم من خضع لبذل الجزية، وصارت الغلبة والظهور لدين الإسلام،

مصدقاً لقوله عزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، فتحقق وعدُ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وظهر دينُ الإسلام على الدين كله، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، بجهاد المجاهدين في سبيل الله.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اغزُوا» هذا تكرارٌ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتأكيد، «وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا» يرسم لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخُطَّة التي يسرون عليها في جهادهم، وهي خُطَّة العدل والإنصاف والرفق والحكمة.

❁ قوله: «وَلَا تَغْلُوا» الغُلُول هو: أن يأخذ شيئاً من الغنيمة قبل القسمة، والواجب أن تُجمع الغنيمة ثم تُقسَم حسب ما شرعه الله، قال عزَّجَلَّ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَأَيَّتِمَّىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فمن أخذ شيئاً منها بدون القسمة أو التنفيل الذي يمنحه القائد لبعض المجاهدين لمزية فيه، فقد غلَّ، والغُلُول كبيرة من كبائر الذنوب؛ لقوله عزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ففي يوم القيامة يأتي الغالُّ وقد حمل على ظهره ما أخذه في الدنيا، فضيحةٌ له في هذا الموقف العظيم؛ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ،

يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاخٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ»^(١).

والغَالُ يُوَدِّبُ بَأَن يُحْرِقُ رَحْلَهُ، والأَثَاثُ الذي معه؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وَجَدْتُمْ الرَّجُلَ قَدْ غَلَّ فَأَحْرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ»^(٢) من باب العقوبة بالمال، ولا يصلي عليه الإمام إذا مات، بل يتركه ليصلي عليه الناس^(٣)، من

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧١٣)، والترمذي (١٤٦١)، والحاكم في المستدرک (١٣٨/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠٢/٩) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٧١٠)، والنسائي في الكبرى (٦٣٦/١)، وابن ماجه (٢٨٤٨)، ومالك في الموطأ (٤٥٨/٢)، وابن أبي شيبه في مصنفه (٥٢٥/٦)، وابن حبان في صحيحه (١٩١/١١)، والحاكم في المستدرک (١٣٨/٢) عن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «صلوا على صاحبكم»، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «إن صاحبكم غل في سبيل الله»، ففتشنا متاعه، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين.

أجل ردع أمثاله من الناس^(١).

وحتى العَمَال الذين يبعثهم وليّ الأمر لجباية الزكاة، إذا قبلوا الهدايا من الناس فهي غُلُول؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبَعْتُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُّهُدَى لَهُ أَمَ لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُورًا، أَوْ شَاةً تَيْعُرُ»^(٢).

الحاصل: أن الشاهد من الحديث للباب: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَغْدُرُوا»، والغدر: هو الخيانة في العهد.

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/٢١٧، ٢١٨): «أجمع المسلمون على تغليب تحريم الغلول وأنه من الكبائر، وأجمعوا على أن عليه رد ما غله، فإن تفرق الجيش وتعذر إيصال حق كل واحد إليه ففيه خلاف للعلماء، قال الشافعي وطائفة: يجب تسليمه إلى الإمام أو الحاكم كسائر الأموال الضائعة، وقال ابن مسعود وابن عباس ومعاوية والحسن والزهري والأوزاعي ومالك والثوري والليث وأحمد والجمهور: يدفع خمسة إلى الإمام، ويتصدق بالباقي، واختلفوا في صفة عقوبة الغال، فقال جمهور العلماء وأئمة الأمصار: يعزر على حسب ما يراه الإمام، ولا يُحرق متاعه، وهذا قول مالك والشافعي وأبي حنيفة ومن لا يحصى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وقال مكحول والحسن والأوزاعي: يُحرق رحله ومتاعه كله، قال الأوزاعي: إلا سلاحه وثيابه التي عليه، وقال الحسن: إلا الحيوان والمصحف، واحتجوا بحديث عبد الله بن عمر في تحريق رحله. قال الجمهور: وهذا حديث ضعيف؛ لأنه مما انفرد به صالح بن محمد عن سالم، وهو ضعيف. قال الطحاوي: ولو صح يُحمل على أنه كان إذا كانت العقوبة بالأموال؛ كأخذ شطر المال من مانع الزكاة، وضالة الإبل، وسارق التمر، وكل ذلك منسوخ، والله أعلم».

(٢) أخرجه البخاري (٧١٧٤)، ومسلم (١٨٣٢) من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❦ قوله: «وَلَا تُمَثِّلُوا» التمثيل معناه: تشويه جُثث القتلى، بقطع آذانهم أو أنوفهم أو أطرافهم، وهذا لا يجوز؛ لأنَّ جُثة الآدمي لها حرمة حتى ولو كان كافراً، فلا يجوز التمثيل به.

❦ قوله: «وَلَا تَقْتُلُوا وَبِئْسَ الْوَلِيدُ»، الوليد: الصَّغير من الكُفَّار، نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتله؛ لأنَّه ليس منه خطرٌ على المسلمين، كما نهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث أخر عن قتل المرأة من الكُفَّار، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «وُجِدَتْ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ»^(١)؛ لأنَّ النساء لسن من أهل القتال، وإنَّما الأطفال والنساء يؤخذون أرقاءً للمسلمين، وكذلك الشيخ الكبير الهرم لا يُقتل، إلَّا إذا كان له رأي ومشورة في الحرب، مثلما قُتل دُرَيْد بن الصِّمَّة سيّد هوازن، وكان رجلاً كبيراً هَرِمًا، لكنه قُتل في غزوة حُنين^(٢)؛ لأنَّه كان سيِّداً من ساداتهم وشجاعاً من شجعانهم، وقد مارس الحروب وساس المعارك، فكانوا يرجعون إليه بالرأي والمشورة، فقتله المسلمون لمنع ضرره عن المسلمين، أمَّا الشيخ الذي ليس له أهميّة، وكفره قاصرٌ على نفسه،

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٥)، ومسلم (١٧٤٤). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤٨/١٢): «أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث، وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا، قال جماهير العلماء: يقتلون. وأمَّا شيوخ الكفار: فإن كان فيهم رأي يقاتلوا، وإلا ففيهم وفي الرهبان خلاف، قال مالك وأبو حنيفة: لا يُقتلون، والأصح في مذهب الشافعي قتلهم».

(٢) أخرج البخاري (٤٣٢٣)، ومسلم (٢٤٩٨) عن أبي بردة عن أبيه قال: لما فرغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصِّمَّة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه.

فلا يُقتل، إنَّما يُقتل الكافر الذي يتعدَّى ضرره وكفره إلى الناس، وكذلك
الرُّهبان الذين في الصوامع أيضًا لا يُقتلون؛ لأنَّهم مشغولون بما هم فيه،
ولا يصدرُ منهم أذى للمسلمين، وكفرهم قاصر عليهم.



«وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيُّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ...»

قوله: «وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ»: الرواية بأو التي هي للشك والمعنى واحد.
قوله: «فَأَيُّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ»: منصوب بأجابوا.

قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ»: كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم: «ثُمَّ ادْعُهُمْ» بزيادة: «ثُمَّ».

... — الشَّيْخُ — ...

✽ بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنصب الخطبة لأمر الجيش أو السرية، فقال: «وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ؛» لأن الدعوة سابقة للجهاد، فإن أسلموا فالحمد لله، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، هذا هو المقصود؛ لأن الغاية من الجهاد هداية الناس إلى الإسلام، فإذا أسلموا فلا حاجة لقتالهم.

✽ قوله: «فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ» هذا شك من الراوي، والخصال والخلال بمعنى واحد، لكنهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يتحفظون في الألفاظ، فإذا شكوا في اللفظ جاؤوا بـ (أو)؛ لثلاثا ينسبوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يقله، وإن كان المعنى واحداً، وهذا فيه وجوب التحري في الرواية، وإذا لم يتيقن الراوي من اللفظ النبوي فإنه يأتي بالشك.

❁ قوله: «فَأَيُّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلُ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ» فلا يلجأ للقتال إلا بعد استنفاد سبل الدعوة وإصرارهم على الكفر، فأين الذين يقولون: إن الإسلام دين قسوة، ودين جبروت، ودين عنف، ودين إرهاب؟! قبحهم الله، بل الإسلام هو دين الرحمة ودين الرفق، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

❁ قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَأَقْبَلُ مِنْهُمْ» هذه رواية مسلم: «ثُمَّ»، وفي رواية غير مسلم بحذف «ثُمَّ»، وهو الصحيح، ويكون قوله: «ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ» أول الكلام، وأول الخصال التي يُبدأ بها مع الكفار، «فَإِنْ أَجَابُوكَ» يعني: دخلوا في الإسلام «فَأَقْبَلُ مِنْهُمْ»؛ لأن هذا هو الغرض من الجهاد. فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وجب الكفُّ عنه، واعتبرناه من المسلمين، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، إلا أن يظهر منه بعد ذلك ما يخالف الشهادتين فنعتبره مرتدّاً، ونعامله معاملة المرتدّ، أمّا إذا لم يظهر منه شيء فإنه يُقبل منه الإسلام، ولو مات بعد نُطقه بالشهادتين عاملناه معاملة المسلم في الميراث والجنّازة وغير ذلك.



«ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ
 إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ
 يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ
 اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ
 يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ».

قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ» يعني: المدينة
 إذ ذاك، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن وهو في بلد الشرك،
 وكذلك إذا ظهرت المعاصي في بلده، نص عليه الفقهاء في كتبهم^(١).

قوله: «فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا» يعني: أن من أسلم ولم يجاهد، ولم
 يهاجر من البداءة، لم يعط من الخمس ولا من الفَيْءِ شيئاً.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ» إذا
 أسلمت هذه القبيلة التي غزوتها فإنك تدعوهم إلى الهجرة من بلادهم إلى
 بلاد المسلمين، حتى يكونوا مع المسلمين، ويجاهدوا مع المسلمين.

والهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فراراً بالدين^(٢)،
فهي من أفضل الأعمال وهي قرينة الجهاد في سبيل الله، قال عَزَّجَلَّ:

(١) انظر: فتح الباري (٦/١٩٠)، وسبل السلام (٤/٤٣)، والسيل الجرار (٤/٥٧٦)،
 وتحفة الأحوذى (٥/١٧٨).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/٥٩٢)، والكافي في فقه ابن حنبل (١/١٨٧)،
 والمغني (٩/٢٣٦)، ومجموع الفتاوى (٢٨/٢٠٤)، وفتح الباري (١/١٦) وفتح القدير
 (١/٢١٨).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ والله عَزَّجَلَّ قَدَّمَ المهاجرين على الأنصار في الذكر والثناء؛ لأنهم تركوا أوطانهم وديارهم وأموالهم نصره لدين الله عَزَّجَلَّ فهم أفضل من غيرهم، فالهجرة شرف عظيم وعمل جليل، ولكن ليست العبرة بصورة الهجرة، إنما العبرة بمقصد صاحبها، فإن هاجر يريد نصره الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله نظرًا لنيته، وتكون عند الله مقبولة، ويكون له ثواب المهاجر، فإن خرج للهجرة ومات في الطريق كُتِبَ له أنه مهاجر؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠]، نظرًا لنيته الصالحة يكتب الله عَزَّجَلَّ له أجر المهاجر وإن كان قد مات في الطريق، هذا إذا كانت هجرته إلى الله ورسوله لنصرة دين الله وحبًا لله وحبًا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والهجرة باقية إلى أن تقوم الساعة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١)، فالمسلم بحاجة إلى الهجرة دائمًا وأبدًا، فإذا ضُغِطَ عليه في دينه وصار لا يستطيع إظهار الدين هاجر إلى بلد يستطيع أن يظهر دينه فيه محافظة على دينه، ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠]، فليهاجر فرارًا بدينه إلى بلد يستطيع فيها أن يظهر دينه، ويتمكن

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى (٢١٧/٥)، وأحمد في المسند (٩٩/٤)، والدارمي في سننه (٢٥١٣)، وأبو يعلى في مسنده (٣٥٩/١٣)، والطبراني في الكبير (٩٠٧، ٨٩٥) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من عبادة ربه عَزَّوَجَلَّ، وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»^(١) فالمراد بالهجرة هنا الهجرة من مكة؛ لأنها لما فُتِحت على يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صارت بلد إسلام، فلا يُهاجر منها، إنما كان يُهاجر منها عندما كانت في قبضة الكفار، وكانوا يضايقون المسلمين ويصدونهم عن دينهم، فلما فتحها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صارت بلاد إسلام، فالذي يُهاجر من مكة إلى المدينة بعد الفتح لا يُسمى مهاجرًا؛ لأن الهجرة ليس لها داعٍ، ومكة أفضل من المدينة وأفضل من غيرها من البلدان، أما الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فهي باقية، ولا تعارض بين الأحاديث.

وتكون الهجرة -أيضًا- بالانتقال من بادية الإسلام إلى حاضرة الإسلام؛ لأن البقاء في البادية جفاء، وبعد عن العلم، وبعد عن الجهاد في سبيل الله، والانتقال إلى الحاضرة فيه تفقه في الدين وتعلم العلم النافع، وفيه الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فالهجرة إما أن تكون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وهذا واجب مع القدرة، وإما أن تكون من البادية إلى الحاضرة، وهذا النوع الثاني هو المقصود في هذا الحديث، أنهم ينتقلون من البادية ومن الأعراب إلى حاضرة الإسلام؛ ليتعلموا وليتفقهوا وليجاهدوا في سبيل الله، وهذه ليست بل مستحبة، إن فعلها فهو خير، وإن تركها فلا حرج عليه؛ لأن بادية الإسلام تابعة لحاضرة الإسلام، فيكون ذلك من باب الاستحباب.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وجاء من حديث عائشة، وابن مسعود، وابن عمر، وأبي سعيد، وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

❁ قوله: «وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ» يعني: إن انتقلوا من البادية إلى الحاضرة، فلهم ما لأهل الحاضرة، لهم من الغنيمة والفيء إذا غزوا مع المسلمين لهم، «فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ» إذا أبوا أن يتحولوا من البادية إلى الحاضرة فاطرکہم؛ لأنهم تركوا شيئاً مستحباً، ولم يتركوا واجباً، لكن أخبرهم أنهم تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في مكانهم، ولكن ليس لهم من الغنيمة شيء؛ لأنهم لم يجاهدوا مع المسلمين، إنما يطبق عليهم الإسلام، ويؤمرون بأوامر الإسلام من الصلاة والصيام والحج والزكاة، ويحكم بينهم بكتاب الله، ويُلغى دين الجاهلية وعوائد الجاهلية التي كان يتحاكمون إليها؛ لأن الله عزَّ وجلَّ أبدلهم خيراً منها.

❁ قوله: «وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ» الغنيمة: هي التي يستولي عليها المجاهدون في المعركة، فليس لهم منها شيء؛ لأنهم لم يشاركوا في الغزو، وليس لهم شيء في الفيء - وهو بيت المال - لأنهم بقوا في البادية، إنما لهم أموالهم فقط التي هم فيها من رعي الإبل والغنم.

❁ قوله: «إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ» إلا إذا جاهد الأعراب مع المسلمين فلهم ما للمسلمين من الغنيمة والفيء، أما إذا لم يجاهدوا مع المسلمين فليس لهم شيء؛ لأنه لم يوجد السبب الذي يستحقون به الغنيمة والفيء.



«فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلَّهْمُ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ».

قوله: «فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلَّهْمُ الْجَزِيَّةَ» فيه: حجة للمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر، عربيًا كان أو غيره، كتابيًا كان أو غيره.

وقد اختلف في القدر المفروض من الجزية، فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق. وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير، وقال أبو حنيفة: على الغني ثمانية وأربعون درهماً، والوسط أربعة وعشرون درهماً، والفقير اثنا عشر درهماً، وهو قول أحمد بن حنبل. وعند مالك وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره، ويجب تحويل النائي إلى بلاد المسلمين أو حربهم^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: «فَإِنْ هُمْ أَبَوْا» أي: أبوا الدخول في الإسلام «فَسَلَّهْمُ الْجَزِيَّةَ» أي: انتقل معهم إلى الخصلة الثانية، فاعرض عليه الجزية. والجزية في اللغة مشتقة من مادة: (ج ز ي)، فيقال: جرى يجزي جزاء، أي: كافأ بالإحسان وبالإساءة، وتجاوزت ديني إذا تقاضيته^(٢).

(١) انظر: مختصر اختلاف العلماء للطحاوي (٣/ ٤٨٦، ٤٨٧)، والتمهيد لابن عبد البر (٢/ ١٣٠، ١٣١)، والمغني (٨/ ٢٩٠)، وأحكام أهل الذمة (١/ ١٢٣)، والبدر المنير (٩/ ٢١١)، والتاج والإكليل (٣/ ٣٨٢).

(٢) انظر: العين للخليل (٦/ ١٦٤).

أما الجزية في الشرع: فهي مقدارٌ من المال يدفعه الكافر كل عام، حتى يُحَقَّنَ دمه، ويعيش تحت ظلَّ الإسلام وحكم الإسلام، ويبقى على كفره، لكن يكون خاضعاً لحكم الإسلام^(١).

واختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ هل تُؤخذ الجزية من كُلِّ كافر كما هو ظاهر هذا الحديث، أو أنها تُؤخذ من أهل الكتاب فقط؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فخصَّ الله في الآية أهل الكتاب: اليهود والنصارى، فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، وأُلْحِقَ بهم المجوس بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(٢)، يعني: في أخذ الجزية، فهم يُسَنُّ بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية، أمَّا ذبائحهم فهي حرام، بخلاف ذبائح أهل الكتاب، ونسائهم.

فتؤخذ الجزية من أهل الكتاب بنص الآية، وتؤخذ الجزية من المجوس بالسنة النبوية، وفعل الخلفاء الراشدين^(٣)، ويبقى الخلاف في بقية المشركين.

(١) انظر: المغني (٢٦٣/٩)، ومنهاج الطالبين (ص ١٣٨)، ومغني المحتاج (٢٤٢/٤).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢٧٨/١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦٨/٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٣٥/٢)، والبخاري في مسنده (٢٦٤/٣) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنَّهُ.

(٣) أخرج البخاري (٣١٥٦، ٣١٥٧) من حديث بجاله رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنَّهُ قال: لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذها من مجوس هجر.

فهذا الحديث يدلّ على أخذها منهم أيضاً، لكن اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: وهو قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ، واختيار الإمام ابن القيم: أنّها تُؤخذ من كُلِّ كافر، بدليل هذا الحديث؛ لأنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمّم أخذ الجزية، وقال: «إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، وهذا عامّ يعمّ جميع المشركين.

القول الثاني: أنّها تؤخذ من كُلِّ مشرك من العجم، أما مشركو العرب فلا تؤخذ منهم الجزية، فلا يُقبل منهم إلّا الإسلام أو القتل، وهذا قول الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ.

القول الثالث: أنّ أخذ الجزية خاصٌّ بأهل الكتاب وبالمجوس فقط من العرب ومن العجم، ومن عداهم من المشركين فلا يُقبل منهم جزية، وهذا قول الإمام الشافعي، وظاهر مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

والمسألة مفصّلة في كتب الفقه، وفي كتاب «أحكام أهل الذمّة»، للإمام ابن القيم، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»^(١).

والحكمة في أخذ الجزية أنها في مقابل تأمينهم، ولإتاحة الفرصة لهم ليتأمّلوا أحكام الإسلام، ويجربوا العيش تحت ظلّه وعدله، ويتمكّنوا من سماع القرآن والسنة، ويكون ذلك دافعاً لهم للدخول في الإسلام.

(١) انظر: الأم للشافعي (٤/١٧٤)، والحاوي الكبير (١٤/١٥٣)، ومجموع الفتاوى (١٩/٢٢، ٢٣)، وأحكام أهل الذمة (١/٧٩-٨١).

فالجزية سُرعَت في الإسلام للأغراض التالية:

- أن هذا المبلغ الذي يؤخذ منهم يُرد عليهم في صورة خدمات اجتماعية تعود عليهم بالنفع؛ كالعلاج، والتعليم، والانتفاع بالمرافق العامة، وغير ذلك.

- أنها تُدفع نظير ما تلتزم به الدولة نحوهم من الدفاع عنهم، وصيانة أعراسهم، وحماية أموالهم، حتى تُتاح لهم الفرصة لمعرفة أحكام الإسلام، ويعاينوا سماحته وعدله، فيكون ذلك دافعاً لهم للدخول في الإسلام.

❁ قوله: «فَإِنْ هُمْ أَبَوْا» يعني: أبوا دفع الجزية «فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ» هذه الخصلة الثالثة، وهي المرحلة الأخيرة معهم، وهي: القتال؛ لأنهم أبوا الدخول في الإسلام، وأبوا دفع الجزية، بعدما بلغتهم الدعوة، وقامت عليهم الحجة، وانقطعت معذرتهم، فلم يبق إلا قتالهم؛ لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، أي: حتى لا يكون شرك يفتتن المسلمون عن دينهم بسببه؛ لأنهم إذا بقوا على شركهم وكفرهم صاروا دُعاة إلى الكفر، واجتهدوا في صَرْف المسلمين عن دينهم، كما هي عادة الكفار والمشركين دائماً، قال: ﴿وَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، فالكفار دائماً في كُلِّ مكان وزمان يحاولون صرف المسلمين عن دينهم.

فإذا أصروا على كفرهم، وجب قتالهم ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، هذا هو الواجب؛ لأن الله هو الخالق الرازق الرب المدبّر الذي يستحقّ العبادة، وعبادة غيره باطلة، لأنها بغير حقّ.

❁ وقوله: «فَاسْتَعِزَّ بِاللَّهِ» هذا دليل على وجوب الاستعانة بالله وعدم الاغترار بالقوّة، وأن المسلمين إنّما يقاتلون بإعانة الله عَزَّجَلَّ، ويعتمدون على الله، ويطلبون منه النصر والقوّة، ولا يعتمدون على قوتهم وكثرتهم، فإنهم إن اعتمدوا على ذلك هُزِمُوا؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ❁ [التوبة: ٢٥-٢٦]. فالواجب على المسلمين أن يعتمدوا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم يتخذوا القوّة والسلاح استعداداً لعدو الله وعدوهم؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ولكن هذه القوّة وهذا السلاح إنّما هو سبب من الأسباب، وأمّا الاعتماد فهو على الله عَزَّجَلَّ، فلا يُعتمد على القوّة ولا على الكثرة، فإنّ ذلك لا ينفع إذا لم يساعد الله عَزَّجَلَّ المؤمنين بنصره وتأييده.



«وَإِذَا حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخَفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخَفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتَصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»^(١).

قوله: «وَإِذَا حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ...» إلى آخره: فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره^(٢).

قوله: «وَإِذَا حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ» الذمة: العهد، وتخفر: تنقض، يقال: أخفرت الرجل: نقضت عهده، وخفرتة: أجرته؛ لأنه لا يؤمن على من أعطى ذمة أن يخفرها، فخفر ذمته أهون من أن يخفر ذمة الله عَزَّوَجَلَّ.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله: «إِذَا حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ» الحصار: هو تطويق المكان بحيث لا يخرج منه أحد، ولا يدخل إليه أحد، وحصار العدو: تطويقه بحيث لا يخرج منه أحد، ولا يدخل إليه أحد، ولا يدخل إليه مال ولا قوة ولا شيء. والحصن: مفرد حصون، وهي الأبنية التي يتحصن بها المقاتلون، وتسمى

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) انظر: الإحكام للآمدي (٤/ ١٩٠)، والاعتصام للشاطبي (٢/ ٣١٩).

قَلَاعًا وَحَصُونًا، قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَضُتُّوْا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

والقتال قد يكون في الميدان، وقد يكون من وراء الحصون، وهذا هو المقصود هنا أنهم يكونون في حصون، وهذا لا يكون في البوادي، إنما يكون في حواضر المشركين، هم الذين يتحصنون بالحصون.

❁ قوله: «فَارَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ» هذا هو محل الشاهد من الحديث: إذا حاصرت أهل حصن فطلبوا منك أن تعاهدهم؛ لكي يستسلموا ويخرجوا من حصونهم، «فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ» أي: عهد الله وعهد رسوله «وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ»، فيقول الأمير أو القائد: أعطيكم عهدي وميثاقي أنا ولا أعطيكم عهد الله وعهد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما المانع أن يعطيهم ذمة الله ورسوله؟

❁ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخَفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخَفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ» والإخفار: الغدر والخيانة، يُقال: أخفره أي غدر بعهده وخانه، ويقال: خفره -من الثلاثي- إذا حماه، فالخفير هو الحامي، وأما الإخفار فهو الغدر والخيانة. فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ»؛ لأجل احترام ذمة الله، لأنه إذا أعطاهم ذمة الله ثم حصل كان ذلك تنقصاً لذمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، أما إذا جعل لهم ذمته وذمة أصحابه، ثم حصل غدر كان ذلك أهون، والمسلم يحرم عليه إذا عاهد أن يغدر، ولو

جعل في عهده ذمته، لكن هذا من ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما؛ لأنه لا يؤمن أنه يحصل غدر ومخالفة فيكون في ذلك تنقص لزمة الله، وهذا نقص في التوحيد.

❦ قوله: «وَإِذَا حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ» إذا سألك حكم الله، وقالوا: ننزل على حكم الله فينا، فلا تجبههم إلى ذلك، ولكن قل لهم: هذا حكمي واجتهادي، «فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟»، فكونك تخطئ في اجتهادك، ويُنسب الخطأ إليك وإلى اجتهادك أهون من أن يُنسب الخطأ إلى حكم الله وحكم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا فيه أن المفتي لا يقول هذا حكم الله، بل يقول: هذا حكمي واجتهادي، وكذلك القاضي لا يقول: هذا حكم الله وحكم رسوله، وإنما يقول: هذا اجتهادي، وأرجو أن يكون موافقاً لحكم الله وحكم رسوله.

وفيه أن الخطأ لا يُنسب إلى حكم الله وحكم رسوله، وإنما يُنسب إلى المجتهد وصاحب الرأي في المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد، فبعض الناس يقول: أعطني حكم الله في هذه المسألة، ما حكم الله في هذه المسألة؟ ما حكم الشرع في هذه المسألة؟ وهذا غلط، لا ينبغي له أن يقول ذلك، إنما يقول: ما رأيك واجتهادك أنت في هذه المسألة؟ والمفتي أو القاضي يقول: هذا رأيي وهذا اجتهادي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان؛ كما قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سُئِلَ عن الكلالة، قال: (أقول

فيها برأيي، فإن كان صواباً فهو من الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان^(١).

❁ قوله: «فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟» استدل به الأصليون على أن الصواب يكون مع أحد المجتهدين، وليس كل مجتهد يكون مصيباً، فإذا اجتهد اثنان أو ثلاثة في مسألة واختلفوا، فلا بد أن الصواب مع أحدهم، مادام الدليل محتملاً ولم يترجح شيء بدليل، وإنما الخلاف متعادل، فهنا نجزم أن الصواب مع أحد المجتهدين، لكن لا ندري من هو. ومن هنا قال الفقهاء: لا مشاحة في مسائل الاجتهاد. يعني: المسائل التي لم يتبين فيها الدليل؛ لأن كل قول يحتمل أن يكون صواباً.



(١) أخرجه الدارمي (٢٩٧٢)، والطبري في تفسيره (٢٨٣/٤، ٢٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩٨/٦)، وابن عبد البر في التمهيد (١٩٦/٥)، والبيهقي في الكبرى (٢٢٣/٦).

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: الْفَرْقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.
- الثَّانِيَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى أَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ خَطَرًا.
- الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «أَغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».
- الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ».
- الخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ».
- السَّادِسَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ.
- السَّابِعَةُ: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِحُكْمٍ لَا يَدْرِي أَيُّوَأْفِقُ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا.

... — الشَّيْخُ — ...

- ❖ قوله: (الأولى: الْفَرْقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ) فذمة الله وذمة رسوله لا تعطى لأحد، وأما ذمة المسلمين فتعطى.
- ❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى أَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ خَطَرًا) استدل به الأصوليون على قاعدة: ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما.
- ❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «أَغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»); لأن الغزو ليس القصد منه إلا إعلاء كلمة الله، وليس القصد منه التعالي على الناس.
- ❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ»); لأن القتال إنما يكون لأجل أنهم كفروا بالله، وليس هو من أجل الدفاع، كما يقوله الجهال من كتاب

العصر، الذين يزعمون أنهم يردون على الكفار ويدافعون عن الإسلام، فيقولون: الإسلام ليس دين قتال، وإنما شرع الجهاد للدفاع فقط!! نقول لهم: الكل يدافع، حتى البهائم تدافع عن نفسها، والكافر يدافع عن نفسه، فهل نسمي دفاع الكافر عن نفسه جهاد؟! هذا ليس بصحيح، الجهاد في سبيل الله لا يكون إلا من أهل الإيمان، الذين يقاتلون الكفار لأجل كفرهم، بقصد إعلاء كلمة الله.

❁ قوله: (الْحَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «اسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ») دل على وجوب الاستعانة بالله، ولا يُعتمد على الحول والقوة.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ) فحكم الله لا يكون إلا حقاً، أما حكم العلماء فيحتمل الخطأ والصواب.

❁ قوله: (السَّابِعَةُ: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِحُكْمٍ لَا يَدْرِي أَيُّوَأْفُقُ حُكْمِ اللَّهِ أَمْ لَا) إذا كان الصحابة مطلوب منهم الاجتهاد، فغيرهم من باب أولى.



٦٣- بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ

... ————— الشَّرْحُ ————— ...

الإقسام على الله هو: الحلف على الله، فإذا أقسم العبد على الله بأنه لا يرحم عباده، ولا يغفر لهم ولا يدخل أحداً منهم الجنة، فهذا محرّم، وهو سوء أدبٍ مع الله عَزَّجَلَّ؛ لأنَّ معناه: أنه يحجر على الله عَزَّجَلَّ، ولا أحد يمنع الله من أن يتصرّف في خلقه، وأن يرحم من شاء، ويعذب من شاء. فالذي يفعل ذلك قد أساء الأدب مع الله، وتنقص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكان بذلك مُخْلًا بتوحيده.

فلذلك عقد المصنّف رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب، وأجل في الترجمة، فقال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ)؛ لأنَّ الإقسام على الله له احتمالان: الاحتمال الأوّل: ما كان فيه حجر على الله عَزَّجَلَّ في تصرفاته، وهذا ممنوع وحرام، ومخلٌّ بالعقيدة.

الاحتمال الثاني: ما كان على وجه حسن الظنّ بالله أن يفعل الخير، وأن يغفر لعباده، وأن يسقيهم المطر، وأن ينصرهم على الأعداء، فهذا لا بأس به؛ لأنّه من حسن الظنّ بالله، وقد جاء في الحديث: «إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١)، وقال النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ أَشْعَثٍ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَائِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»^(٢).

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ]: ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحديث. قوله: «يَتَأَلَّى» أي: يحلف، والألْيَةُ بالتشديد: الحلف.

وصح من حديث أبي هريرة، ورواه أبو داود عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَنِي وَرَبِّي أَبْعَثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: أَذْهَبَ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٤٧/١٤)، والبخاري (٢٤٤/١٦)، وابن حبان (٢١/١٣)، البغوي في شرح السنة (٣٨٤/١٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

قوله: [وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ]: يشير إلى قوله في هذا الحديث: «وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ»، وفيه معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (جندب) بفتح الدال، ويجوز الضم: جندب بن عبد الله البجلي، الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قال: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ بُفْلَانٍ...» الحديث) هذه الرواية مختصرة في صحيح مسلم، وجاء تفصيلها في حديث عند غير مسلم: أن هذا الرجل كان ممن كان قبلنا من الأمم السابقة، وأنه كان رجلاً عابداً، وكان يرى رجلاً عاصياً يفعل المعاصي فينصحه، ثم لما تكرّر من الرجل فعل المعاصي أخذت هذا العابد الغيرة الشديدة، فقال له: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ»، وهذا لا شك أنه أساء الأدب مع الله عَزَّجَلَّ، فإن الله سبحانه رحيمٌ بعباده، يغفر الذنوب جميعاً إذا كانت دون الشرك، ولو كانت كبائر يغفرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا شَاءَ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فإذا سلم

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد في المسند (٤٦٩/٣)، ومالك في الموطأ (٩٨٥/٢)، والحاكم في المستدرک (١٠٦/١)، والبيهقي في الكبرى (١٦٥/٨) من حديث بلال بن الحارث المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العباد من الشرك فإن الله يغفر لهم، أو يعذبهم بذنوبهم، ثم يدخلهم الجنة بعد ذلك، فالموحد يُرجى له الخير والمغفرة، وإن كان عنده ذنوب.

أما الذين يقولون: إن صاحب الكبيرة لا يُغفر له، وهو خالد في النار. فهؤلاء هم الخوارج، ومذهبهم هذا باطل.

فهذا الرجل لما تكلم بهذا الكلام الذي فيه تحكم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسوء ظن بالله عَزَّجَلَّ، كان جزاؤه أن غضب الله عليه، وإن كان دافعه الغيرة، لكن الغيرة لها حدود، إذا تجاوزت حدودها كانت غير سائغة، فلما بلغت غيرته إلى حد القنوت من رحمة الله عَزَّجَلَّ صارت غيرة باطلة، فقال الله سبحانه: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ؟» هذا استفهام إنكار، فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّجَلَّ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتكلم بكلام يُسمع، قديم النوع، حادث الأحاد.

❁ وقوله: «يَتَأَلَّى عَلَيَّ» يعني: يحلف علي، الأليّة: هي الحلف، قال عَزَّجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] يعني: يحلفون. فهذا الرجل حلف على الله أن لا يغفر لفلان، مع أن الله وعد بالمغفرة والتوبة لأهل الإيمان، وإن كان عندهم ما عندهم من الذنوب دون الشرك، فلا أحد يحجر على الله ويمنع فضل الله على عباده، كأن تقول: والله لا يرزق الله فلاناً، والله لا يغفر الله لفلان، إلى غير ذلك من الأمور التي فيها حجر على الله أن يتفضل على عباده، هذا سوء ظن بالله، وفيه إعجاب بالنفس أيضاً.

❦ قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ» هذا مقتضى فضله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يغفر الذنوب وإن كانت كبائر، مادامت أنها دون الشرك، «وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» هذه الكلمة التي قالها هذا العابد وأساء الظن بالله كان نتيجتها أن غضب الله عليه وأحبطت عمله، فالله غفر للمسيء لأنه قال حين أكثر الرجل عليه: «خَلِّني وَرَبِّي»، فلم يقنط من رحمة الله، فكان الله عند حسن ظنه، وغفر له.

فدل هذا الحديث على خطر اللسان، وأن كلمة واحدة من غضب الله قد تحبط عمل الإنسان كله، فيجب على العبد أن يحفظ لسانه من الكلام السيئ، وليعلم أن إنكار المنكر لا يكون بتقنيط الناس من رحمة الله وتعنيفهم، بل يكون بالترهيب وبالترغيب، فلا يكون بالترهيب فقط، ولا يكون بالترغيب فقط، وإنما يكون بالجمع بين الأمرين. هذا هو طريق الدعوة إلى الله، فتنكر المنكر ولا تقنط العاصي من رحمة الله، ولا تُأمنه من عذاب الله ومكر الله، فمن أخذ جانب الترهيب فقط فقد أخطأ، ومن أخذ جانب الترغيب فقط فقد أخطأ، ومن جمع بينهما فقد أصاب الحق.

وهكذا ينبغي للدعاة وللأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يتوخوا الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ولا تكون طريقتهم العنف والشدة وتقنيط الناس من رحمة الله، فإن هذا يُنفّر الناس من دين الله.

وفي هذا الحديث دليل على أنه لا يُشهد لمعين بجنة أو نار، إلا من شهد له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، وهذا

هو مذهب أهل السنة والجماعة. وفيه أن الأعمال بالخواتيم، فهذا الرجل خُتم له بشر فدخل النار بسبب هذه الكلمة التي فيها جرأة على الله، مات عليها فدخل النار، والرجل المذنب مات على الرجاء لرحمة الله، وحسن الظن بالله، فغفر الله له.

والشاهد من الحديث: أن الله أنكر على من يتألى عليه أن لا يغفر لفلان؛ لما فيه من إساءة الأدب مع الله، والقنوط من رحمة الله، وهذا يُنقص التوحيد.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: التحذير من التَّأَلِّي عَلَى اللَّهِ.

الثانية: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.

الثالثة: أَنَّ الْجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

الرابعة: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ» إلخ..

الخامسة: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهٍ الْأُمُورِ إِلَيْهِ.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❦ قوله: (الأولى: التحذير من التَّأَلِّي عَلَى اللَّهِ) إذا كان على وجه التقنيط

من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

❦ قوله: (الثانية: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ)، فليس

بين العبد وبينها إلا الموت، وهو لا يدري متى يموت؟ وهذه المسألة ذكرها

الشيخ أيضًا فيما سبق في حديث طارق بن شهاب في الرجلين الذين مرا على

قوم لهم صنم، لا يجوز له أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب،

قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذبابة، فقرب ذبابا، فخلوا

سبيله، فدخل النار، وقالوا: للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا

دون الله عَزَّوَجَلَّ، فضربوا عنقه، فدخل الجنة^(١).

ذكر الشيخ هناك هذه المسألة أيضًا، فقال: إن النار أقرب إلى أحدنا من

شراك نعله، والجنة مثل ذلك، يعني: ما بينه وبينها إلى الموت، وهو لا يدري

هل يموت فيدخل الجنة أو يموت فيدخل النار، وقد يكون الموت قريباً ولم يبق عليه إلا لحظات.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ) كذلك الجنة ليس بينها وبينه إلا أن يموت.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ» إِيخ..) مما يدل على خطر اللسان، وأن العبد قد يزل بكلمة تهلكه في الدنيا والآخرة، فكيف بمن يتكلم بكلام كثير من سخط الله؟!

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهٍ الْأُمُورِ إِلَيْهِ) كما غُفِرَ لهذا الرجل بسبب الكلمة التي قالها فيه العابد، حيث قال له: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ»، ولا شك أن العاصي يكره هذا الكلام، ولكنه كان سبباً في دخوله الجنة، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].



٦٤- بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

... — الشَّجْع — ...

❁ قوله: (لَا يُسْتَشْفَعُ) الاستشفاع: طلب الشفاعة. والشفاعة: مأخوذة من الشفع، وهو ما كان أكثر من واحد، فالواحد يُقال له: وتر، والاثنان يُقال لهما: شفع. قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾ [الفجر: ٣]، فالشفع: هو ما كان أكثر من فرد، وأما الوتر: فهو الفرد. هذا في اللغة.

وأما في الاصطلاح، فالشفاعة: يُراد بها الوساطة للمحتاج في قضاء حاجته عند من يملكها؛ لأن طالب الحاجة واحد، فإذا انضم إليه واسطة صار شفعا بعد أن كان واحداً؛ لذلك سميت الشفاعة، وبعضهم يقول: الشفاعة: هي طلب الخير للغير.

❁ فقولُه: (بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ) أي: لا يجوز للعبد أن يطلب من الله أن يشفع له عند أحد من الخلق، لماذا؟ لأن الشافع أقل مرتبة من المشفوع عنده، فمن استشفع بالله على أحد من خلقه فمعناه أنه جعل المخلوق أعظم من الخالق، وهذا تنقص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا يجوز أن تقول: يا الله أسألك أن تشفع لي عند فلان أن يعطيني كذا وكذا!! هذا يجوز بين المخلوقين، فتقول لمخلوق: اشفع لي عند فلان أن يقضي حاجتي، أو ينهي معاملتي. هذا جائز بين المخلوقين، بل هو محمود وفيه أجر إذا كانت الشفاعة حسنة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً

يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴿ [النساء: ٨٥]، وهذا بين المخلوقين بعضهم مع بعض، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءه السائل، أو طُلبت إليه حاجة، قال: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٢).

أَمَّا إِنْ كَانَتِ الشَّفَاعَةُ فِي أَمْرٍ مُحَرَّمٍ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، كالذي يشفع في إسقاط حد من حدود الله كحدِّ الزنا، وحدِّ السرقة، وحدِّ الشرب، فيذهب إلى الحاكم من أجل أن يترك إقامة الحدِّ بعدما تقرَّر وثبت، فهذه شفاعة محرَّمة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا بَلَغَتِ الْحُدُودُ السُّلْطَانُ، فَلَعَنَ اللَّهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ»^(٣)، وفي الحديث: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدَّثًا»^(٤)، آواه يعني: حماه من إقامة الحكم الشرعي عليه، فالشفاعة السيئة هي ما كانت في شيء محرم.

وكذلك يجوز أن تتخذ شافعاً عند الله يدعو لك، بشرط أن تُطلب الشفاعة من الله عَزَّوَجَلَّ ويأذن الله بها، فلا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، وأن يكون المشفوع فيه من أهل الإيمان، أما المشرك فإن الله لا يرضى أن يُشفع فيه،

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٠ / ٢)، والصغير (١١١ / ١)، والدارقطني (٢٠٥ / ٣)، من حديث الزبير بن العوام مرفوعاً إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورواه مالك موقوفاً عليه في الموطأ (١٥٢٥). قال ابن عبد البر في الاستذكار (٥٤٠ / ٧): «هذا خبر منقطع ويتصل من وجه صحيح». وقال الحافظ في الفتح (٨٨ / ١٢): «والموقوف هو المعتمد».

(٤) أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا تُقبل فيه شفاعته، فيجوز أن تطلب ممن توفر فيه هذان الشرطان أن يدعو الله لك، وبذلك تكون قد استشفعت به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالشفاعة عند المخلوقين جائزة إذا كانت حسنة، والشفاعة عند الله أيضًا جائزة إذا كانت في طلب دعاء الشافع من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كأن يدعو الله بأن يقضي حاجة فلان، أو يدعو الله بأن يغفر لفلان، أو أن ينزل المطر، هذا جائز. أما العكس وهو أن تجعل الله شافعًا عند المخلوق فهذا محرم ومذموم، ومنقصر للتوحيد.

إذا فالشفاعة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الشفاعة بين المخلوقين بعضهم مع بعض، وهذه جائزة بشرط أن تكون بطلب شيء مباح.

القسم الثاني: شفاعة المخلوق عند الخالق، بمعنى أن يدعو الله لأخيه أن الله يغفر له، أو يشفيه من المرض، أو يرزقه، أو يدعو للجميع أن يسقيهم الله الغيث، وأن يرحم العباد، فهذا أيضًا مشروع وجائز.

القسم الثالث: أن يجعل الله شافعًا إلى الخلق، هذا هو الحرام، وهو المخل بالتوحيد؛ لأنه يدل على تعظيمه للمشفوع عنده، وأنه أكبر من الشافع.



عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَغْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُهَكَّتِ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبِّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ». رواه أبو داود^(١).

قوله: [بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ]، وذكر الحديث، وسياق أبي داود أتم مما ذكره المصنف، ولفظه: عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: «أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحْكُمُ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ تَهَكَّدَا» وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «وَإِنَّهُ لَيَطِيطُ بِهِ أَطِيطُ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص ٥٧)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (١٥٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦).

قوله: «وَيَحْكُ»: كلمة تقال للزجر.

قوله: «أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟»: فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله.

قوله: «إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ»؛ لأن الأمر كله بيده تعالى، ليس في يد المخلوق منه شيء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، تعالى وتقدس.

وفي هذا الحديث الرد على الجهمية، وإثبات العلو.

وهذا الحديث رواه أبو داود، ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحاً أو حسناً، وسكت عليه.

وأما الاستشفاع بالرسول في حياته، فإنما هو بدعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعاؤه مستجاب، وأما بعد وفاته فلا يجوز الاستشفاع به؛ كما تقدم تقريره في باب الشفاعة وما قبله، والله تعالى نهى عن اتخاذ الشفعاء في مواضع كثيرة من القرآن، ونفاها في حق من سألها من غير الله.

... — الشَّجْ — ...

❖ قوله: (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ)، الأعرابي: هو ساكن البادية، والغالب على سُكَّانِ البادية الجهل، (نَهَكَتِ الْأَنْفُسُ) يعني: ضعفت، (وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ) وذلك بسبب تأخر المطر؛ لأنَّ عيشة البادية على ما ينزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الأمطار، والمطر لا يستغني عنه أحد، لا أصحاب الحاضرة، ولا أصحاب البادية، كلُّهم بحاجة إلى المطر، فإذا تأخَّرَ نزول المطر تضرَّرَ النَّاسُ، وإذا نزل المطر وجعل الله فيه البركة انتفع النَّاسُ وانتعشوا، فالأمطار

فيها خيرٌ للعباد، ولا يحبسها الله عَزَّجَلَّ عن العباد إلا بسبب الذنوب والمعاصي، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْوَّاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

❁ قوله: (فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ) وهذه عادة الصَّحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم كانوا إذا تأخر المطر أو أنحبس طلبوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستسقي لهم. والاستسقاء: هو طلب السُّقيا، وهو سنة قديمة، فقد استسقى موسى عَلَيْهِ السَّلَام لقومه، واستسقى سليمان عَلَيْهِ السَّلَام لقومه، واستسقى نبيُّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمَّته، فالاستسقاء مشروع. وذلك بأن يأتوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، ويطلبوا منه أن يدعو الله لهم بنزول المطر، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجيبهم إلى ذلك، تارة يدعو وهو جالس بين أصحابه، وتارة يدعو في خطبة الجمعة بنزول المطر، وتارة يخرج إلى المصلَّى في الصحراء، فيصلي بالناس صلاة الاستسقاء، ثم يخطُب ويدعو الله سُبحانه وتعالى، ويسقيهم الله عَزَّجَلَّ.

وبعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يأتون إلى الخلفاء الراشدين: يأتون إلى عمر فيطلبون منه أن يدعو الله لهم، وعمر يطلب من العباس عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لقرايته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

كذلك المسلمون يطلبون من علمائهم، وولاة أمورهم، ومن الصالحين منهم أن يدعو ربهم بالسقيا، وهذه سنة ثابتة^(٢).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠١٠) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، قال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.

(٢) قال ابن سعد في الطبقات (٧/ ٤٤٤): «أُخبرت عن أبي البيان، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر الخبائري: أن السماء قحطت، فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق =

فمجيء هذا الأعرابي إلى النبي ﷺ وطلبه من الرسول أن يستسقي لهم، أمرٌ معروف مستقر، ولكن هذا الأعرابي لم يقتصر على ذلك، بل قال: (نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ)، وهذه هي الكلمة المنكرة؛ لأنه جعل الله شافعاً عند الرسول ﷺ، والشافع أقل درجة من المشفوع عنده، فهذا تنقُصُ الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى.

❁ أما قوله: (فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ)، فهذا لا نكارة فيه، بشرط أن يكون في حياة النبي ﷺ، لا بعد موته. ومعناه: طلب الدعاء من الرسول لهم بالسقيا، كذلك طلب الدعاء من الصالحين الأحياء، لا بأس به. ثم إن النبي ﷺ نَزَّهَ الله عن هذا التنقُص، وهذا الجهل الذي وقع من هذا الأعرابي في حقِّ الله، وقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ» وهذه عادته ﷺ، أنه كان إذا استنكر شيئاً يسبح، وإذا أعجبه شيء يسبح أو يكبر. ❁ قوله: (حتى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ) لما تأثر وغضب، غضبوا لغضب الرسول ﷺ، وتأثروا من تأثر الرسول ﷺ، وظهر ذلك على وجوههم ﷺ.

= يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ قال: فناداه الناس، فأقبل يتخطى، فأمره معاوية فصعد المنبر، ففقد عند رجله، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يزيد يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في المغرب، وهبت لها ريح، فسقينا حتى كاد الناس لا يصلون إلى منازلهم. وانظر ترجمته في: تاريخ دمشق (١٠٧/٦٥)، وسير أعلام النبلاء (١٣٦/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦٩٧/٦).

❁ ثم قال: «وَيْحَكَ»، هذه الكلمة يُراد بها العتاب، وأحياناً يراد بها الشَّفَقَة، «أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟» هذا استنكار من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان للجهل هذا الأعرابي في حق الله، «شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ» لما أنكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك ونزّه ربّه علّم هذا الجاهل ما يجب عليه من تعظيم الله.

فهذا حديث عظيم يدل على وجوب تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتنزيهه، وأنه سبحانه لا يستشفع به على خلقه، أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب بلفظ مختصر، وقد رواه أبو داود بلفظ أتم من ذلك، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ دائماً يحرص على الاختصار، فإذا جاء الحديث مختصراً وصحيحاً أخذ به، واستغنى به عن المطول.

وفي لفظ أبي داود: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهذا الأعرابي: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَآوَاتِهِ تَهَكِّدًا»، قال راوي الحديث: (وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ) العرش هو أعظم المخلوقات - كما سيأتي بيان ذلك في آخر أبواب الكتاب إن شاء الله - وهو سقف المخلوقات، والمخلوقات كلها بالنسبة إليه لا شيء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق العرش أعظم من كل شيء، فكيف يُجعل العظيم شفيعاً عند المخلوق؟!!

❁ قوله: «وَإِنَّهُ لَيَبْئِطُ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلُ بِالرَّكِبِ» مع أن العرش أعظم المخلوقات إلا أن الله أعظم من جميع مخلوقاته بما فيها العرش، ولهذا للعرش أطيّط - يعني: صوت من الثقل والتحمل - من عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ فِي حَدِيثِهِ) هو محمد بن بشار، الذي هو بندار^(١).

❁ قال: (إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَآوَاتِهِ) فالعرش أوسع من الكرسي الذي وسع السماوات والأرض، والله عَزَّجَلَّ فوق جميع مخلوقاته بما فيها العرش.

❁ قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (قوله: «أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟»: فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله) أي: الذي حمل الأعرابي على هذا هو جهله وقلة علمه، وهذا فيه خطر الجهل على الإنسان، وكونه لا يتعلم العقيدة، ولا يدرس التوحيد، يقع في مثل ما وقع فيه هذا الأعرابي، ففيه الحث على تعلم العقيدة ومعرفة التوحيد حتى لا يقع في الخطأ.

واليوم كثير من الناس يُزهدون في دراسة العقيدة، ويقولون: كيف تدرسون للناس العقيدة وهم مسلمون؟ نقول لهم: كونهم مسلمين لا ينفي عنهم أنهم قد يجهلون كما جهل هذا الأعرابي، مع أنه كان مسلماً فقد وقع في هذا الخطأ العظيم، الذي أنكره عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس كل مسلم يعرف العقيدة، بل لابد من دراستها.

❁ قوله: (وفي هذا الحديث الرد على الجهمية) هذا الحديث من أدلة إثبات علو الله على خلقه؛ لأن فيه أن العرش فوق المخلوقات، وأن الله فوق

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٤٤): «لُقِبَ بذلك؛ لأنه كان بندار الحديث في عصره ببلده، والبندار الحافظ. ولد سنة سبع وستين ومائة».

العرش، فيه الرد على الجهمية، ومن قال بقولهم من المعتزلة والأشاعرة، وسائر الفرق المنحرفة، التي تنفي علو الله على خلقه، ويقولون: إن الله في كل مكان!! تعالى الله عما يقولون.

❁ قوله: (وهذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته...) ما سكت عليه أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ فهو يرتضيه؛ لأن من عادته أنه يعقب على الحديث إذا رواه وفيه شيء من الضعف، فإذا سكت دل سكوته على أنه رضيه.

❁ قوله: (وأما الاستشفاع بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته فإنما هو بدعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ولذلك لم ينكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الرجل قوله: (نستشفع بك على الله)؛ لأن هذا في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قادر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يدعو الله، وأن يستسقي للناس، فلما مات ما كان الصحابة يستشفعون بالرسول، ولا يطلبون منه الدعاء وهو ميت، وإنما كانوا يدعون الله هم، ويستسقون الله هم، كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل، ويطلبون من أهل الفضل أن يدعوا الله بالسقية؛ كما طلب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العباس عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله في حياته، أما بعد موته فلا.

❁ قوله: (ودعاؤه مستجاب) كذلك يوم القيامة الأُمم تستشفع بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فصل القضاء؛ لأنه في يوم القيامة حي حاضر.

❁ قوله: (والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى عن اتخاذ الشفعاء في مواضع كثيرة من القرآن) اتخاذ الشفعاء إن كان المقصود به طلب الدعاء منهم وهم يقدرُونَ على الدعاء فهذا لا بأس، أما اتخاذ الشفعاء من الأموات فهذا لا يجوز، وإذا

صاحب هذا عبادة للأموات؛ كالذبح لهم، أو النذر لهم، أو الاستغاثة بهم، فهذا استشفاع معه شرك أكبر.

❦ قوله: (ونفاها في حق من سألها من غير الله سبحانه) فالله نفى الشفاعة إلا بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن اتخذ الشفعاء على نحو ما يفعله المشركون والقبوريون، من أنهم يذبحون للأموات، وينذرون لهم، ويستغيثون بهم، ويقولون: هؤلاء شفعائونا عند الله!! فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: إنكاره على مَنْ قَالَ: نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ.
- الثانية: تَغْيِيرُهُ تَغْيِيرًا عَرِيفًا فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.
- الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ».
- الرابعة: التَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ».
- الخامسة: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ الْإِسْتِشْقَاءَ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأولى: إنكاره على مَنْ قَالَ: نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ) أنكر عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه اللفظة، وعلل ذلك بقوله: «إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ». فدل على تحريم الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه، وأن هذا يُحِلُّ بالعقيدة وينقص التوحيد، وفيه إساءةٌ أدبٍ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الذي عقد المصنّف هذا الباب من أجله.

❁ قوله: (الثانية: تَغْيِيرُهُ تَغْيِيرًا عَرِيفًا فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ) هذا يأخذ منه الغضب لله عَزَّ وَجَلَّ، والغيرة عندما يحدث منكر يحل بالعقيدة، فينبغي أن يكون غضب العالم لله؛ لأجل أن يزجر مَنْ عندهم خلل في عقيدتهم.

❁ قوله: (الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ») فدل على أن طلب الدعاء والاستشفاع بالحَيِّ جَائِزٌ، وهذا فعل الصّحابة مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع غيره إذا احتاجوا إلى ذلك.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ») أن معناها تنزيه الله؛ لأن هذا الأعرابي لما تنقص الله عَزَّجَلَّ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ» أي: تنزيها لله عما قاله هذا الأعرابي. وفي ذلك دليل على مشروعية التسبيح والتكبير عند حصول أمرٍ منكر أو أمرٍ عجيب، بدل التصفيق الذي أحدثه من يقلدون الكفار.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ الْإِسْتِسْقَاءَ)، فدل على مشروعية الاستسقاء عند تأخر المطر، فهو سُنَّةٌ ثابتة، وأن الطلب من الصالحين الأحياء الحاضرين أن يدعوا الله للمسلمين، لا بأس به، أمَّا الميِّت فلا يُطلب منه شيء، لا شفاعة ولا دعاء.

والدليل على ذلك: أَنَّ الصَّحَابَةَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما تُوفِّي الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكونوا يذهبون إلى قبره إذا أجذبوا أو احتاجوا إلى شيء، ما كانوا يذهبون إلى قبره مثل ما كانوا يأتونه وهو حيّ ويطلبون منه الدعاء، وإنَّما عدلوا إلى عمه العباس؛ لآنه حيٌّ موجود بينهم، وطلبوا منه أن يدعو الله لهم.



٦٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ

حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشَّرِكِ

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ] حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشَّرِكِ: حمايته ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ عما يشوبه من الأقوال والأعمال، التي يضمنحل معها التوحيد أو ينقص، وقد اشتمل هذا الكتاب - على اختصاره - على أكثر ذلك، والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه، يعرف ذلك من تدبره، وعرف ما تضمنه بابًا بابًا.

... — الشَّرْحُ — ...

هذا الباب مكمل للأبواب السابقة في أن النبي ﷺ حِمَى حِمَى التَّوْحِيدِ.

والحمى: هو ما حول الشيء، يُسمى حمى، ويُسمى حريمًا له، فالنبي ﷺ حِمَى ما حول التوحيد؛ لئلا يُفْضِي هذا إلى نقص التوحيد، فإذا كان الرسول حِمَى ما حوله فكيف بحماية التوحيد نفسه؟!

❁ وقد سبق بيان حماية الرسول ﷺ للتوحيد، وذلك في باب سبق، وهو: (باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد) أي: حماية جانب التوحيد، وفي هذا الباب (فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ) أي: لم يكتف النبي ﷺ بحماية جانب التوحيد، بل حِمَى ما حول التوحيد، مما يدل على عظم العقيدة، وعظم التوحيد.

❦ قوله: (وَسَدَّ طُرُقَ الشُّرْكِ) الطرق: هي ما يوصل إلى الشيء، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سدَّ الوسائل والأسباب التي تؤدِّي إلى الشرك، وإن لم تكن هي من الشُّرك، لكن منع منها احتياطاً للتوحيد، فقد يكون الشيء مباحاً في نفسه، لكنه يُفْضِي إلى محرَّم، فحينئذٍ يُصْبِحُ حراماً؛ لأنَّ الوسائل لها حكم الغايات، فالوسيلة إلى المحرَّم تكون حراماً، وهذا ما يسمَّى عند الأصوليين بقاعدة: «سدَّ الذرائع».



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضُ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجِرِّيَنَّهُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) وهذا في السنة التاسعة من الهجرة بعد الفتح، وهو عام الوفود؛ لأن الرسول ﷺ لما فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا، مصداقًا لقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] يعني: فتح مكة، وكان في السنة الثامنة من الهجرة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، أما الفتح المذكور في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فهذا فتح آخر، وهو صلح الحديبية، فعندنا فتحان: الفتح الأول: صلح الحديبية.

الفتح الثاني - وهو الفتح الأعظم - : فتح مكة.

لما فتح النبي ﷺ مكة، وأسلمت قريش، ودخلت تحت حكم رسول الله ﷺ أسلم الناس تبعًا لهم؛ لأنهم كانوا ينظرون إلى قريش على أنها رأس العرب، فأسلموا وجاءوا وفودًا وأفواجًا على الرسول ﷺ، فسمي العام الذي بعد الفتح: عام الوفود. وكان عبد الله بن

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦).

عامر بن الشخير مع وفد قومه من بني عامر، الذين وفدوا على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجل إعلان إسلامهم.

❁ قوله: (فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا) وذلك على عادة العرب أنهم كانوا يمدحون رؤساءهم وكبراءهم، فظنوا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل المدح مثل رؤساء العرب.

لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سد باب الغلو في حقه، ولم يقبل المدح؛ لأنه يخاف على أمته من الغلو، فدل على أنه لا يجوز الغلو في المدح، حتى لو كان الممدوح هو أشرف الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ فقال: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» منعهم من إطلاق هذه اللفظة حماية للتوحيد، وإن كان لفظ «السيد» جائزاً، لكن لما خاف عليهم الغلو منعهم من ذلك، فالشيء وإن كان مباحاً في أصله إذا كان يفضي إلى محذور فإنه يُمنع، كما منع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه اللفظة وإن كانت جائزة؛ لئلا تفضي إلى الغلو. فأين الذين يقولون:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ	سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِيمِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخِذًا بِيَدِي	فَضْلاً وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتْهَا	وَمَنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ

هذا هو الغلو والعياذ بالله، بل هذا هو الشرك الأكبر.

فهذا الذي خافه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته؛ لأنه مظنة الغلو في حقه، لعظم مقامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإذا كان هذا في حق الرسول ففي حق غيره من باب أولى، فلا يجوز الغلو في شخص والإسراف في مدحه.

❁ قوله: (قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ»): أي: قولوا بقولكم المعتاد الذي ليس فيه مدح، ولا تقولوا: يا سيدنا، ويا أفضلنا، فامتنع الصحابة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، وكانوا يقولون: يا نبي الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم، هكذا كانوا يخاطبون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لا غلو فيه.

❁ قوله: «أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ» حتى قولكم المعتاد لو تركتم منه شيئاً لكان أحسن، وهذا تعليم منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمة بأنها لا تغلو في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قوله: «وَلَا يَسْتَجْرِئُكُمْ الشَّيْطَانُ» أي: لا يتخذنكم الشيطان جرياً له، والجري معناه: الرسول، أي: لا تكونوا رسلاً للشيطان يستعملكم فيما يسخط الله عَزَّ وَجَلَّ من الغلو.



وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَيْرَنَا وَابْنِ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ^(١).

قوله في حديث أنس: (أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا...) الحديث: كره ذلك لئلا يكون وسيلة إلى الغلو فيه والإطراء، كما تقدم في قوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٢).

وهذا من كمال نصحه للأمة وشفقته عليهم، حذرهم مما يكون ذريعة إلى الغلو فيه.

وقوله: «أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»: فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان: العبودية الخاصة، والرسالة، وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكملها، وقد أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه، وأمر أمته أن يصلوا عليه، وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فلا يُذكر في الأذان والتشهد والخطب، إلا ذكر معه صلوات الله وسلامه عليه.

وأما إطلاق (السيد) فقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في «بدائع الفوائد» ما نصه: (اختلف العلماء في جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قوم، ونقل

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٧١).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٣٠).

عن مالك، واحتجوا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قِيلَ لَهُ: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ». وجوزوه قوم، واحتجوا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَنْصَارِ: «قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدِكُمْ»^(١)، وهذا أصح من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يُقال للتميمي: سيد كندة، ولا يقال للملك: سيد البشر.

قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يُطلق على الله هذا الاسم. وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو في منزلة الملك والمولى والرب، لا بمعنى الذي يُطلق على المخلوق). انتهى^(٢).

قلت: فقد صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ أَصْكَمُ﴾: إِنَّهُ السَّيِّدُ الَّذِي كَمَلَ فِيهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ السُّودَدِ^(٣). وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سُودده^(٤).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ» أي: قولوا بقولكم المعتاد، ولا تقولوا: يا سيدنا، أو يا خيرنا، أو يا أفضلنا، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، يا أبا القاسم، وهذا الذي كان يُخاطب به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٧٢٩، ٧٣٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٧٤)، وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٨٣).

(٤) أخرجه البخاري معلقاً -كتاب تفسير القرآن-، باب قوله: ﴿اللَّهُ أَصْكَمُ﴾ (ص ٩٥٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠٠).

❖ قوله: «وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ» أي: لا يوقعكم في الهوى الذي يُضِلُّ عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ. أو يسهويناكم: من الهوى، وهو: الوقوع في الهلاك، أي: لا يوقعكم الشيطان في الضلال، أو لا يوقعكم في الهوى الذي يضلُّكم عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَدَرَّجُ بِنَبِيِّ آدَمَ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يُهْلِكَهُمْ. فعلى المسلم أن يحذر من الشيطان واستدراجِه واستهوائه، ولا يتساهل مع الشيطان في شيء ولو كان صغيرًا، فَإِنَّهُ يَكْبُرُ وَيَعْظُمُ.

❖ قوله: «أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أي: سموني باسمي: «محمد»، ونادوني بصفتي: «عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَلِكِ شيء، وليس له من الألوهية شيء، وقد وصفه الله بالعبودية، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، سماه عبدًا وسماه رسولًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسَ ۝١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١-٣]، سماه الله عبدًا، وسماه رسولًا، فادعوه بما سماه الله به: «مُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، ولا تقولوا: سيدنا.

❖ قال: «مَا أَحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ»، أنزله الله عَزَّوَجَلَّ منزلة العبودية، وجعله خاتم المرسلين، وهذا أشرف المقامات،

أما أن يُعتقد أنه يُدبر مع الله، أو أنه يُستغاث به بعد موته، أو يُطلب منه الحاجات، أو أنه يعلم الغيب - كما يظنه المخرفون - فهذا كله من الباطل، ومن عمل الشيطان. فلا يجوز الغلو في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا دعاؤه من دون الله، وإنما الواجب محبته، وطاعته، واتباعه، فتكون محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من محبة المال والنفس والأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وتكون طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بامثال أمره، واجتناب نهيه، واتباعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما شرع، وألا نبتدع شيئاً من عندنا لم يشرعه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قوله: (وقد أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه، وأمر أمته أن يصلوا عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُثني عليه بأحسن ثناء وأبلغه، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فلا يُذكر في الأذان والتشهد والخطب إلا ذكر معه صلوات الله وسلامه عليه) قرن اسمه مع اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يُذكر الله إلا ويُذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: في الأذان، وفي الخطب، وفي التشهد، مصداقاً لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، هذا هو رفع الذكر، وهذا يكفي في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم نقل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ خلاف العلماء في جواز إطلاق لفظ (السيد)، يعني: هل يجوز أن يُقال للشخص: يا سيدنا، أو يا سيد؟

اختلف العلماء في الجواب على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم إطلاق لفظ (السيد) على المخلوق، فلا يُقال السيِّد إلا في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما جاء في هذين الحديثين: «السَّيِّدُ اللَّهُ»، وهذا مرويٌّ عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأجابوا عن الأحاديث المخالفة بأنها أحاديث متقدمة، وأن حديث: «السَّيِّدُ اللَّهُ» متأخر؛ لأنَّه كان في عام الوفود في السنة التاسعة، فيكون ناسخاً للأحاديث التي تدلّ على جواز إطلاق لفظ (السَّيِّد) على المخلوق.

القول الثاني: جواز إطلاق (السَّيِّد) على المخلوق، عملاً بالأحاديث التي فيها ذلك، مثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»^(١)، وقوله: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»^(٢)،

❦ وقوله: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»^(٣)، فيجوز إطلاق لفظ (السيد) على المخلوق كما في هذه الأحاديث.

وأجابوا عن حديث المنع بأنَّه محمولٌ على كراهة التنزيه، فيكون النهي للتنزيه.

القول الثالث: الجواز مطلقاً بلا كراهة، إلّا إذا خيف من الغلو، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف عليهم من الغلو، كما في الحديثين المذكورين، فإذا خيف على الإنسان من الغلو يُنهي عن ذلك، أمّا إذا لم يُخَفَ عليه من الغلو فلا بأس، عملاً بالأحاديث الكثيرة التي جاء فيها إطلاق السيد على المخلوق.

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد في المسند (٢/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وجاء نحوه من حديث ابن عباس، وجابر، وأنس، وعائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله شاهد عند مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تحريجه (٤٨٩/٣).

وهناك قولٌ رابعٌ ألمح إليه المشايخ، وهو: أنه لا يجوز إطلاق السيّد على الشخص في حضوره ومواجهته، ويجوز إطلاقه عليه وهو غائب؛ لأنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنّما استنكر هذا لما واجهوه به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيُمنع مواجهة الإنسان بقول: (أنت السيّد)، (أنت سيّدنا)، أو ما أشبه ذلك، خوفاً عليه من الإعجاب بنفسه، كما نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مدح الإنسان حال حضوره.

هذا حاصل الأقوال في هذه المسألة.

تنبيه: الآن لفظ (السيّد) صار يُطلق على من يُعتقد فيهم النفع والضرر، مثل من يسمّونهم السادة من أهل البيت، أو السادة من الصوفية، وصار يصحب هذا القول اعتقاد في الأشخاص، وهذا لا شكّ في تحريمه.

فإذا أُطلق (السيّد) على مثل هؤلاء فإنّه محرّم، لأنّه ينبئ عن اعتقاد باطل وشرك بالله عزّ وجلّ، وأنّ هؤلاء ينفعون ويضرّون، وأن البركة تحلّ منهم.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ.

الثَّانِيَّةُ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: أَنْتَ سَيِّدُنَا.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «وَلَا يَسْتَجِرِّيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ» مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ.

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي».

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأولى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ)؛ لأنه لما خشي عليهم الغلو منعهم من قولهم: (أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَأَنْتَ أَفْضَلُنَا، وَأَنْتَ خَيْرُنَا).

❁ قوله: (الثَّانِيَّةُ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: أَنْتَ سَيِّدُنَا) ألا يقبل من المداحين مدحهم، بل ينهاهم عن المدح والإطراء وينكره عليهم.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «وَلَا يَسْتَجِرِّيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ» مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ) حذرهم أن يتخذهم الشيطان رسلاً له يستعملهم فيما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْغُلُوِّ.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي») دل على منع الغلو، وأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُرْفَعُ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ، فلا يُقال: إنه ينفع أو يضر، أو ينجي من النار يوم القيامة، أو أن له شيئاً من العبادة يُعبد مع الله؛ لأن هذا هو الغلو.



٦٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية] أي: من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية.

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (مَا قَدَّرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ). قَالَ السُّدِّيُّ: مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ^(١). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَوْ قَدَّرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَا كَذَّبُوهُ^(٢) (٣).

وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية. الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تحريف.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا هو آخر باب من أبواب «كتاب التوحيد»، وهو باب عظيم، وخاتمة عظيمة لهذا الكتاب؛ لأن هذا الباب يشتمل على ما اشتمل عليه الكتاب من

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/٢٥) عن السدي، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/١٣٤١) عن السدي عن أبي مالك.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/١٣٤١) عن محمد بن كعب قال: «وما علموا كيف هو حيث كذبوه».

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٦٣).

أوله إلى آخره؛ لأن الكتاب كله يدور على إثبات توحيد الألوهية ومكملاته، وبيان الشرك الذي يضاد التوحيد أو ينقصه، وهذا الباب يشتمل على ذلك. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ❦ أي: ما عظموه حق تعظيمه. وهذا يشمل المشركين في توحيد العبادة، فمن أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهُ ما قدر الله حق قدره؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا شريك له، ومن أشرك بالله أحداً من خلقه فقد تنقصه سبحانه، وما عظمه حق تعظيمه.

وكذلك من جحد الأسماء والصفات لله عَزَّوَجَلَّ، أو أولها بغير معناها، وصرفها عن ظاهرها، وعطلَّ الله منها، فما قدر الله حق قدره، حيث نفى عنه ما أثبتته لنفسه مما يدل على كماله وعظمته من أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكذلك من نفى أن يكون الله قدر الأشياء، وأرادها، وخلقها، فقد عَجَزَ الله سبحانه، وجعل المخلوق يشارك الله في الخلق، فهذا ما قدر الله حق قدره.

وكذلك من نفى البعث والحساب والجنة والنار، فهذا ما قدر الله حق قدره؛ لأنه وصف الله بالبعث، وأنه خلق الخلق عبثاً، وليس لأعمالهم نتيجة، لا أهل الخير ولا أهل الشر، فإذا لم يكن هناك بعث وحساب وجزاء فإن الناس يعملون الخير ويعملون الشر وليس لذلك نتيجة ولا فائدة، ويكون هذا من باب العبث، فمن اعتقد ذلك فما قدر الله حق قدره.

وكذلك من عطلَّ كتاب الله، فلم يحكم به على نفسه وعلى الناس، واستبدله بالأدلة العقلية والمنطقية، وعطله عن الاستدلال، وجعل مكانه

الأدلة العقلية والقواعد المنطقية، أو عطله من المحاكم فلم يحكم به بين الناس فيما اختلفوا فيه، وحكم بينهم بالقوانين الطاغوتية، فهذا ما قدر الله حق قدره، حيث عطل كتابه سبحانه الذي أنزله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وكذلك كل من عصى الله وخالف أمره، وارتكب ما نهى عنه، وترك ما أوجب الله عليه، فما قدر الله حق قدره إذ خالف أمره وارتكب نهيه. وكل هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، فهم داخلون في هذه الآية.

وهذه الآية جاءت في ثلاثة مواضع من كتاب الله:

في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفي سورة الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

وفي سورة الزمر - وهي التي ساقها المؤلف هنا-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

❁ ثم ذكر في هذا الباب ما يفسر هذه الآية من الصحيحين وغيرهما، ولهذا قال: (باب ما جاء في قوله عَزَّجَلَّ...) يعني: ما جاء من الأحاديث التي تفسر هذه الآية الكريمة.

✽ قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية) وكثير من الجهال والمغرورين بفكرهم وعقلهم يكذبون بالأحاديث إذا لم توافق أهواءهم، أو لم تدخل تحت تصورهم، أو تخالف القواعد التي قعدوها، يكذبون بها ويقولون: هذه حتى لو صحت عن الرسول فمعناها غير صحيح وغير حق؛ لأنه يخالف العقل والمنطق!!

سبحان الله!! يكذبون الله ورسوله، ويزعمون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بكلام ولا يريد معناه، ويردونه أو يؤولونه لأن عقولهم لم تتصوره ولم تفهمه، والعيب في عقولهم وفي قواعدهم التي قعدوها، وليس في كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتناقض أبداً؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى.

✽ قال: (الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو: إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف) ما ذكر في هذا الباب وفي غيره الطريق فيه طريق السلف، وهو الأسلم والأعلم والأحكم، وهو: أن تسلم لله عَزَّجَلَّ ما جاء فيها، وتعتقد ما فيها، وأنه حق، ولو لم يتصوره عقلك، ولو لم تفهمه، فأنت أقصر وأضعف من أن تدرك كل ما جاء عن الله وعن رسوله. واسأل نفسك: هل أنت تحيط بهذا الكون؟ هل أنت تعلم ما كان في الماضي وتعلم ما يكون في المستقبل؟ ستجد الإجابة على لسانك بأنك قاصر ضعيف.

فعليك الإيمان بما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا صح الحديث نعلم أنه حق، سواء فهمناه أو لم نفهمه، ونسلم لله عَزَّجَلَّ، والله عَزَّجَلَّ يقول:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩] يعني: حقيقته ووقوعه في المستقبل، فإذا جاء تأويله حينئذ يصدقونه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فهؤلاء الذين كذبوا في الدنيا وقالوا: أبداً هذا ما يتصوره العقل، ولا يوافق الفكر، إذا وقع هذا الذي أخبر الله عنه فإنهم حينئذ يدركون أنهم أخطأوا، قال عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]. فالواجب على العبد ألا يكذب ولا يشك ولا يتردد فيها صح عن الله ورسوله، ماضياً كان أو مستقبلاً، فيؤمن بذلك، ويسلم له، وهذا هو الإيمان بالغيب. أما الذي لا يؤمن إلا بالمُشاهد، وينكر ما ورد في الكتاب والسنة من أخبار الماضي والمستقبل، فهذا لم يؤمن؛ لأن الإيمان هو: الإيمان بالغيب بما مضى وما يستقبل.



عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْزُؤُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللَّهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ». أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: [عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ... الحديث]: وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي^(٢)، من طرق عن الأعمش به.

وقال البخاري: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ مُسَافِرٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، أَنَّ

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٤٦/٦، ٤٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٤٦/٦، ٤٤٧).

أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»^(١). تفرد به من هذا الوجه.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ) الخبر: هو العالم، يُقال: خبر، ويقال: حبر، وأغلب ما يُطلق الخبر على العالم من اليهود، قال عَزَّجَلَّ: ❁ أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا ❁ [التوبة: ٣١]، الأحبار: علماء اليهود، والرهبان: علماء النصارى.

❁ قال: (فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ) لَمَّا كَانَ الْيَهُودُ يَجْحَدُونَ رِسَالَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَخَاطَبُونَهُ بِاسْمِهِ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَوْ يَقُولُونَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِرِسَالَتِهِ ظَاهِرًا، وَإِنْ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِهَا بَاطِنًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِلَّا فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ عَزَّجَلَّ: ❁ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ❁ [البقرة: ١٤٦].

فهذا الخبر من اليهود نادى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمه، ولم يقل: يا رسول الله، والمشروع للمسلم أن يدعو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برسالته أو نبوته؛

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢، ٧٤١٣) من الطريق المذكور موصولاً ومعلّقاً.
وأخرجه البخاري (٦٥١٩، ٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من طريق ابن شهاب الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً.

لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَنِينَكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فيقال: يا رسول الله، يا نبي الله، بل الله عَزَّجَلَّ لم يناده باسمه في القرآن، إنما خاطب الله عَزَّجَلَّ نبيه في القرآن بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾، ﴿يَأْتِيهَا الْنَبِيُّ﴾، وإذا كان المقام مقام إخبار فإنه يأتي باسمه؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، أما إذا جاء في النداء فإنه يناديه بالرسالة أو بالنبوة، تعظيمًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من حقوقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن توقيره واحترامه أن يدعى بما مَنَّ الله به عليه من الرسالة والنبوة.

❖ قوله: (إِنَّا نَجِدُ) يعني: في كتابنا، وهو التوراة، والتوراة كتاب عظيم أنزله الله على رسوله وكليمه موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو في أصله كتاب عظيم لكن اليهود حرفوه وغيروا فيه كثيرًا.

❖ قوله: (أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالْثَرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ) هذا فيه ذكر خمسة أصابع لله عَزَّجَلَّ، وأنه عَزَّجَلَّ يحمل على كل أصبع يوم القيامة قسمًا من هذه المخلوقات العظيمة، فكل هذه المخلوقات يحملها الله على أصابعه، وهذا يدل على عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقوته وقدرته.

فالسماوات السبع على عظمها - كما يأتي في وصفها وضخامتها - يجعلها سبحانه على إصبع واحدة من أصابعه، والأراضين السبع على إصبع

على ضخامتها وسعتها وانبساطها، الشجر الذي في الكون كله يجعله سبحانه على إصبع من أصابعه، والماء كله - البحار والأنهار والآبار وكل المياه التي في السماوات والأرض - يجعله الله على إصبعه، والثرى يعني: الرمال كلها والأتربة كلها التي على وجه الأرض يجعلها الله على إصبعه، وباقي المخلوقات مما لم يرد فيما سبق يجعلها الله على إصبع. إذاً كل المخلوقات يحملها الله على أصابعه الخمس، وهذا يدل على عظمته عَزَّوَجَلَّ، وما ذلك على الله بعزيز، الذي خلقها وأوجدها يقدر على أن يحملها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا فيه إثبات الأصابع لله عَزَّوَجَلَّ، وأنها خمس، ولكنها ليست كأصابع المخلوق، بل هي أصابع تليق بعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❦ قوله: (فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ) أي المنفرد بالملك، هذا يوم القيامة حيث تعود الأملاك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يبقى ملك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يتكلم أحد ويدعي أن له ملك كذا وكذا، فيجيب الله عَزَّوَجَلَّ نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فالملك كله بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]. فيعطي الله الملك في الدنيا لبعض خلقه، ولكنه ملك مؤقت إلى زوال، إما أن يزول عن صاحبه وهو حي، وإما أن يموت صاحبه وينتقل إلى غيره، فلا ملك يستقر في هذه الدنيا، والمالك الحقيقي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففي يوم القيامة

لا يبقى لأحد ملك، ويصير ملوك الدنيا كسائر الناس، ويتساوى الناس كلهم: الملوك، والصعاليق، والأغنياء، والفقراء، كلهم يتساوون يوم القيامة، فلا يكون لأحد على أحد ميزة.

❦ قوله: (فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ) هذا فيه الفرح بالحق، حيث ضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرحًا بموافقة هذا الحق الذي في التوراة لما في القرآن، واعتراف هذا الخبر به، وهذا دليل من أدلة نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذا موجود في الكتاب الذي أرسل به وهو القرآن. فوافق ما في التوراة ما في القرآن؛ لأن كل من التوراة والقرآن من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أعجبه الشيء يتبسم، فإذا بالغ في التبسم بدت نواجذه، يعني: أوائل أضراسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه ما كان يبالي في الضحك ويقهقهه كما بعض الناس، وإنما كان ضحكه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبسمًا، وإذا بالغ بدت نواجذه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَنَبَسَسَ صَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]. أي: النملة.

❦ قال: (ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾) ليعين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ما عند هؤلاء اليهود في كتابهم، هو عندنا في كتابنا؛ لأن كتابنا - والله الحمد - مهيمن على الكتب قبله وحاكم عليها.

❁ قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ مُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ عَلَى إِصْبَعٍ») في رواية لمسلم لهذا الحديث جمع بين الجبال والشجر على أصبع واحدة، وهذا يدل على العظمة أيضًا. (ثُمَّ يَهْرُ هُنَّ) أي: يهز الجبال والشجر على عظمها وكثرتها، وهذا يدل على قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته، (ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ) يعني: لا ملك غيري، (أَنَا اللَّهُ) لفظ الجلالة (الله) معناه ذو الألوهية، أي: العبودية على خلقه أجمعين، فالله والإله معناه المعبود؛ لأن العبودية معناها العبادة، ف-(إله) معناه معبود، فالله هو الملك وحده، وهو المعبود بحق وحده، أما ما عبد من دونه فهو باطل، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

❁ قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ) يعني: لهذا الحديث رواية تفرد بها البخاري لهذا الحديث: (يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالْثَرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ) هذا فيه أنه يجعل المخلوقات على ثلاثة أصابع، وفي الحديث الأول يجعل المخلوقات كلها على خمس، ولا تنافي بين هذه الروايات؛ لأن كلها تدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وَلِئْسَ لِمَنْ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضَيْنِ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(١).

قوله: [وَلِئْسَ لِمَنْ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضَيْنِ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»]:
كذا في رواية مسلم، قال الحميدي^(٢): وهي أتم^(٣).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا مذكور في الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].
والحديث يفسر هذا، أنه يطوي السماوات بيده اليمنى، ويطوي الأرضين بيده الشمال، تُسمى شمالاً وهي في الحقيقة يمين؛ لأن كلتا يديه يمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٣) معلقاً، ومسلم (٢٧٨٨) موصولاً مرفوعاً من طريق عمر بن حمزة، عن سالم، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه البخاري (٧٤١٢) مرفوعاً مختصراً من طريق عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) هو أبو عبد الله الحميدي محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد، الحافظ العلامة، مؤلف الجمع بين الصحيحين، توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، صحب ابن حزم، وابن عبد البر، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، وكان ظاهري المذهب. انظر: وفيات الأعيان (٢٨٢/٤)، وسير أعلام النبلاء (١٩/١٢٠)، وطبقات الحفاظ (ص ٤٤٦).

(٣) انظر: الجمع بين الصحيحين (١٨٤/٢).

كما صح في الحديث^(١)، بخلاف المخلوق فإن شماله غير يمينه، أما الله عزَّ وجلَّ فكلتا يديه يمين وإن كانت إحداهما تسمى شمالاً.

✽ قوله: «أَنَا الْمَلِكُ» - كما في الرواية الأولى - أي: المنفرد بالملك، فلا أحد يدَّعي ويقول: أنا لي الملك الفلاني. لأن الأملاك انتهت في الدنيا، وصار الناس كلهم فقراء إلى الله عزَّ وجلَّ، كلهم يوم القيامة متساوون لا فرق لأحد على أحد: الأغنياء، والفقراء، والملوك، والصعاليق، والعلماء، والجهال، والجن، والإنس، والملائكة، كلهم عباد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس لأحد ملك.

✽ ثم يقول: «أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟» الذين كانوا في الدنيا يتكبرون على الناس، ويبغون عليهم، أين ذهب جبروتهم؟ لماذا لم يقاوموا في هذا الموقف؟ يزلون يوم القيامة ويضعفون، ولا يبقى معهم جنود، ولا يبقى معهم قوة، ولا يبقى معهم أي شيء، حتى الثياب ليس عليهم ثياب، يُبعثون حفاة عراة غرلاً^(٢) يعني: غير مختونين، زال عنهم ملكهم وجبروتهم وطغيانهم، وبقي الخلق كلهم ضعفاء فقراء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا أحد ينجيه إلا عمله الصالح.



(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حَفَاةَ عَرَاةَ غُرْلًا...».

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا فيه إثبات الكف لله عَزَّوَجَلَّ، وقد تقدم بيان معنى هذا الأثر من الآية والأحاديث، وأن الله يطوي السماوات بيمينه، والأراضين بشماله، وتصبح السماوات على عظمتها وعلى سعتها كالخردلة، وكذلك الأراضين تصبح كالخردلة، والخردلة بالنسبة لابن آدم ليست بشيء، وهذا ليس من باب تشبيه المخلوق بالخالق، إنما هو من باب التقريب للناس بالمثال، ومن باب ضرب الأمثلة التي توضح حقارة المخلوقات بالنسبة إلى الله وعظمة الله سبحانه، وأن المخلوقات بالنسبة إلى الله كالخردلة في كف أحدنا.

فهذا تشبيه للصغر بالصغر، وليس هو تشبيه للمخلوق بالخالق عَزَّوَجَلَّ.

قال شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ «أضواء البيان»: «فتحصل من جميع هذا البحث أن الصفات من باب واحد، وأن الحق فيها متركب من أمرين:

الأول: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن مشهابة الخلق.

والثاني: الإيذان بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إثباتاً أو نفياً، وهذا هو معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والسلف الصالح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كانوا يشكون في

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤ / ٢٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٥٦ / ١٠).

شيء من ذلك، ولا كان يشكل عليهم، ألا ترى إلى قول الفرزدق، وهو شاعر فقط، وأما من جهة العلم فهو عامي:

وكيف أخاف النَّاسَ واللَّهَ قابِضٌ على النَّاسِ والسُّبُعَيْنِ في راحة اليد^(١)

ومراده بالسبعين: سبع سماوات وسبع أرضين، فمن علم مثل هذا من كون السماوات والأرضين في يده عَزَّجَلَّ أصغر من حبة خردل، فإنه عالم بعظمة الله وجلاله، لا يسبق إلى ذهنه مشابهة صفاته لصفات الخلق، ومن كان كذلك زال عنه كثير من الإشكالات التي أشكلت على كثير من المتأخرين، وهذا الذي ذكرنا من تنزيه الله عَزَّجَلَّ عما لا يليق به، والإيمان بها وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو معنى قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة.

ويروى نحو قول مالك هذا عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والعلم عند الله عَزَّجَلَّ^(٢). انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.



(١) انظر: أساس البلاغة (٢/ ٢٨٣)، ولسان العرب (٨/ ١٤٧).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ٣١، ٣٢).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: فَحَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي تَرَسٍ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا وما بعده فيه بيان نسبة بعض المخلوقات إلى بعض، وأن بعضها أعظم من بعض، فأعظم المخلوقات على الإطلاق العرش، ثم من بعده الكرسي، ثم من بعد الكرسي السماوات والأرض، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فالسماوات السبع على سعتها وعظمتها والسماء: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا يَبْتَثِيرُ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] هذه السماوات السبع بالنسبة للكرسي كسبعة دراهم في ترس سبعة، والدراهم معروفة لو وضعتها في ترس، يعني: في قاع من الأرض، ماذا تكون نسبتها إلى القاع؟ تكون ضعيفة وضئيلة. وقيل: إن المراد بالترس ما يجعله المقاتل دونه يتترس به، وهو على شكل الصحن، يكون من الحديد المقوى ومن الفولاذ، يجعله أمامه يتترس به من السهام، فهذا الترس الذي هو الصحن على هذا التفسير لو وضعت فيه سبعة دراهم ماذا تكون نسبتها إلى هذا الصحن الواسع؟ تكون ضئيلة، كذلك السماوات بالنسبة للكرسي، وهذا يدل عليه قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والكرسي غير العرش، العرش أعظم من الكرسي.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧)، والذهبي في العلو (ص ١١٧).

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

العرش أعظم من الكرسي، فالسماوات السبع والأرضين السبع كلها بالنسبة إل الكرسي كسبعة دراهم أُلْقِيَتْ في ترس، والكرسي على عظمته هذه أصغر من العرش، فهو بالنسبة للعرش كحلقة من الحديد أُلْقِيَتْ في أرض فلاة، ماذا تكون نسبة الحلقة إلى الفلاة؟ تكون ضئيلة جدًّا، كذلك الكرسي على سعته يكون بالنسبة للعرش كحلقة في أرض فلاة.

فدل هذا على وجود العرش، وأنه أعظم المخلوقات، وأنه أكبر من الكرسي، والكرسي أكبر من السماوات والأرض. كل ذلك يدل على عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ.

وفي هذا رد على من فسر العرش بالملك، أو غير ذلك من التأويلات الباطلة.



(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٣٦).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»^(١). أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زُرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ. وَرَوَاهُ بَنُوهُ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا في بيان المسافة بين الأرض والسماء الدنيا، والمسافة بين السماء الدنيا والسماء الثانية ... إلى آخر سبع سماوات.

فالمسافة بين الأرض والسماء الدنيا خمسمائة عام، والمسافة بين السماء الدنيا وما فوقها خمسمائة عام، وكل سماء وسماء بينها خمسمائة عام إلى السماء السابعة، وكثف كل سماء سمكها خمسمائة عام، وفوق السماوات الكرسي خمسمائة عام، وفوق الكرسي بحر ما بين أسفله وأعلى خمسمائة عام، وفوق البحر العرش، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]. هذا بحر غير البحر الذي في الأرض، هذا بحر في السماء لا يعلم عظمته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ١٠٤٧)، والتوحيد لابن خزيمة (٢/ ٨٨٥)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٦)، والديلمي في الفردوس (٤/ ٧٨)، وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص ١٠٥).
(٢) انظر: العلو للذهبي (ص ٤٥، ٤٦).

فالمخلوقات مرتبة على النحو التالي:

أولاً: الأرض وبينها وبين السماء الدنيا خمسمائة عام.

ثانياً: السماوات السبع.

ثالثاً: الكرسي.

رابعاً: البحر.

خامساً: العرش.

والله عزَّ وجلَّ فوق العرش.

❦ قوله: (وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ) هذا فيه إثبات علو الله سبحانه وتعالى فوق مخلوقاته، كما وردت بذلك الأدلة من الكتاب والسنة والفقرة، تدل على علو الله على مخلوقاته، ومع علوه فوق مخلوقاته لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه مع علوه عالم بكل ما يكون بهذا الكون، قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، يعني: بعلمه سبحانه وإحاطته هو معنا، وهو فوق سماواته على عرشه، ولا يتنافى علوه مع إحاطته وعلمه بما في هذا الكون، فليس هو كالمخلوق إذا ارتفع وبعد يخفى عليه ما تحته.

فهذا فيه إثبات علو الله على عرشه، كما صرح الله بذلك في سبعة مواضع من القرآن، بقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفيه إثبات علم

الله المحيط بكل شيء، وأنه لا يتنافى علوه مع علمه سبحانه بكل شيء؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]. فهذه المعية معية علم.

ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله: (فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ)، أي: بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، (وَوَحْتَمَ بِالْعِلْمِ)، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، (فَبَيَّنَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ يَعْلَمُهُمْ حَيْثُ كَانُوا لَا يَخْفُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مُنَاجَاتُهُمْ)^(١)، فدل على أن المعية معية العلم، وليست معية المخالطة والمماسّة، كما يقول المشبهة والحلولية.

ثم يأتي بعض المتحدلقين الآن ويقول: أنتم تمنعون التأويل، وأنتم تؤولون هذه الآية فتفسرونها بالعلم، ولم تجعلوها على ظاهرها أن الله مختلط بالناس!!

نقول له: كذبت، هذا ظاهرها عندك أنت، فإما أنك لم تفهم الآية، أو أنك ملبس على الناس؛ لأن الآية تُفسر بعضها بعضاً، بأن المراد: معية العلم، ليست معية المخالطة؛ لأن الله بدأها بالعلم، وختمها بالعلم، مع الأدلة

(١) انظر: فهم القرآن للمحاسبي (٣٥٢)، ومجموع الفتاوى (٧٠ / ٥).



.....

الأخرى المتواترة أن الله فوق سماواته عالٍ على مخلوقاته لا يمكن أن يكون مخالطاً لمخلوقاته أبداً، وحتى لو كانت هذه الآية ليس فيها ما يفسرها، فهناك أدلة أخرى تواترت على أن الله عَزَّجَلَّ فوق مخلوقاته، مستوٍ على عرشه، وليس حالاً في مخلوقاته.



قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها - وهي كثيرة جدًا - تدل على عظمة الله، وكماله، وعظيم قدرته، وفيها الرد على الجهمية، والأشاعرة، ونحوهم أيضًا.

وكل ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله يدل على كماله وعظمته وجلاله، وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده، لا يصلح منها شيء لملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا لمن دونهما.

... — الشَّيْخُ — ...

فيها الرد على الجهمية والأشاعرة، ومن هنا نحوهم في نفیهم علو الله على عرشه، وقولهم: الله في كل مكان، ونفیهم الصفات الذاتية، كالوجه، واليدين، والكف، والأصابع، وقولهم: هذا تجسيم!!

سبحان الله!! أليس هذا هو ما ذكره الله سُبحَانَهُ وتعالى عن نفسه وهو أعلم بنفسه؟ وأخبر عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أعلم بالله عزَّ وجلَّ؟ ثم تأتي أنت فتقول: هذا تجسيم!! هذا يعني أنك ترد على الله وعلى رسوله، بل التجسيم من عندك وفي عقلك، أما صفات الله التي أخبر عنها في كتابه وسنة نبيه فهي حق، والتجسيم ما جاء نفیه ولا إثباته في كتاب الله عزَّ وجلَّ، إنما هو قاعدة وضعها المتكلمون ما لها من أصل.

❦ قوله: (وكل ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، يدل على كماله وعظمته وجلاله) لا شك في هذا، كل ما ذكره الله عن نفسه، أو ذكره عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو حق يجب الإيـان به، ولا نقول: هذا تجسيم، أو هذا

تشبيهه، ونحكم على النصوص بأفهامنا، وعقولنا، وقواعدنا القاصرة، هذا لا يجوز، بل الواجب العكس أننا نحكم على القواعد والمفاهيم بالنصوص، فما وافق النصوص أخذنا به، وما عارض النصوص ألقينا به عرض الحائط.

ففي هذا الرد على الجهمية، الذين هم أصل البلاء وأصل الشر، الذين أنكروا الأسماء والصفات، ثم تبعهم على ذلك المعتزلة والأشاعرة والكلابية والماتريدية، وكل من نفى الأسماء والصفات أو نفى بعضها فإنه على هذا المنهج الضال المخالف لكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❦ قوله: (وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده، لا يصلح منها شيء لملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا لمن دونهما) إذا كان الله عَزَّجَلَّ بهذا الجلال وهذه العظمة، وأنه أعظم من كل شيء، وأن المخلوقات بالنسبة إليه حقيرة صغيرة، فإنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وما عداه فهو مخلوق ضعيف لا يستحق شيئاً من العبادة، لا ملك من الملائكة المقربين، ولا نبي من الأنبياء، ولا الأولياء والصالحين، كلهم عباد الله مفتقرون إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة: مملوء بما هو إما نص أو ظاهر أن الله عَزَّجَلَّ فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السماوات مستو على عرشه)^(١).

وذكر ما يدل على ذلك من الكتاب والسنة.

وقال الأوزاعي^(٢): (كُنَّا والتابعون متوافرون نقول: إن الله عَزَّجَلَّ فوق عَرْشِهِ ونؤمن بما وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ)^(٣).

وقال أبو عمر الطلمنكي^(٤) في كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/١٢)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٤٥).

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد بن عمرو الأوزاعي، إمام أهل الشام في الحديث والفقه، ولد في حياة الصحابة سنة ثمان وثمانين، وكان رأساً في العلم والعمل جم المناقب، ومع علمه كان بارعاً في الكتابة والترسل، كان يسكن دمشق خارج باب الفرائس بمحلة الأوزاع، ثم تحول إلى بيروت فسكنها مرابطاً إلى أن مات بها سنة سبع وخمسين ومائة. انظر: تاريخ دمشق (٣٥/١٤٧)، ووفيات الأعيان (٣/١٢٧)، والوفاء بالوفيات (١٨/١٢٣)، وسير أعلام النبلاء (٧/١٠٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/١٥٠)، والذهبي في السير (٧/١٢٠، ١٢١)، وتذكرة الحفاظ (١/١٧٩، ١٨٠) وصححه، وذكره ابن حجر في الفتح (١٣/٤٠٦)، وقال: «أخرجه البيهقي بإسناد جيد».

(٤) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى المعافري الأندلسي المقرئ المحدث الحافظ عالم أهل قرطبة، الطلمنكي نسبة إلى مدينة (طلمنكة) بالأندلس، صنف كتباً حسناً نافعة على مذاهب السنة ظهر فيها علمه، وكان ذا عناية تامة بالأثر، غيوراً على الشريعة، سيفاً مسلطاً على أهل البدع قامعاً لهم، توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/٥٦٦)، والوفاء بالوفيات (٨/٢٣)، وشذرات الذهب (٣/٢٤٣).

من أهل السنة على أن الله مستو على عرشه بذاته. ذكره الذهبي في كتاب العلو^(١).

وقال أبو عمر الطلمنكي في هذا الكتاب أيضًا: أجمع أهل السنة على أن الله عَزَّوَجَلَّ استوى على عرشه بالحقيقة لا على المجاز.

ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ونحو ذلك من القرآن، أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته، مستوٍ على عرشه كيف شاء^(٢). هذا لفظه في كتابه.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ...) هذا الكلام ذكره شيخ الإسلام في مقدمة الرسالة الحموية، وهي مقدمة عظيمة وقاعدة الاعتقاد.

❁ قوله: (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله مستو على عرشه بذاته) والمعطلة يقولون: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني: استولى على الملك، فالاستواء عندهم معناه الاستيلاء، والعرش معناه الملك، تعالى الله عما يقولون.

وبعضهم يقول: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ هذا مجاز وليس على ظاهره!! والمجاز: هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر، فجعلوا المجازات

(١) انظر: العلو (ص ٢٤٦).

(٢) انظر: العلو (ص ٢٤٦)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٧٦).

والاستعارات والكنيات السبيل إلى نفي معاني النصوص، ويفسرون بها كلام الله عَزَّ وَجَلَّ.

❖ قوله: (أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه) هذا رد على الحلولية الذين يقولون: إن الله في كل مكان، مخالفين بذلك ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة قاطبة من تفسير الآية بالعلم، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني: بعلمه، والمعية واسعة لها عدة معاني، فهي لمطلق المقارنة، سواء المقارنة بالبدن، أو المقارنة بالعلم، أو المقارنة بالإحاطة، فأنت تقول: نسير والقمر معنا. ما معنى معنا؟ هل هو معك إلى جانبك؟ ليس كذلك، بل معنى معنا: أنه في السماء، ولكنَّ نوره وضيائه يسير معك وهو في السماء، إذا كان هذا في المخلوق فالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ بَابٍ أَوْلَى أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وعلمه في كل مكان.

❖ قوله: (وأن الله فوق السماوات بذاته، مستوٍ على عرشه كيف شاء) هذه إجماعات ذكرها الثقات عن أهل السنة والجماعة، على أنهم أثبتوا علو الله على عرشه فوق مخلوقاته، وفسروا معيته للمخلوقين بأنها علمه، وليس المراد منها الاختلاط بالخلق؛ لأن تفسيرها بالحلول والاختلاط تفسير لها بما لا يجوز في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الإجماع حجة قاطعة، ومن خالف الإجماع القطعي فهو كافر.



وقال الحافظ الذهبي: وأول مقالة سُمعت مقالة من أنكر أن الله تعالى فوق العرش هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، فقتله خالد ابن عبد الله القسري، وقصته مشهورة. وأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية فأظهرها واحتج لها بالشبهات^(١)، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل: الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث بن سعد^(٢)، والثوري، وحماة بن زيد^(٣)، وحماة بن سلمة^(٤)، وابن المبارك^(٥)، ومن بعدهم من أئمة الهدى؛ كالإمام أحمد، وخلق من أهل السنة.

(١) انظر: (١١٦/٣).

(٢) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، إمام أهل مصر في الفقه والحديث، ولد بقرقشند وهي قرية من قرى مصر سنة أربع وتسعين، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة. انظر: تاريخ بغداد (٣/١٣)، وتاريخ دمشق (٣٤١/٥٠)، ووفيات الأعيان (١٢٧/٤).

(٣) هو إمام أهل البصرة حماد بن زيد بن درهم الأزدي، كان ثقة ثبًا حجة كثير الحديث، ولد سنة ثمان وتسعين، ومات سنة تسع وسبعين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٧/٢٨٦)، والوفاء بالوفيات (٩٠/١٣)، والعبر (٢٧٤/١)، وطبقات الحفاظ (ص ١٠٣).

(٤) هو حماد بن سلمة بن دينار الإمام العلم أبو سلمة البزار الخرقى البطائني شيخ أهل البصرة، كان رأسًا في العربية فصيحًا بليغًا كبير القدر، شديدًا على المبتدعة، صاحب أثر وسنة، وله تصانيف في الحديث، توفي سنة سبع وستين ومائة، انظر: الطبقات الكبرى (٧/٢٨٢)، والوفاء بالوفيات (٨٩/١٣)، وسير أعلام النبلاء (٧/٤٤٤).

(٥) هو الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، كان مولده سنة ثمان عشرة ومائة، ومات سنة إحدى وثمانين ومائة، طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، لقي التابعين، وأكثر الترحال والتطواف إلى الغاية في طلب العلم والجهاد والحج والتجارة. انظر: الطبقات الكبرى (٥/٤٩٧)، والوفاء بالوفيات (١٧/٢٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٨/٣٧٨).

قال الإمام الشافعي: لله أسماء وصفات لا يسع أحدا رُدُّها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يُعذر بالجهل، ونُثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. انتهى من «فتح الباري»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

كان الجعد بن درهم في آخر عصر بني أمية أول من أنكر علو الله على عرشه، وأنكر صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وقال بخلق القرآن، وزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً. فلما أظهر هذه المقالة الخبيثة قتله خالد بن عبد الله القسري؛ لأنه ملحد، وكانوا يقتلون الملاحدة والزنادقة؛ لئلا يغيروا عقائد المسلمين، وكان هذا بموافقة من أهل العلم في وقته، وشكروه على قتله لهذا الزنديق الملحد كفاً لشره.

قتله يوم عيد الأضحى، لما خطب خطبة العيد رَحِمَهُ اللهُ قال: (أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم؛ لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً)، فنزل عن المنبر وذبحه. وهكذا كان أمراء الإسلام يقتلون الزنادقة والملاحدة كفاً لشرهم.

ونظم ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في قوله^(٢):

(١) انظر: فتح الباري (١٣/٤٠٧). وانظر أيضاً: إثبات صفة العلو لابن قدامة (ص ١٢٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/٧٩).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/٥٠، ٥١).

وَلَأَجْلِ ذَا ضَحَىٰ بِجَعْدٍ خَالِدٍ أَدَا
قَسْرِي يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلُهُ
كَأَنَّ وَلَا مُوسَى الْكَلِيمَ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ
لِلَّهِ دُرُكٌ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

ثم تبنى هذه المقالة من بعده الجهم بن صفوان، فنسبت إليه وقيل
الجهمية، وإلا فإنها في الأصل الجعدية، ثم انتشرت في الناس، ولكن قاوم أهل
الحق وأهل السنة - والله الحمد - هذه المقالة الخبيثة، وبينوا زيفها، ودحضوها
بالأدلة النقلية والعقلية، حتى تبين أنها مقالة زائفة، ومقالة كفرية.

وهذا من فضل الله على هذه الأمة، أنه لا تظهر مقالة ضلال إلا ويقيد الله
لها من يردّها ويبطلها؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾
[الحجر: ٩]. فيقيد الله لأهل الباطل من يرد عليهم من أهل الحق، ويبين بطلان
ما هم عليه.

✽ ثم نقل المصنف رَحِمَهُ اللهُ عن الإمام الشافعي قوله: (الله أسماء وصفات
لا يسع أحدا رُدُّها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام
الحجة فإنه يُعذر بالجهل) إن كان مقلداً ويحسب هذه المقالة مذهبا ورأيا
صحيحا، فإنه يُبين له خطؤها، فإذا أصر على ما هو عليه يُحكم بكفره، أما
من كان يقول هذه المقالة وهو عالم أنها غير صحيحة، فهذا كافر؛ لأنه مكذب
لله ولرسوله. فعلماءهم ودعاتهم يكفرون، وأما جهالهم وعوامهم فإنهم يبين
لهم، فإن رجعوا فالحمد لله، وإلا فإنهم يكفرون.

✽ قوله: (ونثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه) فلا يلزم لإثبات الصفات التشبيه - كما يقول أهل الضلال - بل صفات الله لا تشبه صفات المخلوقين، بل إن صفات المخلوقين أيضًا لا تشابه صفات المخلوقين، فكيف بصفات الخالق عَزَّوَجَلَّ!!

هذا ما عليه أهل السنة والجماعة، وأئمتهم في ذلك صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، ومن جاء بعدهم وسلك سبيلهم.

خذ مثلاً في الخلق: الفيل يسمع ويُبصر، والنملة تسمع وتبصر، هل بين الفيل والنملة تشابه؟ الجواب: ليس هناك وجه تشابه بينهما، فإذا كان هذا الاختلاف موجود في الخلق، فلأن يكون بين الخالق والمخلوق من باب أولى، فلا يلزم من الاشتراك في الصفات ما يلزم منها الاشتراك في الحقيقة والكيفية.

وهذه قاعدة في جميع صفات الله عَزَّوَجَلَّ، أنها ثابتة لله على وجه لا يشبه صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبهة والحلولية لو أن الله هداهم إلى هذا لاستراحوا من هذا العناء، وسلكوا مسلك السلف، وأثبتوها على حقيقتها ومعناها الذي تدلّ عليه، ونفوا عنها المشابهة والمماثلة.



وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَثُفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أخرجَه أبو داود وغيره (١).

قوله: [وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ]: ساقه المصنف مختصراً، والذي في سنن أبي داود عن العباس بن عبد المطلب قال: «كُنْتُ فِي الْبُطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ، فَظَرَّ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟» قَالُوا: السَّحَابُ، قَالَ: «وَالْمُزْنَ». قَالُوا: وَالْمُزْنَ، قَالَ: «وَالْعَنَانُ». قَالُوا: الْعَنَانُ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: لَمْ أَتَقِنِ الْعَنَانَ جَيِّدًا. قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا بَعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قَالُوا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «إِنَّ بَعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثَ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكْبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ» (٢).

(١) أخرجَه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (٢٠٦/١).

(٢) أخرجَه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (٢٠٦/١).

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة، وفيه: «بعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام»^(١).

قال: ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد.

قلت: وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما، مع ما يدل عليه صريح القرآن، فلا عبرة بقول من ضعفه.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث العباس المشهور بحديث الأوعال، وهو حديث ضعيف في سنده لكن تقويه الأدلة وتشهد له الأدلة، فضعفه منجبر بالأدلة الأخرى.

❁ قوله: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ» هذا تشهد له الأدلة التي قبله، والتي جاء فيها أن ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة.

❁ قوله: «وَكِثْفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ» يعني: سمك كل سماء، وليست السماء معناه أنها شفافة أو أنها غير سمكية، بل هي سمكية كثيفة خمسمائة سنة كثفتها يعني سمكها.

❁ قوله: «وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» وهذا غير البحر الذي في الأرض، البحر الذي في الأرض بحر عظيم، الله عَزَّوَجَلَّ أحاط السماوات بالبحر كما أحاط الأرض

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨).

بالبحر، وهو - والله أعلم - المذكور في قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، هذا بحر في السماء لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: «وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ» هذا الحديث تشهد له الأحاديث والروايات التي قبله أن السماوات فوق الأرض، وأن الكرسي فوق السماوات، وأن البحر فوق الكرسي، وأن العرش فوق البحر، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق العرش، فعظم هذه المخلوقات يدل على عظمة الله سبحانه وعَرْجَلٍ.

❁ فقولُه: «فَوْقَ ذَلِكَ» يعني: عال على خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو عَرْجَلٌ في العلو، وعلوه سبحانه صفة ذات، أما استوائه على العرش فهو صفة فعل، يفعلُه إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا رتبَه بـ (ثم) في قوله عَرْجَلٌ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، فالاستواء فعل يفعلُه سبحانه إذا شاء، فهو عَرْجَلٌ مستوٍ على عرشه، وعال فوق مخلوقاته، كل هذا نثبته لله كما جاء، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا نحكم على الله ونقول: هذا لا يصلح لله، ونكذب الأحاديث، كما يفعلُه أهل الضلال الذين لا يؤمنون بما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتدخلون بعقولهم وأفكارهم.

والواجب الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة من هذه الصفات، وتسلم لله ولرسوله، وتتهم عقلك وفهمك دائماً بالقصور عن الإدراك، وأنه لا يتسع لهذه الأشياء التي صح بها الخبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولتعلم أن الله جَلَّ جَلَالُهُ أعظم من كل شيء يخطر على بالك.

وفي الرواية الأخرى للحديث، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوْ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ» هذا فيه أن المسافة بين السماء والتي تليها إما إحدى وسبعون، أو اثنتين وسبعون، أو ثلاث وسبعون سنة، لكن جاء في الأحاديث الأخرى أنها خمسمائة سنة، قال أهل العم في الجمع بينها: هذا لاختلاف السير، فبعض السير يكون سريعاً فتكون المدة يسيرة، ويكون بعضه بطيئاً فتكون المدة طويلة.

❁ قوله: «ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَّةٌ أَوْ عَالٍ» هؤلاء هم حملة العرش.

❁ قوله: «وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة، وفيه: «بعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام» هذا وافق لما في الروايات الأخرى قبله.

❁ قوله: «وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما، مع ما يدل عليه صريح القرآن، فلا عبرة بقول من ضعفه» نعم هو ضعيف في سنده، لكنه صحيح بالمتابعات، والضعيف قد يرتقي إلى درجة الحسن لغيره.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.
 الثانية: أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.
 الثالثة: أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ
 ذَلِكَ.

الرابعة: وَقُوعُ الضَّحِكِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا ذَكَرَ الْحَبْرُ هَذَا
 الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

الخامسة: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى،
 وَالْأَرْضَيْنِ فِي الْأُخْرَى.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَّتِهَا الشَّمَالَ.
 السابعة: ذِكْرُ الْجَبَّارَيْنِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.
 الثامنة: قَوْلُهُ: «كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».
 التاسعة: عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ.
 العاشرة: عِظَمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ.
 الحادية عشرة: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.
 الثانية عشرة: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.
 الثالثة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.
 الرابعة عشر: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.

الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.
 السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.
 السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.
 الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: كَيْفَ كُلُّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ.
 التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَغْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ
 خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه، وسلم
 تسليماً كثيراً كثيراً.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ﴾) الحديث فسر الآية، ومعناها: أن الله يطوي السماوات بيمينه
 والأرضين بشماله، ويقول: أنا الملك.

❁ قوله: (الثانية: أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي
 زَمَنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا) فاليهود وإن كان حصل عندهم
 تحريف، وحصل عندهم شر، لكن بقي عندهم من الحق مما في التوراة مثل
 هذه المسألة، فدل على أن الحق يُقبل ممن جاء به.

❁ قوله: (الثالثة: أَنَّ الْحَبَرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَهُ، وَنَزَلَ
 الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ) فيقبل الحق ممن جاء به؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدقه

وهو يهودي؛ لأنه جاء بالحق، ونحن لا نرفض الحق من أجل الشخص، وإنما نقبل الحق من أي أحد.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: وَقَوْعُ الضَّحِكِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا ذَكَرَ الْخَبْرَ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ) وفي هذا مشروعية الفرح بالحق.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى، وَالْأَرْضَيْنِ فِي الْأُخْرَى) هذا فيه إثبات اليمين لله عَزَّوَجَلَّ على ما يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَّتِهَا الشَّمَالِ) في التسمية فقط، وأما المعنى فهي يمين، فهي تخالف شمال المخلوق.

❁ قوله: (السَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ) وأنهم يذهب جبروتهم، ويذهب تكبرهم، ويكونون ضعفاء أمام عدالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: «كَخَرَدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ») وفي هذا تشبيه صغر المخلوقات بالنسبة إلى الله بصغر الخردلة بالنسبة إلى أحدنا، فهو تشبيه صغر بصغر، وليس هو تشبيه الخالق بالمخلوق.

❁ قوله: (التَّاسِعَةُ: عِظْمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ) كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالكرسي أعظم من السماوات، وهو غير العرش.

❖ قوله: (الْعَاشِرَةُ: عِظْمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ) وأن الكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة في أرض فلاة.

❖ قوله: (الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ) خلافاً لمن فسر الكرسي بأنه العلم، ومنهم من فسرهُ بأنه العرش، والصواب أنه غير العرش، وأنه غير العلم، وأنه أعظم المخلوقات.

❖ قوله: (الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ الْخَلْقِ).

❖ قوله: (الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكَرْسِيِّ) خَمْسَمِائَةِ عَامٍ أَيْضًا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.

❖ قوله: (الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ) أَيْضًا خَمْسَمِائَةِ عَامٍ. ❖ قوله: (الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ) فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وَحِيطَ بِهَا.

❖ قوله: (السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ)؛ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿أَسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ﴾ في سبعة مواضع من القرآن، وفي هذا الحديث: «وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ».

❖ قوله: (السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) خَمْسَمِائَةِ عَامٍ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ.

❖ قوله: (الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: كَيْفَ كُلُّ سَمَاءٍ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ) مِمَّا يَدُلُّ عَلَى سَعَتِهَا وَعَظَمَتِهَا.



﴿قوله: (التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ
 وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ) كما أحاط الله عَزَّوَجَلَّ الأرض ببحر عظيم،
 كذلك أحاط السماوات ببحر عظيم، لا يعلم عظمته ولا كيف هو إلا الله
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وقد ابتدأ المصنّف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى هذا المصنّف العظيم ببيان توحيد الإلهية؛ لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام ببيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد.

فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته، فقرر هذا التوحيد كما ترى في هذه الأبواب، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن أكثر العامة لم يكن لهم التفات إلى هذا العلم، الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم.

وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عن خاض في هذه العلوم، وأحسنوا الظن بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فقرروا مذهب الجهمية، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات، وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة، وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين.

وما زال أهل السنة متمسكين بذلك، لكنهم قلوا، فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد، فقررها بأدلتها، فله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق، حين اشتدت غربة الإسلام، فضلّ عنه من ضل من أهل القرى والأمصار وغيرهم، وبالله التوفيق.

وقد اجتمع في هذا المصنّف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بقوله:

وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تَبْيَانٍ
عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الْإِلَهِ وَفِعْلِهِ وَكَذَلِكَ الْأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ
وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي^(١)

وصلى الله على سيد المرسلين، وإمام المتقين محمد، وعلى آله وصحبه
أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ انتهى المصنف رَحِمَهُ اللهُ من أبواب هذا الكتاب العظيم، وختمه
الشارح عبدالرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللهُ بهذه الخاتمة التي أثنى فيها على الكتاب
بقوله: (ابتدأ المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الإلهية؛
لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد) فأول أبواب هذا الكتاب:
(كتاب التوحيد، وقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾)
وهذا في توحيد الألوهية.

✽ قوله: (فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها) فلا يقتصر على
الدعوة إلى التوحيد، بل لابد من النهي عن الشرك؛ لأنك إذا دعوت إلى
التوحيد ولم تبين الشرك ظن الناس أن ما هم عليه توحيد، فإذا بينت أن هذا
شرك عرفوا التوحيد والشرك.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٣٨٣).

❁ قوله: (ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات) يعني: في هذا الباب الأخير أتى بالأدلة على إثبات الأسماء والصفات.

❁ قوله: (لأن أكثر العامة لم يكن لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم) الذي هو علم الأسماء والصفات، فقد خاض فيه كثير من الفرق بالباطل والضلال، وربما أن كثيرًا من الناس تنطلي عليهم أقوال هؤلاء الضلال، فتجد أحدهم متبحرًا في الفقه، والحديث، والتفسير، واللغة، لكنه في التوحيد صفر ما عنده شيء، يعبد القبور، ويستغيث بالأموات، وهو عالم في الفقه، وعالم في التفسير والحديث، لكن يسير مع الدهماء في العقيدة، هؤلاء هم علماء ضلال.

وبهذا انتهى شرح هذا الكتاب المبارك: «كتاب التوحيد» والذي هو حق الله على العبيد، والله عَزَّجَلَّ أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع

✻ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

✻ الاستيعاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

✻ الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية، مصر.

✻ اعتقاد أئمة الحديث، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، تحقيق محمد الخميس، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

✻ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، محمد بن عمر الرازي، تحقيق علي سامي النشار، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة ١٤٠٢هـ.

✻ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

✻ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ.

✻ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

✽ الآداب شرعية، أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ.

✽ أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ م.

✽ الأحاديث المختارة، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، تحقيق عبد الملك ابن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

✽ أحكام أهل الذمة، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، تحقيق: يوسف أحمد البكري، وشاكر توفيق العاروري، دار ابن حزم، الدمام، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

✽ أحكام القرآن، محمد بن عبد الله بن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، لبنان.

✽ أخصر المختصرات، محمد بن بدر الدين بن بلبان الدمشقي، تحقيق محمد ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

✽ الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ.

✽ الأربعون النووية، يحيى بن شرف الدين النووي، تحقيق سمير بن أمين الزهيري، دار الفلق للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.

✽ أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق ماهرياسين الفحل، دار الميمان.

✽ أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

✽ الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

✽ أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ.

✽ الأعلام، خير الدين الزرلكلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

✽ الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت.

✽ أقسام التوحيد، عبد العزيز بن عبد الله بن باز،

✽ أمالي المحاملي - رواية ابن يحيى البيع -، للقاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي، تحقيق د. إبراهيم القيسي، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

✽ الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ.

✽ الأم، للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

✽ الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

✽ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٩٩ هـ.

✽ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، عبيد الله محمد بن بطة العكبري، تحقيق عثمان الأثيوبي، دار الراية للنشر، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ.

✽ الإبهاج، علي بن عبد الكافي السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.

✽ إثبات صفة العلو، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر عبد الله البدر، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

✽ الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد ابن حزم الظاهري، تقديم إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.

✽ الإحكام في أصول الأحكام، لعلي بن محمد الأمدي، المكتب الإسلامي، طبعة ١٤٠٢ هـ، تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي.

✽ إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق صلاح الدين مقبول، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

✽ الإشراف في منازل الأشراف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، تحقيق د. نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ.

✽ الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق علي البجاوي، دار الجليل، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

✽ إعراب القرآن، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق زهير زاهد، عالم الكتب، بيروت.

✽ إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ.

✽ إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

✽ الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، الشيخ عبد العزيز بن باز، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، إدارة الطبع والترجمة، الطبعة الثانية ١٤١١ هـ.

✽ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، علي بن سليمان المرادوي أبو الحسن، تحقيق محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

✽ الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت،

✽ الإيمان الكبير، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمّة، المكتب الإسلامي.

- ✽ الإيمان، محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، تحقيق علي بن محمد الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ.
- ✽ البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ✽ البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.
- ✽ بدائع الفوائد، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، هشام عطا وعادل العدوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.
- ✽ البداية والنهاية، لعلماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٥ هـ.
- ✽ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
- ✽ البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، المعروف بابن الملقن، تحقيق مصطفى أبو الغيط، وعبدالله بن سليمان، وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ.
- ✽ البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٣٩١ هـ.
- ✽ بستان الواعظين ورياض السامعين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن أبي الحسن البغدادي، تحقيق: أيمن البحيري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ.

- ✽ بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.
- ✽ بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.
- ✽ البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت.
- ✽ بيان مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط.
- ✽ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- ✽ التاج والإكليل لمختصر خليل، محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.
- ✽ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- ✽ تاريخ البريهي: (طبقات صلحاء اليمن)، عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهي السكسكي اليمني، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، طبعة ١٤١٤هـ.
- ✽ التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.
- ✽ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ✽ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥ م.
- ✽ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجليل، بيروت، طبعة ١٣٩٣ هـ.
- ✽ تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي، لمحمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري، الطبعة الحجرية، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ✽ تحفة الأشراف لمعرفة الأطراف، الحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة.
- ✽ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.
- ✽ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي تحقيق عبد الوهاب عبداللطيف، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- ✽ تذكرة الحفاظ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدمشقي، تصحيح تحت إعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٧٤ هـ.
- ✽ الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
- ✽ التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

- ✽ تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق د. إكرام الله إمداد الحق، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
- ✽ التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.
- ✽ تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ✽ تغليق التعليق على صحيح البخاري، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق سعيد القزقي، دار عمار، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- ✽ تفسير ابن أبي حاتم: (فسير القرآن)، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
- ✽ تفسير الطبري، (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٥ هـ.
- ✽ تفسير ابن كثير: (تفسير القرآن العظيم)، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠١ هـ.
- ✽ تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.
- ✽ تفسير البغوي، تحقيق محمد النمر، وعثمان صميرية، وسليمان الحرش.
- ✽ تفسير الثعالبي: (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، عبد الرحمن بن محمد ابن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

- ✽ تفسير الثوري، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- ✽ تفسير الصنعاني: (تفسير القرآن)، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ✽ تفسير القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن)، طبعة دار الشعب، القاهرة، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.
- ✽ التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
- ✽ تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج، تحقيق عبدالرحمن الطاهر محمد السورقي المنشورات العلمية، بيروت.
- ✽ تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ✽ التقرير والتحرير، ابن أمير الحاج، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٧هـ.
- ✽ التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تصحيح عبد الله هاشم اليماني، المدينة المنورة، طبعة ١٣٨٤هـ.
- ✽ التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، طبعة ١٣٨٧هـ.
- ✽ تنقيح تحقيق أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، تحقيق أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

- ✽ تهذيب الآثار، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.
- ✽ تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- ✽ تهذيب الكمال، يوسف أبو الحجاج المزي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- ✽ التوحيد وإثبات صفات الرب عزَّ وجلَّ، محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق عبد العزيز إبراهيم الشهوان، دار الرشد بالرياض، طبعة ١٤١٨هـ.
- ✽ التوحيد ومعرفة أسماء الله عزَّ وجلَّ وصفاته على الاتفاق والتفرد، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده لابن منده، تحقيق د. علي بن محمد بن ناصر فقيهي، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ✽ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق محمد أيمن الشبراوي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ✽ الثقات، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ.
- ✽ ثلاثة الأصول وأدلتها، الإمام محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ.

✽ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار المعارف، القاهرة.

✽ جامع بيان العلم وفضله، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.

✽ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، للإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ.

✽ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة ١٤٠٣ هـ.

✽ الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ.

✽ الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ.

✽ جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ.

✽ جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٨ هـ.

✽ جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت.

- ✽ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق علي سيد صبيح المدني، مطبعة المدني، مصر.
- ✽ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ الجواب المفيد في بيان أقسام التوحيد، الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
- ✽ الجواهر المضية في طبقات الحنفية، عبد القادر بن محمد بن نصر الله الحنفي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
- ✽ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي: (شرح مختصر المزني)، علي ابن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- ✽ حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ.
- ✽ حجة الوداع، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨م،
- ✽ حروف المعاني، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

- ✽ الحطة في ذكر الصحاح الستة، أبو الطيب السيد صديق حسن القنوجي، دار الكتب التعليمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.
- ✽ حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ.
- ✽ الحماسة المغربية: (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب)، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١ م.
- ✽ الحماسة، أبو تمام الطائي حبيب بن أوس الخوراني، دار القلم، بيروت.
- ✽ حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، د. سليمان بن عبد الرحمن الحقييل،
- ✽ خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى.
- ✽ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، عالم الكتب، بيروت.
- ✽ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، دار النشر: دار صادر، بيروت.
- ✽ الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٣ م.
- ✽ درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الذهبية، الرياض، طبعة ١٣٩١ هـ.
- ✽ الدراية في تخريج أحاديث الهداية، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق السيد عبد الله المدني، دار المعرفة، بيروت.

✽ الدر النضيد على أبواب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الرحمن الحمدان، مكتبة الصحابة بجدة، الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ.

✽ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد جار الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ.

✽ الدعاء للطبراني، سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

✽ دقائق التفسير: (الجامع لتفسير ابن تيمية)، أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحرائي أبو العباس، تحقيق د. محمد السيد الجليلند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

✽ ديوان المعاني، الإمام اللغوي الأديب أبو هلال الحسن بن عبد الله بن مهران العسكري، دار الجليل، بيروت.

✽ ذيل تذكرة الحفاظ، أبو المحاسن محمد بن علي الدمشقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

✽ ذيل طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

✽ الرد على البكري، أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحرائي، تحقيق محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

✽ الروح، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٥هـ.

✽ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان البستي أبو حاتم، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٧هـ.

✽ روضة المحبين ونزهة المشتاقين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ.

✽ روضة الناظر، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

✽ رياض الصالحين، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤٠٧هـ.

✽ زاد المسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

✽ زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ.

✽ الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق د. حاتم صالح الضامن مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

✽ الزهد الكبير، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عمر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م.

- ✽ الزهد، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ.
- ✽ الزهد، لعبد الله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ الزهد، هناد بن سري الكوفي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ✽ الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ.
- ✽ السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ.
- ✽ سبل السلام شرح بلوغ المرام، لمحمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني اليمني، تحقيق فواز أحمد زمزلي، إبراهيم محمد الجمل، دار الكتاب العربي.
- ✽ السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
- ✽ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي المكي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٩ هـ.
- ✽ السنة لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ.

- ✽ السنة للخلال - دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض.
- ✽ السنة، عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ✽ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- ✽ السنن الأبين، محمد بن عمر الفهري، تحقيق صلاح بن سالم المصراقي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
- ✽ سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، طبعة ١٤١٤ هـ.
- ✽ سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.
- ✽ سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت.
- ✽ سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
- ✽ السنن الكبرى للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
- ✽ السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها، أبو عمرو عثمان ابن سعيد المقرئ الداني، تحقيق د. ضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

- ✽ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- ✽ سنن النسائي (المجتبى)، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ.
- ✽ السنن والابتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، محمد عبد السلام خضر الشقيري، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر.
- ✽ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ.
- ✽ سيرة الإمام أحمد بن حنبل - أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبدالمنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.
- ✽ السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤٠٠ هـ.
- ✽ السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
- ✽ سيف الله على من كذب على أولياء الله، صنع الله بن صنع الله الحلبي، تحقيق علي الرضا، دار الوطن للطباعة والنشر، طبعة ١٤١٩ هـ.
- ✽ السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

- ✽ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ✽ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، سوريا، طبعة ١٤٠٥ هـ.
- ✽ شرح السنّة، للإمام البغوي أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ.
- ✽ شرح السيوطي لسنن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ.
- ✽ شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ.
- ✽ شرح العمدة (في الفقه الحنبلي)، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرّاني الدمشقي، تحقيق سعود العطيشان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.
- ✽ شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ.
- ✽ شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ.
- ✽ شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢ هـ.

✽ شرح علل الترمذي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق همام عبد الرحيم سعيد، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

✽ الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، مطابع الأشراف، لاهور.

✽ شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

✽ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٨هـ.

✽ الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن با بطين مفتي الديار النجدية، علي العجلان.

✽ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل بو طامي.

✽ الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عبد الله الحلواني ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

✽ صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

✽ صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٣٩٠هـ.

✽ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

✽ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

✽ صفة الجنة، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصبهاني أبو نعيم، تحقيق علي رضا عبد الله، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

✽ صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، دار المعرفة بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ.

✽ الصمت، عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، تحقيق أبو إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

✽ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

✽ الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة ١٤٠٦هـ.

✽ الصَّوَاءُ اللَّامِعُ لِأَهْلِ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ، شمس الدِّينِ أَبُو الْخَيْرِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّخَاوِيِّ الْقَاهِرِيِّ الشَّافِعِيِّ، دار مكتبة الحياة، بيروت.

- ✽ طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
- ✽ طبقات الحنابلة، محمد بن أبي يعلى أبو الحسين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- ✽ طبقات الشافعية، لأبي بكر بن أحمد بن محمد ابن قاضي شهبة، تعليق عبد العليم خان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
- ✽ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن عبد الله بن عبد الكافي السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ.
- ✽ طبقات الفقهاء، إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، تحقيق خليل الميس، دار القلم، بيروت.
- ✽ الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الداودي، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
- ✽ طبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٦ م.
- ✽ طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
- ✽ طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ.

- ✽ العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت.
- ✽ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ العرش وما روي فيه، محمد بن عثمان بن أبي شيبة، تحقيق محمد بن حمد الحمود، مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ✽ العزلة، أبو سليمان حمد بن إبراهيم الخطابي، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- ✽ العظمة، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ✽ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- ✽ عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة ١٣٨٥هـ.
- ✽ العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.
- ✽ علماء نجد خلال ثمانية قرون، الشيخ عبد الله البسام.

✽ العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، لشمس الدين الذهبي، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

✽ عمدة القاري شرح البخاري، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث، بيروت.

✽ عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بشير النجدي، دار الحبيب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

✽ عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

✽ العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

✽ غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، تحقيق د. سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق عبدالمعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

✽ غريب الحديث، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

✻ غريب الحديث، أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، طبعة ١٤٠٢هـ.

✻ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

✻ فتح القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر، بيروت.

✻ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، الطبعة السابعة ١٣٧٧هـ.

✻ فتح المغيث شرح ألفية الحديث، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار أحد.

✻ الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه بن شهر دار بن شيرويه الديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٦هـ.

✻ الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

✻ الفروع، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، مراجعة عبدالستار أحمد فراح، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ.

✻ الفروق، لشهاب الدين أبو العباس أحمد القرافي، بهامشه «إدراج الشروق» لابن الشَّاطِ، و«تهذيب الفروق» لمحمد علي، وضع فهارسه رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

✽ الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن محمد ابن حزم الظاهري، تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

✽ فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إسماعيل بن إسحاق الجهضمي القاضي المالكي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ.

✽ فضل علم السلف على علم الخلف، للحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

✽ الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.

✽ الفهرست، محمد بن إسحاق بن النديم، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٣٩٨هـ.

✽ فهم القرآن ومعانيه، الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي أبو عبد الله، تحقيق حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

✽ الفوائد، تمام بن محمد الرازي، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

✽ فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

❖ القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شهابيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

❖ القدر وما ورد في ذلك من الآثار، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، تحقيق د. عبد العزيز عبد الرحمن العثيم، دار السلطان، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

❖ قصيدة عنوان الحكم، أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

❖ القواعد الأربع (ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول)، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، تحقيق عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

❖ القواعد والفوائد الأصولية وما يتعلق بها من الأحكام الفرعية، لابن اللحام أبي الحسن علاء الدين علي بن عباس البعلي الحنبلي، تحقيق وتصحيح محمد حامد الفقّي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

❖ قوت المحتاج في شرح المنهاج، أحمد بن حمدان بن أحمد شهاب الدين أبو العباس الأذرعي، مخطوط في مكتبة الأزهر برقم عام (٨٦٩٨)، ورقم خاص (١٠٠٥).

❖ القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد.

- ✽ القول المفيد على كتاب التوحيد، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، اعتنى به جمعًا وترتيبًا وتصويبًا، وعزا آياته، وخرج أحاديثه، ووضع فهرسه، وأشرف على طبعه: د. سليمان بن عبد الله أبا الخيل ود. خالد بن علي المشيقح، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.
- ✽ الكافي في فقه الإمام أحمد، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ.
- ✽ الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ.
- ✽ الكبائر، شمس الدين الذهبي، دار الندوة الجديدة، بيروت.
- ✽ كتاب العلم، زهير بن حرب أبو خثيمة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.
- ✽ كشف القناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق هلال مصيلحي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٢ هـ.
- ✽ كشف الخفاء ومزيل اللباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ.
- ✽ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مصطفى ابن عبد الله أبو طاهر القسطنطيني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٣ هـ.

- ✽ كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: زهير الشاويش المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.
- ✽ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- ✽ اللامات، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية.
- ✽ اللباب في تهذيب الأنساب، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، دار صادر، بيروت، طبعة ١٤٠٠هـ.
- ✽ لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد ابن مكرم الأنصاري الإفريقي ثم المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ✽ لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق دائرة المعارف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
- ✽ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، أبو الفرج عبد الرحمن البغدادي ابن رجب الحنبلي، تحقيق إياد بن عبد اللطيف القيسي، بيت الأفكار الدولية، لبنان، طبعة ٢٠٠٦م.
- ✽ المبتدأ والخبر لعلماء القرن الرابع عشر.
- ✽ المبدع في شرح المقنع، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٤٠٠هـ.
- ✽ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، وبيروت.

- ❖ مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.
- ❖ المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، بهامشه «فتح العزيز شرح الوجيز» لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي، و«تلخيص الحبير» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر.
- ❖ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، تحقيق عمر الطباع، دار القلم، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.
- ❖ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: (تفسير ابن عطية)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- ❖ المحلّ، لأبي محمد علي بن محمد بن حزم الظاهري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.
- ❖ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ.
- ❖ مختصر اختلاف العلماء، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق د. عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.
- ❖ مداراة الناس، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

✽ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

✽ مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، دار الكتب العلمية، بيروت.

✽ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

✽ المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

✽ المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

✽ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.

✽ مسند البزار: (البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

✽ مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

✽ مسند إسحاق بن راهويه، تحقيق عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيوان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

- ✽ مسند الشافعي، محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✽ مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- ✽ مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.
- ✽ المسند، عبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، القاهرة.
- ✽ مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ✽ مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للإمام أبو الفضل عياض بن موسى ابن عياض الأندلسي المالكي، المعروف بالقاضي عياض، طبع ونشر المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة.
- ✽ مشاهير علماء الأمصار، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي، تحقيق فلايشهر، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٩٥٩ م.
- ✽ مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.
- ✽ مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي، دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- ✽ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الرافعي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

- ✽ مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ✽ مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- ✽ مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، لمصطفى السيوطي الرحباني، مع حاشية الفقيه العلامة حسن الشطي، طبع على نفقة علي بن عبد الله آل ثاني، حاكم قطر، منشورات المكتب الإسلامي.
- ✽ المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.
- ✽ معالم التنزيل، أبو الحسن محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة، وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٩هـ.
- ✽ معالم السنن، للإمام الخطابي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة بيروت.
- ✽ معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني، مطبوعات معهد البحوث العلمية ومركز إحياء التراث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ✽ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد عالم الكتب، بيروت، طبعة ١٣٦٧هـ.
- ✽ معجم الأدباء، أبو عبد الله ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

- ✽ المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥ هـ.
- ✽ معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت.
- ✽ معجم الصحابة، عبد الباقي بن قانع أبو الحسين، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- ✽ المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.
- ✽ المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.
- ✽ المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بمصر، بإشراف عبد السلام هارون، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ✽ معجم ما استعجم، عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ.
- ✽ معجم محدثي الذهب، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق د. روية عبد الرحمن السويقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ.
- ✽ معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٤٢٢ هـ.
- ✽ معرفة القراء الكبار للذهبي، تحقيق بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.

✽ معرفة علوم الحديث، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

✽ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة.

✽ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شرح الشرييني (محمد الخطيب)، دار الفكر، بيروت.

✽ المغني (شرح مختصر الخرقي)، لموفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد ابن قدامة المقدسي الدمشقي الحنبلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، للإمام شمس الدين محمد ابن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

✽ المفهم لما أشكل على صحيح مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب مستو وزملاؤه، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

✽ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي الأشعري، تحقيق هلموت ريتز، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة.

✽ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم ابن محمد بن مفلح الحنبلي، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- ✽ الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤٠٤ هـ.
- ✽ المنتظم لأبي الفرج بن الجوزي، دار صادر، بيروت.
- ✽ المتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي، تحقيق محب الدين الخطيب.
- ✽ منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ✽ منهاج الطالبين وعمدة المفتين، يحيى بن شرف النووي أبو زكريا، دار المعرفة، بيروت.
- ✽ مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العقيدة، تحقيق عبد العزيز الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب، جامعة الإمام محمد بن سعود.
- ✽ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي اللّخمي الغرناطي المالكي، تحقيق مشهور حسن آل سلمان.
- ✽ موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر.
- ✽ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق علي عوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.
- ✽ الناسخ والمنسوخ، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس أبو جعفر، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

✽ النبوت، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة ١٣٨٦هـ.

✽ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي الأتابكي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

✽ نزهة الألباب في الألقاب، أحمد بن علي بن محمد، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

✽ نصب الراية لأحاديث الهداية، عبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق محمد ابن يوسف البنوري، دار الحديث، مصر، طبعة ١٣٥٧هـ.

✽ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أبو العباس أحمد المقرئ.

✽ نقد البردة، عبد البديع صقر.

✽ النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ.

✽ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكافي، دار الجيل، بيروت.

✽ همع الهوامع، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة الفوقية، مصر.

❖ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.

❖ الورع، عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، تحقيق محمد بن حمد الحمود، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

❖ وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.

❖ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق د. مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.



فهرس الموضوعات

- ٣٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ..... ٥
- تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ...﴾..... ٥
- تعريف الرياء..... ٥
- تعريف الوحي..... ٧
- العمل لا يكون صالحًا إلا بشرطين..... ٨
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ...»..... ١٠
- شرح حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي
- مَنْ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟»..... ١٤
- ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفة الدجال لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..... ١٤
- كلام الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين عن الرياء..... ١٧
- هل يجوز أخذ الجعل أو المكافآت على العبادات؟..... ١٧
- مسائل الباب..... ١٩
- ٣٦- بَابُ مِنَ الشَّرِكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا..... ٢١
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد..... ٢١
- تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ
- فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ...﴾..... ٢٣
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ...»..... ٢٦
- ثواب المجاهدين في سبيل الله..... ٣١

- ٣٨..... فضل الحراسة في سبيل الله
- ٤١..... مسائل الباب
- ٣٧- بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ
- ٤٤..... فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
- ٤٦..... شرك الطاعة على ثلاثة أقسام
- ٤٧..... شرح أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ...»
- ٤٩..... وجه الشاهد من أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
- ٥٠..... أقوال العلماء في وجوب اتباع سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٥٢..... شرح كلام الإمام أحمد بن حنبل: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ»
- ٥٧..... شروط الاجتهاد
- ٥٧..... المقلد لا يكون من أهل العلم
- ٥٩..... طلب الدليل هو الواجب على المسلم
- شرح حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ:
- ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ
- أَبْنِ مَرْيَمَ ﴾
- ٦١..... وجه الدلالة من الحديث
- ٦٢..... مسائل الباب
- ٦٧..... ٣٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا
- بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾
- ٦٩.....

- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٧٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ ٧٤
- وجوب الكفر بالطاغوت ٧٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ٧٧
- صلاح الأرض بالتوحيد وفسادها بالشرك ٧٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا...﴾ ٧٩
- صلاح الأرض لا يكون إلا بأمرين ٨١
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ...﴾ ٨٣
- شرح حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ...» ٨٦
- مناسبة الحديث للباب ٨٨
- شرح حديث الشَّعْبِيِّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ...»، وحديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَقِيلَ: (نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَفَعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» ٩١
- أحكام عظيمة في هذا الباب العظيم ٩٣
- مسائل الباب ٩٧

- ٣٩- بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ١٠٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ...﴾ ١٠٠
- جحود الجهمية لأسماء الله وصفاته ١٠٠
- تصنيف علماء السلف في الرد على الجهمية ١٠١
- التوحيد ثلاثة أنواع ١٠٣
- إجماع أهل العلم على تكفير الجهمية ١٠٥
- جحود الأسماء والصفات على قسمين ١٠٧
- شرح قول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ...» ١١٠
- الذي يحدث الناس بما لا يعرفون بين حالتين ١١١
- شرح أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ...» ١١٣
- قاعدة أهل السنة والجماعة: أنهم يردون التشابه إلى المحكم ١١٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ...﴾ ١٢٢
- مسائل الباب ١٢٤
- ٤٠- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ١٢٦
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ١٢٧
- المراد بنعمة الله ١٢٧
- معنى قول مجاهد في تفسير الآية ١٢٩
- كلام عون بن عبد الله في تفسير الآية ١٣٠

- تفسير ابن قتيبة للآية ١٣٢
- كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ١٣٢
- مسائل الباب ١٣٦
- ٤١ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١٤٠
- شرح قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا...﴾ ١٤٠
- تعريف الند ١٤٠
- شرح أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية ١٤٦
- الشرك ينقسم إلى قسمين ١٤٧
- شرح حديث عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ حَلَفَ ...» ١٥٢
- الجمع بين ما جاء في بعض الأحاديث من الحلف بغير الله، والنهي عن
الحلف بغير الله ١٥٣
- الشاهد من الحديث للترجمة ١٥٣
- شرح أثر ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِأَنَّهُ أَحْلَفَ بِاللَّهِ ...» ١٥٤
- شرح حديث حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ...» ١٥٦
- شرح أثر إبراهيم النخعي: «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ ...» ١٥٨
- مسائل الباب ١٦٠
- ٤٢ - بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ ١٦٣
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ١٦٤
- مسائل في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ١٦٤

- مسائل الباب ١٦٧
- ٤٣- بَابُ قَوْلٍ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ ١٦٨
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ١٦٩
- شرح حديث قتيلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ١٧٠
- شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ...» ١٧٤
- شرح حديث الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ...» ١٧٦
- الرؤيا على ثلاثة أقسام ١٧٨
- فوائد في حديث الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ١٨١
- مسائل الباب ١٨٣
- ٤٤- بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ ١٨٤
- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ١٨٤
- تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾ ١٨٧
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ...» ١٨٩
- مسائل الباب ١٩٤
- ٤٥- بَابُ التَّسْمِي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ ١٩٦
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ...» ١٩٦
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ١٩٧
- النهي عن التسمي بملك الأملاك ١٩٩
- مسائل الباب ٢٠٢

- ٤٦- بَابُ اخْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرِ الْأَسْمَاءِ لِأَجْلِ ذَلِكَ ٢٠٣
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٢٠٣
- شرح حديث أَبِي شُرَيْحٍ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ...» ٢٠٦
- مناسبة الحديث للباب ٢٠٨
- الحكم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ ٢٠٨
- مسائل الباب ٢١٢
- ٤٧- بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ ٢١٣
- أهمية هذا الباب ٢١٥
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٢١٥
- غزوة تبوك اجتمعت فيها شذائد كثيرة ٢١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ...﴾ ٢١٨
- مسائل الباب ٢٢٢
- ٤٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ أَدَقَّنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ﴾ ٢٢٤
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٢٢٥
- شرح حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ، وَأَقْرَعٌ، وَأَعْمَى...» ٢٢٩
- عبر عظيمة في هذه القصة ٢٣٦
- مسائل الباب ٢٣٦

٤٩- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليْحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا

فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٢٣٨

المقصود في الآية آدم وحواء ٢٤٣

تحريم التعبد لغير الله عَزَّوَجَلَّ ٢٤٥

حكم التسمي بعبد المطلب ٢٤٥

مسائل الباب ٢٤٧

٥٠- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ

يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ٢٤٨

إن لله تسعة وتسعين اسمًا ٢٤٨

معاني جليلة تتضمنها هذه الآية ٢٥٢

التوسل على قسمين ٢٥٤

أنواع التوسل المشروع ٢٥٤

أنواع الإلحاد في أسماء الله ٢٥٧

معنى: «تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا» ٢٥٩

قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يشركون ٢٦٢

شرح كلام ابن القيم الذي أورده الشارح ٢٦٦

مسائل الباب ٢٧٠

٥١- بَابُ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ ٢٧٢

شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» ٢٧٢

- ٢٧٣..... بيان معنى السلام في التحية
- ٢٧٥..... مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ٢٧٦..... الفرق بين التحية والسلام
- ٢٨٠..... مسائل الباب
- ٢٨٢..... ٥٢- بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ
- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ:
- اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ»..... ٢٨٢
- ٢٨٨..... مسائل الباب
- ٢٩٠..... ٥٣- بَابٌ لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمْتِي
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمَ رَبَّكَ...»..... ٢٩٠
- ٢٩٠..... مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ٢٩٣..... مسائل الباب
- ٢٩٥..... ٥٤- بَابٌ لَا يَرُدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ
- شرح حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ...»..... ٢٩٥
- ٢٩٦..... مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ٢٩٧..... أقوال أهل العلم فيمن سأل بالله
- ٢٩٧..... أربع مسائل: في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
- ٣٠٢..... مسائل الباب
- ٣٠٤..... ٥٥- بَابٌ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

- شرح حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ» ٣٠٤
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٣٠٥
- مسائل الباب ٣٠٩
- ٥٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ ٣١٠
- مناسبة الآيتين للباب ٣١٤
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اٰخِرُ ضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ...» ٣١٦
- (لو) تفتح عمل الشيطان ٣١٧
- استخدامات (لو) ٣١٩
- مسائل الباب ٣٢١
- ٥٧- بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ ٣٢٣
- شرح حديث أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ...» ٣٢٣
- سب الريح فيه محظوران ٣٢٦
- مسائل الباب ٣٢٨
- ٥٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ...﴾ ٣٢٩
- تفسير قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ...﴾ ٣٢٩
- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ٣٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ...﴾ ٣٣٥
- فوائد من الآيتين ٣٤٥
- مسائل الباب ٣٤٧

- ٥٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدَرِ ٣٤٨
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٣٤٨
- تعريف القدر ٣٤٨
- مراتب القدر ٣٤٨
- شرح حديث ابنِ عُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ...» ٣٥٣
- الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا ٣٥٦
- شرح حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ...» ٣٦٢
- اشتمال حديث عبادة على عدة مسائل ٣٦٤
- هل القلم أول المخلوقات؟ ٣٦٥
- الخلاف بين السلف في أيهما أسبق العرش أم القلم؟ ٣٦٦
- حديث ابنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: لَهُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ الْقَدَرِ، فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي ٣٦٨
- مسائل الباب ٣٧٤
- ٦٠- بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ ٣٧٧
- تعريف التصوير ٣٧٧
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٣٧٧
- حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» ٣٨٢

- العله في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ» ٣٨٥
- حديث ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ» ٣٨٦
- شرح التصوير يحرم لعنتين ٣٨٩
- حديث أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: «قَالَ لِي...» ٣٩٠
- الشيعة على قسمين ٣٩٦
- مسائل الباب ٣٩٩
- ٦١- بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ ٤٠٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ ٤٠٢
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٤٠٢
- تفسير السلف للآية ٤٠٣
- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ...» ٤٠٥
- شرح حديث سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ...» ٤٠٧
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشِيمُطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» ٤٠٩
- موطن الشاهد من الحديث ٤١٣
- شرح حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي...» ٤١٥
- المراد بالقرن في الحديث ٤١٧
- شرح أثر إبراهيم النخعي: «وَكَاثُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ، وَنَحْنُ صِغَارٌ...» ٤٢٦

- مسائل الباب ٤٢٨
- ٦٢- بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ ٤٣١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ...﴾ ٤٣١
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٤٣١
- شرح حديث بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَ...» ٤٣٥
- أغراض تشريع الإسلام للجزية ٤٥٤
- مسائل الباب ٤٦٠
- ٦٣- بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ ٤٦٢
- شرح حديث جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ...» ٤٦٣
- فوائد من الحديث ٤٦٦
- مسائل الباب ٤٦٨
- ٦٤- بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ٤٧٠
- تعريف الشفاعة ٤٧٠
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٤٧٠
- الشفاعة ثلاثة أقسام ٤٧٢
- شرح حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ...» ٤٧٣
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٤٧٧
- حديث الأطيط ودلالته ٤٧٧
- مسألة الاستشفاع بالميت وأن هذا شرك ٤٧٩

- مسائل الباب ٤٨١
- ٦٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ
طُرُقَ الشُّرْكِ ٤٨٣
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٤٨٣
- شرح حديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٨٥
- حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَيْرَنَا
وَأَبْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَأَبْنَ سَيِّدِنَا» ٤٨٨
- اختلاف العلماء في تسمية العبد بالسيد ٤٩١
- مسائل الباب ٤٩٤
- ٦٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ ٤٩٥
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٤٩٥
- حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» ٥٠٠
- حديث ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ...» ٥٠٦
- حديث ابنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ...» ٥١٠
- حديث أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ...» ٥١١
- حديث ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا...» ٥١٢
- أقوال الصحابة والتابعين في الرد على نفاة الصفات ٥١٨
- الجعد بن درهم هو أول من أنكر العلو ٥٢١



٥٢٥.....	حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ تَذُرُونَ...»
٥٢٩.....	مسائل الباب
٥٣٤.....	الخاتمة
٥٣٧.....	مراجع التحقيق
٥٧٧.....	فهرس الموضوعات